

لواء مجلس الكلية بحضرة
شهادة عبد الجبار

١٢/٥/١٤٢٧

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية



علاقة الدولة الخوارزمية بالقوى

في بلاد الشام

(١٢٢٤ هـ - ١٢٤٥ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٤٧ م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد

عابد بن عبدالرزاق بن عبدالله الغريبي

إشراف الدكتور

محمد المنسي عاصي

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القري
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) عابد بن عبدالرزاق بن عبد الله الغربي كلية : الشريعة قسم : الدراسات العليا التاريخية والحضارية ...
الأطروحة مقدمة ليل درجة : الماجستير في تخصص : التاريخ الإسلامي
عنوان الأطروحة : ((علاقات الخوارجيين بالقوى في بلاد الشام (٦٣٤-٦٤٥هـ/١٢٣٧-١٢٤٧م)))

وبعد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٥/٢/١٤١٧ هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المناقش الخارجي

المناقش الداخلي

المشرف

الاسم : د/عبدالله سعيد الغامدي

الاسم : د/علي عودة الغامدي ..

الاسم : د/محمد المنسي عاصي

التوقيع :
١٤١٧/٤/٢٤
يعتمد

التوقيع :

التوقيع :

رئيس قسم

الاسم : د/سعد بن عبد الله البشري

التوقيع :
١٤١٧/٤/٢٦

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي بعنوان «علاقات الخوارزميين بالقوى في بلاد الشام» وتشمل الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول يبين في المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهم المصادر التي اعتمدت عليها في البحث والصعوبات التي واجهت الباحث.

وفي التمهيد موجز عن أوضاع الدولة الخوارزمية والممالك الأيوبية قبيل موضوع الدراسة. أما الفصل الأول: ففيه الحديث عن العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في شمال الشام والجزيرة وتتبع الفصل أيضاً تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية ونهاية جلال الدين. أما الفصل الثاني: فقد تطرق للحديث عن علاقات الخوارزميين بالقوى الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام بعد مقتل جلال الدين واحتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل وختم بهجوم الناصر داود على بيت المقدس.

وفي الفصل الثالث: يبين موقف الخوارزميين من الخلافات المتجددة بين ملوك بني أيوب وتحالف بعض ملوك بني أيوب مع الصليبيين.

وفي الفصل الرابع: تم إبراز الجوانب الإيجابية للخوارزمية حيث قاموا باسترداد بيت المقدس من الصليبيين بعد أن سلمه لهم الصالح إسماعيل وهزموا الصليبيين في موقعة غزة سنة ٦٤١هـ.

أما الفصل الخامس والأخير فقد ناقش تطور العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزميين وبين كذلك طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الصليبية السابعة وأخيراً الخاتمة، وفيها نتائج البحث ومنها :

١ - أن الدولة الخوارزمية عجزت عن تحقيق المهمة التي كان ينبغي أن تقوم بها وهي حماية السور الشرقي للعالم الإسلامي من الخطر المغولي.

٢ - برهنت الدراسة على أن هذه الفترة تعتبر من المراحل المهمة جداً في التاريخ الإسلامي.

٣ - عدم إدراك حكام المسلمين لخطورة موقفهم عقب سقوط الحاجز بينهم وبين التار.

٤ - أن القوات الخوارزمية التي تفرقت في البلاد لم تلعب دوراً يذكر لاستعادة مجدها.

٥ - إلقاء الضوء على بعض الجوانب الإيجابية للخوارزميين إذ تمكنوا من استعادة بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبية سنة ٦٤٢هـ.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

د/محمد بن ضامل السلمي

المشرف
د/محمد المنسي عاصي

الطالب
عابد بن عبد الرزاق الغريبي

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة : أهمية الموضوع وأسباب إختياره وعرض لأهم مصادر البحث.	٢١-٣
التمهيد : موجز عن أوضاع الدولة الخوارزمية والممالك الايوبية قبيل موضوع الدراسة	٤١-٢٢
الفصل الأول : العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في شمال الشام والجزيرة .	١٤٦-٤٢
- تحالف المعظم عيسى ملك دمشق مع جلال الدين الخوارزمي.	٧٦-٤٤
- استيلاء جلال الدين على خلاط.	٩٣-٧٧
- تحالف سلاجقة الروم مع الايوبيين ضد جلال الدين ونتائجه.	١١٤-٩٤
- تجدد الخطر المغولي على الدول الخوارزمية ونهاية جلال الدين.	١٤٦-١١٥
الفصل الثاني : علاقات الخوارزميين بالقوى الاسلامية ببلاد الجزيرة والشام بعد مقتل جلال الدين.	٢٢٩-١٤٧
- تفرق جيوش جلال الدين وتجدد الخلافات بين ملوك بني أيوب.	١٧٩-١٤٩
- هجوم الخوارزميين على مملكة حمص (٦٣٦هـ - ١٢٣٩م)	١٩٨-١٨٠
- احتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح اسماعيل ودور الخوارزميين في ذلك.	٢١٦-١٩٩
- هجوم الناصر داود على بيت المقدس.	٢٢٩-٢١٧
الفصل الثالث : موقف الخوارزميين من الخلافات المتجددة بين ملوك بني أيوب (٦٣٨-٦٤١هـ)	٢٧٥-٢٣٠

- ٢٤٥-٢٣٢ - هزيمة الخوارزميين أمام الايوبيين عند الرها سنة ٦٣٨هـ.
- ٢٥٩-٢٤٦ - تحالف الصالح اسماعيل مع الصليبيين سنة ٦٣٨هـ .
- ٢٦٧-٢٦٠ - تجدد خطر الخوارزميين على بلاد الشام سنة ٦٤٠هـ .
- ٢٧٥-٢٦٨ - تحالف الصالح أيوب مع الخوارزميين سنة ٦٤١هـ .

الفصل الرابع: الخوارزميون واسترداد بيت المقدس

- ٣٠١-٢٧٦ (٦٤١-٦٤٢هـ).
- الصالح اسماعيل يسلم بيت المقدس للصليبيين وأثر ذلك على الأوساط الإسلامية سنة ٦٤١هـ.
- ٢٨٤-٢٧٨ - دخول الخوارزميين بلاد الشام واستردادهم لبيت المقدس سنة ٦٤٢هـ.
- ٢٩١-٢٨٥ - معركة غزة (حطين الثانية) سنة ٦٤٢هـ.
- ٣٠١-٢٩٢

الفصل الخامس : العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزميين

- ٣٤٨-٣٠٢ (٦٤٣-٦٤٥هـ)
- الصالح أيوب واسترداد دمشق سنة ٦٤٣هـ .
- ٣١٤-٣٠٤ - خروج الخوارزمية عن طاعة الصالح أيوب وتحالفهم مع أعدائه .
- ٣٢٠-٣١٥ - انتصار قوات الصالح أيوب على الخوارزميين سنة ٦٤٤هـ .
- ٣٣٥-٣٢١ - طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الحملة الصليبية السابعة .
- ٣٤٨-٣٣٦

- الخاتمة -

- ٣٥٥-٣٤٩
- ٣٦٦-٣٥٦ - الملاحق
- ٣٧٦-٣٦٧ - الجداول والخرائط
- ٣٩٩-٣٧٧ - المصادر والمراجع

مُقَلَّمَةٌ

- ١- أهمية الموضوع وسبب اختياره.
- ٢- عرض لأهم مصادر البحث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أهمية الموضوع وسبب اختياره :
الحمد لله رب العالمين، اللهم إياك نعبد، وإياك نستعين، وعليك نتوكل، وإليك
نسعى ونحفد. ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك.
أما بعد :-

فقد كانت الدولة الخوارزمية التي قامت في إقليم خوارزم في ما وراء النهر في
الفترة بين (٤٩٠ هـ - ٦٢٨ هـ) إحدى القوى الإسلامية وكانت لها مهمة محددة لم
تتنبه إليها هي حماية السور الشرقي للدولة الإسلامية كما لم توفق في توحيد الصف
الإسلامي لمواجهة الأخطار المحدقة بالأمّة الإسلامية والمتمثلة في الخطر المغولي
والصليبي نتيجة لسياسة العداء الطويلة مع حكام البلاد الإسلامية في الشام والجزيرة.
ومن هنا وجدت أن دراسة موضوع علاقات الدولة الخوارزمية بالقوى السياسية
في بلاد الشام له أهمية بالغة لأن معظم الدراسات التاريخية الخاصة بالدولة
الخوارزمية قد تركزت حول الجوانب السياسية العسكرية البارزة من تاريخ هذه
الدولة بينما لا تزال بعض فترات هذه الحقبة التاريخية يكتنفها شيء من الغموض
وخاصة علاقات هذه الدولة بالممالك الأيوبية في الشام والجزيرة - رغم ما تمثله
من تأثير بالغ على حاضر عالمنا الإسلامي ومستقبله. إذ المعروف أن الهدف من
دراسة الحوادث التاريخية ليس مجرد سردها واستذكارها، بل لكونها تؤثر سلباً
وإيجاباً في حاضر الأمم والشعوب ومستقبلها.

ومن ناحية أخرى فقد جاءت أهمية دراسة هذا الموضوع كونه يجسد معليه
العالم الإسلامي اليوم من اختلاف في الآراء وتفرق الكلمة مما جعله عرضه لأطماع
أعدائه، فما أحوج الأمّة الإسلامية في وقتنا الحاضر إلى تجنب هذه الخلافات ورأب

الصدع حتى تتمكن من الوقوف صفاً واحداً في وجه أعداء الأمة الإسلامية الذين باتوا يتربصون بها الدوائر من كل مكان متى ما لمسوا منها ضعفاً أو تفككاً.

ولهذا أحيت أن أتناول علاقات الخوارزميين بالقوى السياسية في بلاد الشام والجزيرة لأخذ العظة والعبرة من هذه الأحداث موضوع الدراسة، فالتاريخ ذاكرة الشعوب والشعوب فاقدة الذاكرة عن تأمل ماضيها هي أقل الشعوب في فهم الحاضر، وهي أعجز الشعوب عن بناء المستقبل.

فالمعروف أن السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي كانت دولته آنذاك أقوى دول المشرق الإسلامي. قد استفد كامل قواه في صراع مرير مع جيرانه من القوى الإسلامية وغيرها ولم يحاول التضامن معهم لدرء الخطر المغولي عن دولته خاصة ودول الإسلام عامة الأمر الذي سهل على المغول اكتساح بلدان المشرق الإسلامي الواحدة تلو الأخرى.^(١)

وعلى الرغم من مقتل السلطان جلال الدين الخوارزمي بعد أن اجتاحت الجيوش المغولية بلاده فإن القوات الخوارزمية التي لجأت إلى آسيا الصغرى وبلاد الجزيرة كانت تفتقر فقط إلى من يعيد إليها تنظيمها ويوجهها الوجهة الصحيحة لحمل راية الجهاد ضد أعداء المسلمين آنذاك من المغول والصليبيين. إلا أن حكام آسيا الصغرى وبعض ملوك بنى أيوب في الجزيرة والشام لم يحسنوا استخدام تلك الجموع من الجيوش الخوارزمية المدربة على مختلف فنون القتال، وإنما استخدموها في صراعاتهم مع بعضهم البعض.

وعندما فطن الملك الصالح أيوب لهذه الحقيقة وتناسى السلوك غير المحمود الذي سلكه الخوارزميون في الجزيرة والشام. بادر إلى استدعائهم لمساعدته ضد من تحالف مع الصليبيين من خصومه الأيوبيين. وبالفعل فإنه على الرغم من تحول الموقف لصالح الصليبيين في بلاد الشام منذ حملة الإمبراطور فردريك الثاني

(١) علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٤٣٧-٤٧٤.

٦٢٦هـ / ١٢٢٩م فقد أدى تحالف الخوارزميون مع الصالح أيوب إلى تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في الشام إذ تمكنت جموع الخوارزمية حين قدموا إلى بلاد الشام سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م استجابة لدعوة الصالح أيوب من استرداد بيت المقدس من الصليبيين، ومن ثم انتصر على أعدائه الصليبيين ومن حالفهم من ملوك الشام وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة في غزة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤هـ ترتب عليها مسير القوات المصرية إلى دمشق وانتزاعها بمساعدة الخوارزمية من الصالح إسماعيل وإعادة الوحدة من جديد بين مصر والشام. وكان لذلك أبعاد الأثر في تحطيم قوة الصليبيين وتمهيد السيل للمماليك بعد ذلك لاقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام من جذوره^(١). وقبل ذلك تطهير بلاد الشام من الوجود المغولي. أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني في إعداد البحث فهي أنني لم أكن أتصور حجم المعاناة التي تواجه الباحث في مثل هذا الموضوع، حيث اقتضى الأمر أن أقوم - أولاً - بقراءة المادة المتناثرة في بطون المصادر والمراجع وهي كثيرة متنوعة ومن ثم استخراج الموضوعات ذات العلاقة بالدولة الخوارزمية وغيرها من القوى في بلاد الشام والجزيرة. على أن مكمن الصعوبة تمثل عن البحث في المخطوطات والمصادر الفارسية المترجمة، ولقد عثرت أثناء الدراسة على بعض المصادر باللغة الفارسية وكنت أتمنى أن أترجمها فهي أصيلة في فترة الدراسة ولكن حالت ظروف خاصة عن ترجمتها وضم معلوماتها القيمة إلى هذه الرسالة، أما المخطوطات فقد تمثلت صعوبة قراءتها لعدة أسباب منها عدم وضوح الخط وسقوط بعض الجمل من المخطوط كما أن القراءة من خلال جهاز العرض يمثل هو الآخر صعوبة إضافية.

ومن هذا المنطلق كان للبحث أهداف لعل من أهمها : -

١ - الاستفادة من الحوادث التاريخية الإسلامية في الوقت الحاضر كما بينت

سابقاً.

(١) علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٤٧٥.

٢- إلقاء الضوء على جانب من جوانب الصراع بين الدويلات الإسلامية في تلك الفترة.

٣- أن الضربات القوية التي وجهت إلى الأمة الإسلامية إنما وجهت إليها من داخلها.

٤- أنه بقدر ما تبتعد الأمة عن المنهج الرباني يصيبها الضعف والخور والتفكك والانقسام لأن الأمة تناست الوحدة الإسلامية.

ولقد كانت الخطة التي سرت عليها في إبراز هذه الأهداف هي أنني لم آخذ بكل ما قاله المؤرخون كقضايا مسلمة مع احترام آراء السابقين والمحدثين وتقديرها ولكن قمت بمحاولة تحليل الحدث ومناقشته واستقراء المادة التاريخية والتوصل إلى كثير من النتائج التي أرجو أن أكون قد وفقت في إبرازها.

وقد احتوت الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وبعض الملاحق واقتصرت المقدمة على ذكر سبب اختيار الموضوع ودراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث.

وناقش التمهيد أحوال كل من الدولة الخوارزمية والأيوبيه قبيل موضوع الدراسة، فأعطى صورة موجزة عن الأدوار التي مرت بها كلتا الدولتين ومن ثم الأسباب التي هيئت لقيام علاقات بينها فيما بعد.

أما الفصل الأول وعنوانه "العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في الشام والجزيرة" (٦٢٤هـ - ٦٢٨هـ) فهو يحتوى على أربعة مباحث، تناول المبحث الأول تحالف المعظم عيسى ملك دمشق مع جلال الدين الخوارزمي، وبين الأسباب التي دفعت المعظم عيسى إلى ذلك، كما أن جلال الدين الخوارزمي كان هو الآخر حريصاً على إجراء مثل هذا التحالف للهجوم على الخلافة العباسية التي كان يعتقد أنها السبب في هلاك أبيه ودخول المغول إلى بلادهم، وأشار المبحث كذلك إلى ما قام به الملك الكامل صاحب مصر من الاستتجاد بالإمبراطور فردريك الثاني ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م للوقوف في وجه أخيه المعظم عيسى وحليفه

جلال الدين، وتطرق المبحث إلى الخطة التي أعدها المعظم عيسى للسيطرة على بلاد الشام، وختم هذا المبحث بوفاة المعظم عيسى الحليف الأول للخوارزميين في هذه المنطقة.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد أشار إلى استيلاء جلال الدين على خلاط وما صاحب ذلك من تدخل الخلافة العباسية للتوسط في رفع الحصار عنها، في الوقت الذي كان الأشرف موسى والكمال محمد يتآمران على انتزاع دمشق من ابن أخيها الناصر داود، وتطرق المبحث كذلك إلى وصول الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وتسلمه لبيت المقدس من قبل الملك الكامل صاحب مصر، وناقش المبحث كذلك بعض الآراء التي بررت لجلال الدين ما أحدثه هو وجيشه في خلاط من قتل ونهب وتدمير وسلب وغيرها.

وألقى المبحث الثالث الضوء على التحالف السلجوقي الأيوبي ضد جلال الدين وما ترتب على ذلك من أضعاف لقوته. فقد خاف كل من السلاجقة وملوك بني أيوب من زحف جلال الدين على بلادهم خاصة بعد ما بلغهم عن الهجوم المدمر على مدينة خلاط الأيوبية، فبادروا بإعداد العدة وتجهيز الجيوش لإيقافه عند حده، وفعلاً دارت بين الطرفين معركة كبيرة انتهت بهزيمة جلال الدين وتفرق جيشه.

وعالج المبحث الرابع والأخير تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية، ومحاولات جلال الدين المستميتة لإقناع حكام المسلمين بخطورة المغول وحثهم على توحيد الصف الإسلامي للتصدي لهذا الخطر، إلا أن محاولاته باءت بالفشل نتيجة لسياسة العداة التي اتبعها مع حكام المسلمين، وأشار المبحث كذلك إلى مطاردة المغول لجلال الدين وتفرق أتباعه ونهايته.

وتناول الفصل الثاني "علاقات الخوارزميين بالقوى الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام بعد مقتل جلال الدين" (٦٢٨-٦٣٨هـ) وهو ينقسم بدوره إلى أربعة مباحث. تتبع المبحث الأول تفرق الخوارزميين بعد مقتل زعيمهم جلال الدين في بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى والعراق، وظلوا في هذه البلاد كجنود مرتزقة يعرضون

خدماتهم على من يمدهم بالمال والمتاع، وشرح المبحث كذلك الصراع المتجدد بين ملوك بني أيوب الأمر الذي هيا الفرصة لتدخل الخوارزمية بينهم.

وعالج المبحث الثاني بداية علاقة الصالح أيوب بالخوارزميين واستخدامهم في الجيش إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا عليه بعد وفاة أبيه الكامل وطمعوا فيه، وكاد الصالح أيوب يقع فريسة لهم ولغيرهم، ولكنه استطاع أن يستميلهم إليه مرة أخرى، فرجع إلى مكانته السابقة وانطلق بهم ودخل دمشق سنة ٦٣٦هـ، وأشار المبحث كذلك إلى ما قام به المظفر صاحب حماه من تحريض الخوارزمية للهجوم على حمص إلا أن صاحبها تمكن من استمالتهم بمال كثير فصرفهم عن مدينته.

أما المبحث الثالث فقد أعطى صورة مفصلة عن احتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل. فقد تمكن الصالح إسماعيل من التحايل على ابن أخيه الصالح أيوب حتى استولى على دمشق، الأمر الذي أدى إلى تفرق أتباع الصالح أيوب وبقائه في قلة من أصحابه معرضاً للوقوع في قبضة كل من أخيه العادل صاحب مصر وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق. ثم دخل في جوار الناصر داود الذي استنجد به لمساندته.

وبين المبحث الرابع انشغال ملوك المسلمين بالصراع فيما بينهم وترك بيت المقدس في يد الصليبيين منذ الحملة الصليبية السادسة، إلا أن الله سبحانه وتعالى سخر الناصر داود لتطهير هذا البلد المقدس من يد الصليبيين، وأشار المبحث إلى الطريقة التي تم بها هذا الفتح المبارك.

أما الفصل الثالث وعنوانه " موقف الخوارزميين من الخلافات المتجددة بين ملوك بني أيوب " (٦٣٨-٦٤١هـ) فهو الآخر يتكون من أربعة مباحث، كشف المبحث الأول خطورة الوجود الخوارزمي في بلاد الشام فقد قاموا بشن غارات مدمرة على البلدان الإسلامية، إلا أن اتحاد مملكة حلب مع مملكة حمص أتاح لهما فرصة هزيمة الخوارزميين عند الرها سنة ٦٣٨هـ.

وبين لنا المبحث الثاني خطورة الأطماع الشخصية فبدلاً من أن يتحد ملوك بنى أيوب في وجه الصليبيين المجاورين لهم، وبدلاً من أن يرفعوا راية الإسلام والجهاد لإنقاذ بلاد المسلمين من التحدي الصليبي المتربص بهم بدلاً من هذا نجد الصالح إسماعيل يسعى إلى التحالف مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح أيوب.

وعالج المبحث الثالث تجدد الخطر الخوارزمي على بلاد الشام واثّر ذلك على زيادة تمزق الصف الإسلامي فقد وضح هذا المبحث حقيقة الأطماع الخوارزمية إذ لم يرضوا بما عرضه عليهم سلطان الروم من اقطاعات في بلاده مقابل الكف عن أعمالهم العدوانية - نتيجة لإختلا سياسة كيخسرو الثاني عن سياسة أبيه - ، بل واصلوا أعمال السلب والنهب بالتعاون مع كل من صاحبي ميافارقين وآمد، إلا أن المنصور صاحب حمص تمكن من إنزال الهزيمة بالخوارزميين ومن معهم، كما بين المبحث سبب الوساطة التي عرضها صاحب الروم على الأطراف المتصارعة.

وشرح المبحث الرابع والأخير من هذا الفصل حقيقة التحالف بين الصالح أيوب والخوارزميين، فقد تناسى الصالح أيوب الأعمال السابقة للخوارزمية وأرسل إليهم يطلب منهم مساعدته ضد خصومة في بلاد الشام وأغراهم ومناهم بالعطايا.

وأوضح الفصل الرابع وعنوانه " الخوارزميون واسترداد بيت المقدس " (٦٤١هـ - ٦٤٢هـ) موقف المسلمين من هذه البقعة المقدسة وهو ينقسم إلى ثلاثة مباحث، بين المبحث الأول تلاعب ملوك بنى أيوب بمقدسات المسلمين حيث قام الصالح إسماعيل وبعض حكام بنى أيوب بتسليم بيت المقدس للصليبيين مقابل أن يساعدوهم في قتال الصالح أيوب، فأوقفوا بذلك حركة المقاومة والجهاد ضد الصليبيين ومكنوا لهم في بلاد المسلمين الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تأخر جلاء الصليبيين عن البلاد الإسلامية.

وابرز المبحث الثاني الجوانب الإيجابية للخوارزمية فقد قاموا بعمل جليل تمثل في استعادتهم لبيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، وبقي بيت المقدس بعد ذلك بأيدي المسلمين حتى العصر الحديث.

وعزز المبحث الثالث بعض الجوانب الإيجابية للخوارزمية في تاريخهم فقد قاموا بإنزال هزيمة ساحقة بالصليبيين وحلفائهم من المسلمين، حيث أُسر في هذه المعركة ثمانمائة أسير من الصليبيين وقتل منهم ما يقرب من ثلاثين ألفاً، فكانت بذلك أعظم كارثة تحل بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ، حتى أن سبط ابن الجوزي^(١) ذكر أنه لم يجر مثلها لا في زمان نور الدين ولا صلاح الدين، وأطلق البعض الآخر على هذه الموقعة اسم حطين الثانية، وعلى الرغم مما في هذا القول من المبالغة إلا أنه يشير إلى عظمة النصر وقوته.

أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه "العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزمية (٦٤٣هـ - ٦٤٥هـ) فقد ناقش تطور العلاقة بينهم وهو ينقسم أيضاً إلى أربعة مباحث صور لنا المبحث الأول استمرار العلاقة بين الصالح أيوب والخوارزمية حيث قاموا بمساندته في حصار دمشق وانتزاعها من عمه الصالح إسماعيل وصور لنا المبحث أيضاً ما لقيه أهل دمشق من الضيق والشدة بسبب الحصار المضروب حولهم.

وكشف لنا المبحث الثاني النقاب عن أطماع الخوارزمية، فقد ظنوا أنهم قد استحقوا بخدماتهم تلك أن يقاسمهم الصالح أيوب البلاد ويمكنهم من الاستيلاء على أكثرها بالإضافة إلى منحهم بعض الإقطاعات بالديار المصرية، وبما أنه لم يتحقق لهم شيء من ذلك، فقد قاموا بالخروج على الصالح أيوب، وهجموا على إحدى القرى ونهبوها، ثم بدءوا يكونون حلفاء ضد الصالح أيوب، وفعلاً نجحوا في استقطاب كل من الناصر داود والصالح إسماعيل، وتوجهوا إلى دمشق وفرضوا عليها حصاراً شديداً، حرم المدينة من جميع الإمدادات، وقاسى السكان من ذلك ولقوا من العنت والضيق والغلاء والجوع والوباء ما لا يوصف.

واستعرض المبحث الثالث موقف الصالح أيوب من حلفائه الخوارزميين الذين انقلبوا عليه ومن انضم إليه من ملوك بني أيوب، فقد عمد الصالح أيوب إلى

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤٦.

استقطاب المنصور إبراهيم صاحب حمص والحليين وجعلهم في صفه، وكون بذلك حلفاً جديداً تمكن بواسطته من الانتصار على الخوارزمية ومن انضم إليهم سنة ٦٤٤هـ، وكانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم حيث تبدد شملهم وتفرقوا في أنحاء الشام والجزيرة وألقى المبحث الرابع والأخير الضوء على طبيعة الدور الخوارزمي في بلاد الجزيرة والشام واثّر ذلك على قيام الحملة الصليبية السابعة. وأخيراً تضمنت الرسالة خاتمة تبين أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، ومجموعة من الملاحق تشتمل على بعض النصوص والخرائط والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث.

- عرض لأهم مصادر البحث :-

ولقد اعتمدت في بحثي هذا على كثير في المصادر والمراجع وكان من يمن الطالع أن جزءاً كبيراً منها كان معاصراً لأحداث تلك الفترة فأمد البحث بمادة علمية جيدة عنها، وبعضها كان قريب العهد منها فكان شارحاً ومكملاً لبعض جوانب النقص في المصادر السابقة وأتاح له عدم المعاصرة حرية النقد لبعض جوانبها، كما اعتمدت على عدد لا بأس به من المراجع العربية الحديثة التي ألفت الضوء على بعض الجوانب الهامة واستفدت من آراء كتابها في كثير منها كما قمت بمناقشة بعضها والرد عليها، وسأقتصر في هذا العرض على دراسة وبحث أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

فمن المصادر الأصلية التي اعتمد عليها البحث كتاب **الكامل في التاريخ**

لمؤلفه عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم لشيباني الجزري المشهور بابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) وهو أوسط ثلاثة أخوه يحملون هذا اللقب وعرفوا جميعاً بالعلم والفضل فقد نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية. وقد كان ابن الأثير صاحب الكامل وهو أوسطهم حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ولذا كان أكثر ما اشتهر به دراسة التاريخ. ويعتبر

كتابه الكامل أهم مؤلفاته في هذا المجال إذ تناول فيه دراسة التاريخ العام للعالم الإسلامي ابتداء من بدء الخليقة وانتهاء بحوادث سنة ٦٢٨ هـ. ويعتبر كتابه من أهم مؤلفات التاريخ الإسلامي والتزم المؤلف في منهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي ومقارنة ما يقع من الأحداث في كل منها عام بعد عام، واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل إقليم. ولكتاب ابن الأثير ابتداء من الجزء التاسع أهمية خاصة للبحث نظراً لأنه يؤرخ لأحداث قرية العهد من زمنه سمع بها وشارك فيها^(١). ويعتبر الجزء التاسع من كتاب الكامل العمود الفقري للفصل الأول من البحث، فلقد وردت فيه معلومات غزيرة ومفصلة عن بداية ظهور المغول وبداية العلاقات بين جلال الدين الخوارزمي والملك المعظم عيسى، وتتميز روايات ابن الأثير بالتفاصيل الدقيقة التي تصور كل جوانب الحدث التاريخي.

كما أفاد البحث في توضيح العلاقات بين أبناء السلطان العادل وما ترتب على ذلك من استعانة المعظم عيسى بجلال الدين الخوارزمي، كما تطرق إلى محاولة جلال الدين لتهديد الخلافة العباسية، وأمدنا بمعلومات قيمة عن حصار جلال الدين لخلات وسقوطها بيده وما أحدثه هو وجيشه فيها من القتل والنهب والتخريب وما ترتب على ذلك من إحداث الرعب في قلوب بعض الممالك المجاورة له وبالأخص الأيوبيين والسلاجقة الأمر الذي دعاهم إلى توحيد صفوفهم والتصدي لجلال الدين وهزيمته هزيمة منكرة سنة ٦٢٧ هـ وألقى الضوء كذلك على المحاولات المستميتة لجلال الدين الخوارزمي في توحيد صفوف المسلمين ومجابهة الخطر المغولي القادم من الشرق وهيئات له أن يفلح في ذلك وكانت نهايته سنة ٦٢٨ هـ.

أما المصدر الثاني الذي اعتمدت عليه اعتماداً كبيراً في الفصل الأول فهو كتاب "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" وهو مؤلف في جزء واحد لمؤلفه محمد بن علي النسوي المتوفى سنة ٦٤٧ هـ ولد ونشأ بقلعة "خرندز" وهي قلعة من

(١) يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجرى، ص ٣٦.

قلاع خراسان، التحق بخدمة جلال الدين بعد أن عاد إلى بلاده من منفاه في بلاد الهند، فعهد إليه بوظيفة كاتب الإنشاء ثم ولاه منصب الوزارة في مدينة نسا، ومع ذلك ظل ملازماً لجلال الدين في جميع سفراته وغزواته حتى آخر أيامه.

ويعد كتاب النسوى "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" ذا أهمية بالغة كمصدر لمؤلف معاصر عاش في كنف من أرخ لهم، ومما يجعلنا نطمئن إلى كتاباته أنه ألفه بعد وفاة سيده جلال الدين بعشر سنين، ونقل ذلك من مذكرات خاصة به إلا أنه لم يتبع الطريقة التي سلكها ابن الأثير وغيره من المؤرخين من حيث سرد الحوادث التاريخية وتدوينها حسب ترتيبها الزمني بل نجده يعتمد إلى معالجة الموضوعات التي أهتم بالكتابة عنها دون أن يتقيد بترتيبها ترتيباً زمنياً.^(١)

وقد أفاد البحث من كتاب النسوى في كل ما يتعلق بجلال الدين منكبرتي فهو يعد سجلاً ثميناً للمعارك التي خاضها ضد المغول، وخاصة معركة اصفهان، ثم حروبه المتواصلة وغزواته داخل الأراضي الكرجية حيث وفق في حروبه معهم الأمر الذي أكسبه سمعة طيبة ثم بين بالتفصيل الحروب التي خاضها جلال الدين الخوارزمي مع الحكام المسلمين والخليفة العباسي في بغداد وبنى أيوب في الشام والجزيرة والسلاجقة في آسيا الصغرى الأمر الذي أدى إلى مصرعه في نهاية الأمر بعد مطاردة المغول له وما ترتب على ذلك من تغيير لميزان القوى في المنطقة.

ومن مصادر البحث القيمة كتاب "التاريخ المنصوري" لمؤلفه (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي المتوفى بعد سنة ٦٣١هـ). وهو من طبقة الكتاب الكبار كان كاتباً للملك الحافظ الأيوبي صاحب قلعة جعبر، ويبدو أن ابن نظيف عمل في وضع تاريخ عام كبير سماه "الكشف والبيان في حوادث الزمان" لم يكتب له الانتشار لأنه في عداد المخطوطات المفقودة، والذي يعرف من كتبه التاريخية كتابه المختصر الذي سماه كما سبق ذكره "التاريخ المنصوري". الذي يكشف عن

(١) انظر النسوى، مقدمة المحقق، ص ٢٤-٢٦.

حوادث عصره كشاهد عيان أتيح له أن يشارك في بعض تلك الحوادث ويتضح منهجه في ذكره لكثير من الأحداث التي أهملها المؤرخون وسكتوا عنها تماماً أو اكتفوا بالإشارة إليها دون الوقوف عندها طويلاً فأورد تفاصيل قيمة عن حوادث القرنين السادس والسابع الهجريين يتعذر على الباحث أن يعثر على نظيرها في المؤلفات التاريخية الأخرى.^(١)

وقد استفاد البحث من كتاب التاريخ المنصوري باعتباره من المصادر المهمة في تاريخ الدولة الأيوبية. إذ عرض فيه وصفاً واضحاً لما كان لها من العلاقات المختلفة مع البلدان المجاورة لها. وتحدث عن الصراع الذي نشب بين ملوك هذه الدولة وكاد أن يقضى عليها. كما انفرد ابن نظيف بمعلومات جيدة عن غارات المغول الأولى على بلاد الجزيرة.

ومن أهم المصادر لموضوع البحث كتاب **"زبدة الحلب من تاريخ حلب"** لمؤلفه (أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، من بنى جراده العقيلي والمعروف بابن العديم ولد سنة ٥٨٨هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ وهو ينتسب إلى أسرة عريقة في حلب اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والأدب والشعر على مدى قرنين من الزمان، وقد نشأ ابن العديم في مدينة حلب وتعلم فيها على يد مجموعة كبيرة من العلماء، ورافق أبيه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز وجالس العلماء وأخذ منهم.^(٢)

وتعد كتابات ابن العديم ثروة تاريخية هامة خاصة فيما يتعلق ببلدة حلب فهو مؤرخ إقليمي، وأشهر مؤلفاته في ذلك كتاب **"بغية الطلب في تاريخ حلب"** وكتاب **"زبدة الحلب من تاريخ حلب"**. ويشتمل كتاب **"بغية الطلب"** على تراجم لآعيان

(١) انظر ابن نظيف الحموي، مقدمة المحقق ص ٥-٦.

(٢) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٢، ص ٢٦٣، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧.

حلب ولكل من دخلها واتصل بها من الاعيان والساسة والقادة والعلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم. ويقع هذا الكتاب في نحو أربعين مجلداً ضاع معظمها ولم يبق منها سوى عشر مجلدات ولم يفد البحث من هذا الكتاب كثيراً. على أن الفائدة الحقيقية لهذا البحث كان من كتاب " زبدة الحلب من تاريخ حلب " وهو الذي انتزعه ابن العديم من كتابه الكبير البغية ولكن اختلف منهجه فأرخ فيها لأحداث مدينته ويتبع السنين فيه أحياناً وقد نشر هذا الكتاب في ثلاث مجلدات.^(١)

ولقد أفاد البحث من كتاب زبدة الحلب الجزء الثالث الشيء الكثير إذ كان مؤلفه من المعاصرين لتلك الفترة حيث ألقى الضوء على علاقات الأيوبيين والخوارزميين في الفترة ما بين سنة ٦٢٨هـ إلى سنة ٦٤١هـ، كما قدم تفاصيل دقيقة عن الحروب الجانية بين الحلبيين والصليبيين من ناحية والخوارزميين من ناحية أخرى، قلما توجد في المصادر الأخرى. وقد انفرد ابن العديم بروايات جديدة عن خطر الخوارزميين ودخولهم لأول مرة إلى بلاد الشام واثّر ذلك على زيادة تفتيت طاقات الأمة الإسلامية وقدراتها العسكرية والاقتصادية. والتزم ابن العديم الإنصاف في كل ما أورده من حقائق عن المسلمين بفضائلهم وعيوبهم وعن الصليبيين في كل ما قاموا به من أعمال.^(٢)

ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث والذي لا يقل أهمية عن كتاب زبدة الحلب لأبن العديم، ما كتبه المؤرخ أبوالمظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي البغدادي سبط الحافظ ابن الجوزي، ولد ببغداد سنة ٥٨٢هـ وقام جده على تربيته وتعليمه، ثم رحل في طلب العلم حتى استقر به المقام في دمشق فصار يمارس مهنة التدريس والخطابة حتى توفي بها سنة ٦٥٤هـ. وقد حظي بمنزلة عالية عند ملوك بني أيوب.

(١) يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨.

ومن أهم مؤلفاته في التاريخ " **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** " وهو تاريخ عام وقد نظم على أساس حولي ولكن ذكرت فيه التراجم والوفيات في أعقاب الحوادث سنة بعد سنة وتتفاوت قيمته العلمية تبعاً لتباين موضوعاته وموارده فيها. إلا أن أهميته العلمية تبرز بشكل واضح في أخبار النصف الأول من القرن السابع الهجري وهي الفترة التي عاصرها كشاهد عيان.^(١)

وقد أمدنا الجزء الثامن من كتاب " **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان** " بمعلومات في غاية الأهمية عن حملة الإمبراطور فردريك الثاني ودخوله إلى بيت المقدس وموقفه من المسلمين كما كان له دور في إبراز العلاقة بين أبناء السلطان العادل والحرب الأهلية التي نشبت بينهم، وأعطى صورة مفصلة عن موقعه غزة سنة ٦٤٢ هـ حيث ذكر أنه شاهد بنفسه كثرة القتلى فقال " ولقد أصبحت ثاني يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفاً "^(٢) ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ الكبير ابن واصل الحموي وهو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصرالله ابن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي، يعد من كبار مؤرخي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. ولد بحماه السورية سنة ٦٠٤ هـ وتلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة، ونبغ وصنف في علوم كثير مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه الإسلامي وعلم الهيئة والتاريخ، وأقام بمصر مدة طويلة وعاصرا الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية والخوارزمية وقيام دولة المماليك وغزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية.^(٣)

(١) شاکر مصطفى، التاريخ العربي و المؤرخون، ج٢، ص ٢٦١.

(٢) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦.

(٣) ابن واصل مفرج الکروب ج١، مقدمة المحقق، ص ٤.

وعلى الرغم من اعتماد ابن واصل على روايات المؤرخين السابقين وانتهاج طريقهم في التأليف والتاريخ بالتزام نظام الحوليات، فإن ما يورده من رسائل ووثائق ووصف لما كانت عليه أحوال الصليبيين وأحوال العالم الإسلامي في عصره يعطى صورة واضحة لدارس التاريخ في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك أن بعض ما أشار إليه من تقسيم دولة صلاح الدين وما تعرضت له وحدة العالم الإسلامي من التفكك، وما كان للصليبيين من أغراض تجارية، كل ذلك يجعل لكتاب ابن واصل أهمية بالغة في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب، والإحاطة بما يجرى من أحداث في البلاد المجاورة.

ولقد أفاد البحث من مؤلفات ابن واصل ومنها كتاب **"التاريخ الصالح"** وهو تاريخ عام على طريقة الحوليات كتبه المؤلف في مجلد واحد يشمل على ٢٤١ ورقة وأهداه للسلطان الصالح أيوب بعد أن أسماه باسمه^(١) والكتاب لا يزال مخطوطاً إلى الآن وأفاد البحث بمعلومات قيمة عن الصراع الذي نشب بين ملوك بني أيوب. عن علاقة الصالح أيوب بالخوارزمية وغيرهم من ملوك بني أيوب، كما ألقى أضواء جديدة على الحالة التي وصلت إليها الدولة الأيوبية في تلك الفترة.

أما كتابة الآخر **"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"** وهو يقع في خمسة أجزاء فيعد أهم مصادر البحث لأنه غطى معظم الفترة التي تناولتها الدراسة، وقد أفاد البحث منه كثيراً في معظم فصوله خاصة بالجزأين الرابع والخامس نظراً للمعلومات القيمة التي أوردتها بالإضافة إلى كونه معاصراً للأحداث التي كتب عنها، إذ هيأت له صلاته بالصالح أيوب وملوك حماه، وصداقته للناصر داود ابن المعظم وبعض رجال الدولة الأيوبية، أن يطلع على الكثير من أسرار السياسة وأسباب الصراع الذي مزق وحدة الدولة الأيوبية.

(١) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٩.

وكان لكتب التراجم أهمية خاصة أفاد البحث منها كثيراً ومن ضمنها كتاب " **تراجم رجال القرنين السادس والسابع** " ومؤلفه المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ) ويعتبر من كبار الفقهاء والمحدثين في عصره إذ كان متفوقاً في علوم النحو والعربية إضافة إلى مؤلفاته التاريخية القيمة.^(١)

وجاءت أهمية كتاب أبي شامة السابق والمعروف أيضاً بـ " **ذيل الروضتين** " كونه معاصراً للحوادث التي كتب عنها وخاصة ما يتعلق بالفصول الأخيرة من هذه الرسالة وقد أفاد البحث منه كثيراً فيما يتعلق بأحوال بلاد الشام والصراع الدائر بين ملوك المسلمين.

وهناك مصنفات قيمة في تراجم الرجال اعتمدت عليها ولضيق المقام ذكرت كتاب أبي شامة كنموذج لها وفي الحاشية غناء عن ذكرها مفصلة واستفاد البحث كثيراً من كتاب " **معجم البلدان** " لمؤلفه ياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ، إذ كان المصدر الأساس للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولها البحث.

كما أفاد البحث من مصادر أخرى قيمه مخطوطة ومطبوعة لا تقل أهمية أحياناً عما سبق ذكره إلا أن المجال لا يتسع إلى بسطها في هذا المقام ونكتفي بتسجيلها في هامش الرسالة ولا ننسى في نهاية هذه الدراسة الفائدة الكبيرة التي قدمتها بعض المراجع الحديثة للبحث وعلى رأسها كتاب جميعاً كتاب " بلاد الشام قبيل الغزو المغولي " لمؤلفه علي عودة الغامدي، حيث أفدت من هذا الكتاب في معظم الفصول المتصلة بعلاقات الخوارزميين بالقوى في بلاد الشام، وكتاب " تاريخ الدولة الخوارزمية " لنافع العبود وكتاب التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية " لعفاف صبرة " وكتاب " الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي " لفايد حماد محمد عاشور، وكتب أخرى مثبتة

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص ٣١٣، شاعر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ٢٦٦.

في قائمة المراجع. ولقد استفدت من هذه المراجع فائدة كثيرة فهي دراسات قيمة ينبغي أن لا تغفل جهود مؤلفيها فلقد عبروا دروب البحث ومهدوها لنا بآرائهم السديدة وتوجيهاتهم النيرة.

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص شكري إلى كلية الشريعة ممثلة في عميدها الدكتور محمد بن صامل السلمي وشكري للأساتذة الكرام على طول مراحل الدراسة.

وإذا كان الفضل ينسب لأهله فلن أنسى في هذا المقام أستاذي الفاضلين الدكتور عبدالله الغامدي الذي كان بمثابة الأخ حيث فتح لي قلبه ومكتبه والدكتور مسفر الغامدي وأشكر الأستاذ الكبير المشرف على البحث الدكتور محمد المنسي الذي تحمل مسئولية هذا العمل العلمي، وبذل كل ما في وسعه لإخراجه بالصورة العلمية المناسبة فله مني جزيل الشكر وخالص الامتنان، وأسأل الله أن يثيبه على ما بذل من جهد ونصيحة وتوجيه، واتقدم بالشكر كذلك إلى لجنة المناقشة التي تكرمت بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة فجزاهم الله عن خير الجزاء، وستكون ملاحظاتهم وتوجيهاتهم نبزاً يضاف إلى الجهود التي تثرى هذه الرسالة. واشكر أيضاً الأخوة زملاء على ما بذلوه من نصح وتشجيع وإعارة لبعض المصادر والمراجع.

والله أسأل أن أكون بهذا البحث قد وفقت في إبراز الهدف الذي قصدته من الاستفادة من أحداث التاريخ وأخذ العظة منها وأن يثيبني على ما قدمت وبذلت من جهد في إخراجه وظني أني حققت الغاية، وإن كانت الأخرى فحسبي أن قد بذلت الجهد، ولقد علمنا رسولنا الكريم ﷺ أن من أجتهد فأصاب فله أجران ومن أجتهد فأخطأ فله أجر. وحسبي أن الكمال لله وحده والنقص من لوازم البشر. والحمد لله أولاً وآخراً.

الطالب

عابد بن عبدالرزاق بن عبدالله الغريبي

مهیبد

موجز عن أوضاع الدولة الخوارزمية

والممالك

الأيوية قبيل موضوع الدراسة

تعرض المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، لخطر الحملات الصليبية، التي خرجت من الغرب الأوربي على شكل جموع كثيفة تحمل على أكتافها شعار الصليب، واستطاعت أن تقيم لها ثلاث إمارات ومملكة صليبية في قلب العالم الإسلامي، ومن هذا الموقع الهام، اخذ الصليبيون يعملون على مد نفوذهم وسيطرتهم تارة على أطراف العراق، وطوراً إلى الأرض المصرية والسواحل الغربية من الجزيرة العربية بهدف تهديد الأماكن المقدسة في الحجاز، مستغلين ما حل بالمسلمين من ضعف وتفكك وانقسام جراء صراعات سياسية ومذهبية مقيئة، أدت إلى ابتعادهم عن أداء واجب الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام. على أن الموقف لم يلبث أن تبدل عندما ظهر على مسرح الحوادث زعماء أفذاذ كان على رأسهم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود^(١) وصلاح الدين^(٢)، عملوا على تجديد الدعوة إلى أحياء حركة الجهاد في النفوس ومن ثم تكوين جبهة إسلامية متحدة مكنت المسلمين من التصدي لأعدائهم الذين تربصوا بهم الدوائر من كل مكان.

فها هو صلاح الدين الأيوبي يواصل السياسة الرشيدة لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في رفع راية الجهاد، فقد " كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا

(١) لمعرفة جهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين في هذا المجال، انظر محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، حسن حبش، نور الدين محمود والصليبيون، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٢٣-٢٤، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٣٥٥.

(٢) لمعرفة جهود صلاح الدين في هذا المجال انظر، سعيد عاشور، الناصر صلاح الدين، عبد الله الغامدي، صلاح الدين والصليبيون.

(٢٥)

في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر يمينه".^(١)

ولقد أدرك صلاح الدين الأيوبي - استكمالاً لجهود عماد الدين ونور الدين محمود- أنه لا يمكن القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام إلا بتكوين جبهة إسلامية موحدة وهو ما تحقق بالفعل على يده فأصبح يحكم دولة موحدة امتدت من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ومن جبال طوروس شمالاً إلى خليج عدن جنوباً.^(٢)

وما إن وصلت الأنباء إلى صلاح الدين باغارة ارناط صاحب حصن الكرك^(٣) على سواحل الحجاز وقطعة طريق الحجاج، حتى سارع صلاح الدين بالهجوم على الإمارات الصليبية، وهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين الشهيرة سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م^(٤) ثم اخذ يلاحق الصليبيين من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى عسقلان^(٥) فرغب في أن يتوج هذه الانتصارات باسترداد بيت المقدس من براثن الصليبيين وفعلاً تحرك صلاح الدين صوب بيت المقدس، وشدد الحصار على المدينة، حتى طلب الصليبيون الصلح منه بعد أن اشرفوا على الهلاك، وتعهدوا بأن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح على أن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢١.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٥١، عبدالله الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٥٧، السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ٥٩-٧١.

(٣) الكرك: حصن على مرتفع تحيط به أودية إلا من جهة الريض وقد حصنه فولك (Falk) صاحب بيت المقدس حوالي سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م شرق البحر الميت ليكون قوة لبيت المقدس، انظر ياقوت، معجم البلدان، ابوشامة كتاب الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٦.

(٤) المقدسي، الروضتين في اخبار الدولتين، ج ٢، ص ٨٠-٨١، العماد الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص ٣٠٩-٣١٢، عبدالله الغامدي، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٩٧، عبدالله ناصح علوان، صلاح الدين بطل حطين ومحرر بيت المقدس.

(٥) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

يدفعونها، ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ
١٢ أكتوبر ١١٨٧م وطهره من دنس الصليبيين.^(١)

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٩٣م، لم يستطع أبناؤه وإخوته أن
يملؤا الفراغ الذي ترتب على رحيله، بل دب النزاع ونشبت حرب الوراثة بين أبناء
البيت الأيوبي. وهكذا ترك صلاح الدين، خلفه دولة عظيمة مترامية الأطراف، وفراغاً
ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه أو إخوته أن يملأه.^(٢)

ومن هنا بدأ كيان الوحدة يتصدع، بعد أن بذل صلاح الدين ومن معه من
المسلمين الغالي والنفيس في سبيل إعادة هذه الوحدة، والتصدي للخطر القادم من
قبل الصليبيين، يقول ابن كثير " ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب
وتختلف في جميع الممالك".^(٣)

وعلى أية حال فقد تقاسم أبناؤه وأخوته هذه المملكة الشاسعة، فقد استقر
بدمشق وبلادها المنسوبة إليها، ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين على بعهد من
أبيه، في حين احتفظ ولده الملك العزيز عثمان بمصر، وكان ولده الظاهر غازي
بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها، وكان بحماه محمد بن تقي الدين عمر
ابن شاهنشاه بن أيوب، وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، وكان العادل
أخو صلاح الدين بديار بكر والشوبك والبلاد الشرقية^(٤)، هذا بالإضافة إلى اقطاعات

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٨١-٨٢، العماد الاصفهاني، سنا البرق الشامى، ص ٣٠٩-
٣١٢، أبوشامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢، ص ٩٤-٩٦، بسام العسلى، الأيام الحاسمة في
الحروب الصليبية، ص ١٢٦-١٣٢، عبدالله الغامدى، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٩٩-٢٢٥.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ٦٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٧.

(٤) ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط إلى معد بن عدنان وحدها
ماغرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، انظر ياقوت، معجم البلدان،
والشوبك: قلعة حصينة في اطراف بلاد الشام بين عمان وأيلة والقلمز قرب الكرك.

أخرى شغلها بقية أفراد البيت الأيوبي^(١) ومن هذا التقسيم يتضح لنا مدى التفكك الذي أصاب الأمة الإسلامية، فإذا أضفنا إلى هذا طمع أبناء الأسر القديمة الحاكمة في الجزيرة، مثل البيت الزنكي ممثلاً في عز الدين مسعود والبيت الارتقي، وصاحب خربت^(٢)، أدركنا حقيقة الموقف في المشرق الإسلامي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي^(٣) ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدأ الصراع بين أبناء البيت الأيوبي يطفو على السطح، فقد طمع العزيز عثمان صاحب مصر في الاستيلاء على دمشق، وعندما بدأ حصارها في جمادى الأولى سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م استنجد الأفضل بعمه الملك العادل وبقيه أمراء بني أيوب في بلاد الشام، كصاحب حلب أخو الملك الظاهر، وصاحب حماه ناصر الدين بين تقي الدين وصاحب حمص أسد الدين شيركوه، وعسكر الموصل وغيرهم، حيث وصل الجميع إلى دمشق نصرة للملك الأفضل وخوفاً من سيطرة العزيز على بلاد الشام "علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم"^(٤) ورغم هذا فإن الملك العادل بصفته كبير البيت الأيوبي سعى للصلح بين أبناء أخيه، وإصلاح ذات البين، واستقر الأمر على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطبرية^(٥) وأعمالها للأفضل، وأن يعطى الأفضل لأخيه الملك الظاهر جبله^(٦) واللاذقية، وأن يكون لعمهم الملك

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٣-٤، اسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٥٨.
(٢) خربت: هو حصن معروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٢٧-٢٢٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦-١٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٧٦، ٨٧٧.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٣١، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩-٣٠.
(٥) طبرية: بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببخيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الاردن في طرف الغور، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) جبل: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

العادل اقطاع الأول ببلاد مصر، مضافاً إلى ما بيده من الشام والجزيرة، وعاد العزيز إلى مصر وكل واحد من ملوك بني أيوب إلى بلده^(١)

وفي أوائل سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م تجددت أطماع الملك العزيز في السيطرة على دمشق "فخرج من مصر قاصداً دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل" فبادر الأفضل بطلب النجدة من عمه العادل، وأخيه الظاهر، وما إن سمع العزيز باجتماعهم حتى كر راجعاً إلى مصر، فلحق به الأفضل وعمه الملك العادل حتى دخلوا بلبس^(٢)، فتخوف العادل من الأفضل خشية أن يسيطر الأخير على مصر ولا يسلمه دمشق "فأرسل للعزيز يشته وأقبل على الأفضل يشبطه"، فوقع الصلح بينهم على أن يرجع القدس وأعمالها للأفضل، ويستقر العادل في اقطاعه القديم. وكان هذا الصلح كما يقول ابن كثير "هي هدنة على قذا وصلح على دخن"^(٣)

إذ لم يلبث أن اتفق العادل مع العزيز على انتزاع دمشق من الملك الأفضل، وتسليمها للملك العادل، على أن تكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، وفعلاً تم لهما ما أرادا من دخول دمشق قهراً، وأخرجاً منها الأفضل،

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٠، ٣١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٠، خاشع المعاضيدى، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٩٨، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٤٤-٤٥، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص ٢١٥.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٣٤-٢٣٥، ابن واصل، المصدر السابق، ص ٤٦-٥٢، ابن كثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢، على عوده، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨، وبلييس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٣، وانظر ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٣٥، أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٩١.

وأعطى الأفضل صرخد.^(١)

على أنه لم يلبث أن توفي الملك العزيز سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م، وكان ابنه المنصور في العاشرة من عمره، فانتهاز الأفضل الفرصة وقدم مصر وتولى الوصاية على ابن أخيه المنصور، واخذ يستعد هو وأخوه الملك الظاهر لانتزاع دمشق من عمهم الملك العادل، فحاصروا دمشق فترة يسيرة، ثم تفرقوا بعدها، فلحق العادل بالأفضل وهزمه في بلبس وانتزع منه مصر سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م، وأعطاه اقطاعه القديم المتمثل في حاني وجبل جور وميفارقين وسميساط بمنطقة الجزيرة^(٢)، وهكذا تم توحيد الجبهة الاسلامية مرة اخرى على يد الملك العادل الأيوبي، الذي استعان لتنظيم أمور دولته بأبنائه، حيث أناب ابنه الكامل محمد في حكم مصر، والمعظم عيسى في دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميفارقين، وكان العادل بمثابة المشرف العام على جميع تلك الممالك " وصار ينتقل في ممالك أولاده والعمد في كل الممالك عليه".^(٣)

على أنه ما إن استتبت الأمور للملك العادل حتى أخذ العدوان الصليبي يزداد حدة ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر، عقب وصول الحملة الصليبية الخامسة، إلى الشرق الإسلامي. فقد "قدم جمع عظيم من الفرنج إلى عكا" فخرج الملك

(١) ابوالفداء، المختصر، ج٢، ص ٩٢، مجير الدين الحنبلسي، الانس الجليل، ج١، ص ٣٩٨، الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٣، حامد زيني غانم، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٤.

وصرخد: بلد ملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٨٢، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٩٢، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١١.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ١٦٨-١٦٩، سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ٧٥.

العادل بعساكره إلى نابلس، ولم يستطع مجابهتهم لكثرتهم فارتحل أمامهم، ثم إن الفرنج أغاروا على بلاد السواد وقتلوا ونهبوا وغنموا وسبوا وعادوا إلى عكا^(١). على أن جميع القوات الصليبية التي وصلت إلى بلاد الشام ارتحلت إلى مصر في الوقت الذي استعدت فيه القوات الرئيسية للحملة للإستيلاء على مدينة دمياط^(٢) تمهيداً للسيطرة على مصر، والتي كانت تمتد عساكر الإسلام في بلاد الشام بما يحتاجونه من رجال وعتاد.

وفعلاً تحركت جموع الصليبيين في البحر، وأرسوا على بر جزيرة دمياط^(٣)، وكان النيل بمثابة الحاجز بينهم وبين دمياط، وكان على نهر النيل برج عظيم يسمى برج السلسلة يمنع السفن من العبور إلى أرض مصر، وعندما علم الكامل بوصول الفرنج خرج بعساكره، ونزل بناحية العادلية^(٤) قريباً من دمياط وضيق الفرنج الحصار على أهل البرج فلم يتمكنوا من الظفر بهم، وكان الملك العادل بمرج الصفر، يرسل العساكر من الشام لمساندة الكامل في مواجهة الفرنج، حتى ورد الخبر باستيلاء

(١) الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٢٧، مخطوط برقم ١٠٤٥، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٨٦-١٨٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٤٤، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٩٣، محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ١٠٥-١٠٦، جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٤٦.

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٠٨-١٠٩، المقرئ، الخطط، ج ٣، ص ٨٩، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ١٩٥، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٦٤.

(٤) العادلية: هي من القرى القديمة أسسها الملك العادل ابوبكر بن أيوب سنة ٦١٤ هـ عندما تابع ورود امداد غزاه الفرنج إلى الشرق في زمن الحروب الصليبية وتهديدهم مدينة دمياط، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٠، حاشية (٢).

الفرنج على برج السلسلة بدمياط"^(١) فتأوه تأوها شديداً ودق بيده على صدره أسفا وحزناً ومرض من ساعته ". فمات الملك العادل سنة ٦١٥ هـ، وكان لموته اثر كبير في أضعاف نفوس الناس " لأنه السلطان حقيقة وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد"^(٢).

ومما زاد الأمر سوءاً أن أميراً من أمراء مصر يدعى ابن المشطوب أحدث فتنة عظيمة، حيث أراد عزل الملك الكامل، وتولية أخيه الملك الفائز، فخشي الملك الكامل على نفسه، وانسحب من المنزلة ليلاً إلى قرية اشمون طنّاح^(٣) "وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم " فتفرقوا في البلاد أيدي سباً، فعبر الفرنج إلى دميّاط ولم يصدّهم عن البلد صاد، وغنموا جميع ما في عسكر المسلمين.^(٤)

وفي هذه اللحظة الحرجة وصل المعظم إلى أخيه الكامل بمصر فثبته على أمره، واستدرج ابن المشطوب ونفاه إلى الشام سنة ٦١٥ هـ، ثم عمّد الكامل إلى إخراج أخيه الفائز من مصر إلى الشام بحجة طلب النجدة من هناك لمؤازرته في جهاده ضد الفرنج وكانت الإمدادات تتواصل إلى الصليبيين باستمرار فزاد القلق وعظم

(١) برج السلسلة: برج عال بنى في وسط النيل وفي ناحيته سلسلتين تمتد احدهما على النيل إلى دميّاط وتمتد الاخرى على النيل إلى الحيزة يمنعان من عبور المراكب إلى بحر النيل المالح(انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٥، حاشية ٤.

(٢) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٠٩، وانظر ابوالفداء، المختصر، ج٣، ص ١١٨، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٦ الذهبي، العبر، ج٣، ص ١٦٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٠ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٢٥٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٦٥.

(٣) أشمون أو أشموم طنّاح من أقدم المدن المصرية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣٠-٢٣١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج١، ص ٢٤٧-٢٤٨.

الكرب عند المسلمين^(١)، وخشي الملك الكامل والملك المعظم من سيطرة الصليبيين على بيت المقدس فأرسلا إلى أخيهما العزيز بتخريب أسوار بيت المقدس. وفعلاً شرع في خراب سور بيت المقدس في أول المحرم سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م. ويصف المؤرخ سبط ابن الجوزي الضجة التي سادت البلاد في ذلك الوقت بأنه كيوم القيامة، لشدة ما أصاب المسلمين من الهلع والحزن.^(٢)

وشدد الصليبيون الحصار حول مدينة دمياط وعجز أهل المدينة عن المقاومة، فسقطت دمياط في أيدي الصليبيين سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م.^(٣) فعاد الملك المعظم إلى بلاد الشام على وجه السرعة بهدف حشد العساكر الإسلامية وإرسالها إلى مصر من جهة والضغط على الإمارات الصليبية في بلاد الشام لتخفيف الضغط على مصر من جهة أخرى.^(٤) على أن الملك الكامل ما فتر يرسل ملوك الإسلام في طلب المعونة ويحذرهم من مغبة استيلاء الصليبيين على مصر "فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدهما"^(٥). وبالفعل وصلت الإمدادات إلى المنصوره يتقدمها الملك الاشرف وفي مؤخرتها الملك المعظم عيسى وبينهما بقية ملوك بنى

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٧-١٨، ابوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب،

محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣١١، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١١٥.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٠١ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٣٤، اليافعي، مرآة الجنان وعبره اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، ج ٤، ص ٣١. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٤٤-٢٤٥، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٢٨٣-٢٨٧.

(٣) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١١٥-١١٧، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٦٨، مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل، ج ١، ص ٤٠٢، العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٦٦، سيد على الحريري، الاخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣٤٧.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ١، ص ١٩٥، سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٨٦.

أيوب، فسر الملك الكامل سروراً عظيماً بذلك وقويت نفوس المسلمين بمقدم هذه الجموع التي جاءت لصد العدوان الصليبي على مصر.^(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك الكامل كان طيلة هذه الفترة يرأسل الفرنج ويعرض عليهم الصلح، حيث عرض عليهم جميع ما فتحه صلاح الدين عدا الكرك والشوبك، ولكن الفرنج لم يرضوا بذلك، فكانت نهايتهم مؤلمة حيث كسر عليهم المسلمون ماء النيل في منطقة مثلثة أحاطت بجيوش الفرنج من كل جانب، هنا اضطر الفرنج إلى طلب الصلح والجلء عن مصر بدون مقابل سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وكان ذلك نصراً عظيماً للإسلام والمسلمين.^(٢)

وفي خضم هذه الحوادث التي مرت بالمسلمين في بلاد الشام ومصر، كان هناك خطر آخر أشد هولاً هو خطر المغول الذي أطل برأسه من ناحية الشرق " وأشرف الإسلام على خطة خسف أقبلت التار من المشرق والفرنج من المغرب".^(٣) ومن شدة هول هذه المصيبة الكبرى والحادثة العظمى نجد أحد مؤرخي المسلمين وهو ابن الأثير يعرض في البداية عن كتابه هذه الحادثة ثم يعبر عنها بحس مرهف حيث يقول " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كآرها لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فياليت أُمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً".^(٤)

(١) ابن نطفيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٩٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٣٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٩٤، ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٢٩، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٣٧٦.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٣-٢٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٣٣، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٨٨، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ٣٨٩.

(٣) الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٦٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٩.

أما الدولة الإسلامية الكبرى التي كانت في المشرق الإسلامي عند ظهور التتار فهي الدولة الخوارزمية، وسنعرض في هذه الصفحات موجزاً لهذه الدولة وموقفها من الخطر المغولي الذي بات يهدد العالم الإسلامي.

يرتبط قيام الدولة الخوارزمية بدولة السلاجقة الحاكمة في تلك الحقبة التاريخية، حيث كان مؤسس هذه الدولة انوشتكين عبداً لأحد أمراء السلاجقة^(١)، وتطور به الحال إلى أن قام السلطان السلجوقي بركياروق (٤٨٧-٤٩٨ هـ) بتنصيبه حاكماً على إقليم خوارزم^(٢)، مكافأة له على ما قدمه من خدمات للبيت السلجوقي، ولقب انوشتكين بلقب خوارزم شاه سنة ٤٩٠ هـ، على أن فترة انوشتكين في حكم هذا الإقليم لم تطل، حيث توفي في نفس العام ٤٩٠ هـ. ولم تخرج السلطة في هذا الإقليم عن هذه الأسرة، إذ لم يلبث أن أذن السلطان السلجوقي، لقطب الدين محمد ابن انوشتكين، بأن يحكم خوارزم، واستمر يحكم هذا الإقليم ثلاثين عاماً لم يفكر خلالها في الخروج عن طاعة الدولة السلجوقية، وكان ذا خلق حسن عادلاً محباً للعلم والعلماء^(٣) إلى أن توفي سنة ٥٢١ هـ، فحل محله ابنه اتسر سنة ٥٢٢ هـ بموافقة السلطان سنجر السلجوقي. وكان اتسر أول سلاطين هذه الأسرة الذين فكروا في الاستقلال، عن سلطة الدولة السلجوقية، فثار سنة ٥٣٠ هـ ضد السلطان

(١) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٨٤، ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٩. ويبدو أن ذلك كان من أسباب سقوط الدولة الخوارزمية.

(٢) اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لإقليم خوارزم فذكروا أن حدوده من الغرب من بلاد الترك الغزية، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضاً، ولمزيد من التفصيل في تحديد هذا الإقليم، انظر نافع العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ١٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١٨٤، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٨، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٣٦.

السلجوقي سنجر^(١)، الذي لم يتوان في قمع أطماع اتسر التوسعية فاعد جيشاً وسار إليه سنة ٥٣٣ هـ، وانتصر عليه انتصار مؤزراً. وبعد هذا النصر، أقطع السلطان السلجوقي سنجر إقليم خوارزم لابن أخيه غياث الدين سليمان السلجوقي، وعاد إلى عاصمته مرو.^(٢)

على أن اتسر لم يلبث أن استرد هذا الإقليم، ثم عمد إلى مصالححة السلطان السلجوقي، ليعيد النظر في ترتيب قواته، وما إن تم له ذلك حتى شرع بمهاجمة ممتلكات السلاجقة مرة أخرى، فهاجم بخارى سنة ٥٣٤ هـ واستولى عليها^(٣)، ولكنه كان يدرك قوة السلطان السلجوقي فاتجه إلى التحالف مع دولة الخطا^(٤)، التي بدأت تشن غاراتها على البلاد الإسلامية المجاور لها، الأمر الذي دعى السلطان سنجر السلجوقي إلى محاربتها، ولكنه خسر هذه المعركة سنة ٥٣٦ هـ.^(٥)

وهذه المعركة هي معركة قطوان التي كان لنتائجها أبعاد الأثر وكانت بقيادة كورخان الملك البوذي.

استغل اتسر هذه الفرصة، وبدأ يوسع مملكته فأغار على خراسان، ودخل عاصمة السلاجقة مرو، الأمر الذي دعى السلطان السلجوقي سنجر إلى الانتقام من اتسر،

(١) ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ٢٠٩، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج ٤، ص ٩٥، عفاف صبرة، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٦٤.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٦٤، ابوالفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٢٣.

(٤) الخطا أو الخاططيون: هم جماعات لاحصر لها من البدو يعيشون في الصحارى يعبدون الهواء وطعامهم اللحم الني، ولا يأكلون الخبز ولا يعرفون الخمر. وهم إذا اكلوا لحماً لا يفرقون بين الطاهر وغير الطاهر، انظر، نافع العبود الدولة الخوارزمية، ص ٢٤، حاشية ٢٧.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٤، ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥-١٦، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٦-٢٧.

فجمع جيوشه وقصد خوارزم سنة ٥٣٨هـ وشدد الحصار حول المدينة، التي تحصن بها اتسر، والذي اضطر في النهاية إلى طلب الصلح من السلطان السلجوقي^(١)، ورغبة من اتسر في تحقيق الاستقلال الكامل عن الدولة السلجوقية، أخذ يشير ضدها الاضطرابات والمشاكل. وفي نهاية المطاف، اضطر السلطان السلجوقي إلى الاعتراف باستقلال دولة خوارزم شاه. وقد أدى ضعف الدولة السلجوقية إلى ازدياد نفوذ الدولة الخوارزمية وترسيخ أقدامها في منطقة خوارزم فنجد خلفاء اتسر الذي توفي سنة ٥٥١هـ يواصلون سياستهم التوسعية، على حساب دولة السلاجقة المنهارة^(٢)، ومما يدل على ذلك ما قام به خليفة اتسر (إيل ارسلان) من الاستيلاء على بعض مناطق خراسان، وأقيمت له الخطبة في جرجان ودهستان.^(٣) وفي الجانب المقابل نرى خوارزم شاه إيل ارسلان يحاول صد عدوان الخطا الوثنيين الذين اعتدوا على ديار المسلمين. وبعد عودته من قتال الخطا أصابه مرض ثم وافته المنية سنة ٥٦٨هـ وعقب وفاته حدثت فتنة عظيمة بين أبنائه، إذ تولى زمام الأمور بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ولكن أخاه الأكبر علاء الدين لم يرض بذلك، فعمد إلى إخراج أخيه من خوارزم واستمرت الحرب بينهما سجلاً حتى وفاة سلطان شاه سنة ٥٨٩هـ، واستتب الأمر لعلاء الدين تكش، الذي بدأ يواصل سياسة أسلافه التوسعية، على حساب دولة السلاجقة المنهارة، فاستولى على الري سنة ٥٨٨هـ وفي نهاية الأمر عمده إلى إسقاط الدولة السلجوقية، بقتل آخر سلاطينها طغرل بك بن ارسلان السلجوقي سنة ٥٩٠هـ. ولم يتوقف به الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى همدان،

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٤، ٧، ابوالفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥-١٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٣٤.

(٢) عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٤٦، نافع العبود، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩، حافظ حمدي، الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ٦٤.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٩١. وجرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخرسان. ودهستان: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

وأرسل إلى الخليفة العباسي " يطلب السلطنة وأن يصلح دار السلطنة لينزلها ويحكم" ولم يرض الخليفة الناصر بذلك.^(١)

وفي سنة ٥٩٤ هـ تمكن من انتزاع بخارى من الخطا بعد حروب طويلة، وبذلك استطاع علاء الدين تكش أن يُكوّن دولة كبيرة مترامية الأطراف، تولى زمامها بعد وفاته سنة ٥٩٦ هـ ابنه علاء الدين محمد الذي بدأ يواجه أخطاراً خارجية تهدد هذا الكيان الكبير، الذي أسسه والده علاء الدين تكش. تمثلت هذه الأخطار في كل من دولة الغوريين، ودولة الخطا، ودولة المغول.^(٢)

سار غياث الدين ملك الغور بجيشه بعد أن استدعى أخاه شهاب الدين إلى خراسان واستولى على ما كان لخوارزم شاه بها سنة ٥٩٧ هـ، على أن خوارزم شاه لم يلبث أن استعاد البلاد التي سيطر عليها الغور من خراسان ثم نشب الصراع مرة أخرى بين شهاب الدين ملك الغور وعلاء الدين الخوارزمي انتصر فيه شهاب الدين الأمر الذي دعى خوارزم شاه إلى الاستجداد بالخطا سنة ٦٠٠ هـ، فقدموا واقتلوا مع شهاب الدين الغوري، وأحلوا به الهزيمة.^(٣)

وبذلك يكون علاء الدين محمد قد اضعف قوة إحدى الأخطار التي واجهته منذ توليه زمام السلطنة، وخلال عملية المقاومة التي يقوم بها السلطان الخوارزمي ضد خصومه، فإنه لم يغفل سياسة التوسع والتي كانت على حساب دولة الغوريين المنهارة.^(٤)

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ١١٤-١١٨، الذهبي، العبر، ج٣، ص ٩٨، السيد الباز العريني، المغول، ص ٨٣، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٣٣.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٤٧٠-٤٧٢.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٢٥٠، ٢٥٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ١٦٨، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٣٥.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٧٧، ٢٧٩، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٤.

وفي سنة ٦٠٤ هـ واجه علاء الدين الخطر الثاني المتمثل في دولة الخطا، حيث طلب صاحب سمرقند النجدة من علاء الدين، ضد الخطا الذين كانوا يغيرون على بلاد المسلمين، فاستجاب خوارزم شاه لذلك، وسار لقتال الخطا، ولكنه منى بهزيمة شنيعة وقع على إثرها في الأسر.^(١)

وبعد أن تخلص من الأسر، قاد عدة حملات ضد دولة الخطا، إلى أن تمكن من إزالتها ويرى بعض المؤرخين، أن علاء الدين محمد قد ارتكب خطأ كبيراً بالقضاء على دولة الخطا، لأنها كانت بمثابة السد بين المسلمين وغيرهم من أمم الكفر كالمغول.^(٢)

وكانت الخلافة العباسية تخشى من سيطرة الدولة الخوارزمية على ممتلكاتها، وظهر ذلك عندما حاول كل من علاء الدين تكش، وابنه علاء الدين محمد من بسط نفوذهم وهيمنتهم على دولة الخلافة عقب زوال الدولة السلجوقية. ولم يكن خلفاء بنى العباس يرضون بذلك بعد أن تنفسوا الصعداء بزوال دولة السلاجقة. فلا يريدون أن يخضعوا أنفسهم مرة أخرى لقوة جديدة تسيطر عليهم وتسير أمورهم. ولقد حدثت عدة محاولات من قبل الخوارزمية لإخضاع دولة الخلافة. واحلال أنفسهم محل دولة السلاجقة ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم.^(٣)

وهكذا أصبحت الدولة الخوارزمية أقوى دول المشرق بلا منازع، إذ امتدت حدود هذه الدولة، من العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن بحر آرال وقزوين شمالاً حتى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.^(٤)

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٩١-٢٩٢، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٣٩.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١١١، نافع العبود، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٤٩-٥٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٥٨٢-٥٨٣، القلقشندي، مآثر الاناقة، ج ٢، ص ٦٠.

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص ٧١-٧٢، حافظ حمدي، الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ١١٣، السيد الباز العريني، المغول، ص ١١٠.

ونظراً لاتساع هذه الدولة لم يكن من السهل السيطرة عليها، فلجأ علاء الدين خوارزم شاه إلى تقسيم دولته إلى أربعة أقسام، جعل على كل قسم من هذه الأقسام أحد أبنائه الأربعة، بحيث يكون كل واحد منهم مسئولاً أمامه مسئولية مباشرة عن إقليمه. وفي خضم الأحداث التي مرت بالدولة الخوارزمية، حتى استطاعت أن تكون دولة كبيرة مترامية الأطراف، لم يلبث أن بدأ يلوح في الأفق خطر عظيم ينذر بزوال هذه الدولة ألا وهو خطر المغول. وليس المقام يسمح لنا بذكر الأسباب التي أدت إلى الاجتياح المغولي للدولة الخوارزمية إذ لم تلبث أن انطلقت جحافل المغول من بلادهم صوب ممتلكات الدولة الخوارزمية سنة ٦١٧هـ، ودخلت إقليم خوارزم وفر أمامهم علاء الدين محمد الذي لم يستطع الصمود أمامهم " فقد كان يبحث عن منفذ في الأرض أو سبب إلى السماء لينجو من الجيش الذي لا يعد ولا يحصى، واتجه إلى إحدى جزر بحر قزوين حيث مات هناك سنة ٦١٧هـ.^(١)

على أن علاء الدين محمد قبل وفاته، عمد إلى خلع ابنه الصغير قطب الدين ازلاع شاه عن ولاية العهد، وتقليدها لابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي حيث قال "أن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهنت قواعدها وتهدمت وهذا العدو وقد تأكدت أسبابه وتشبث بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه وليس يأخذ ثأري منه إلا ولدى منكبرتي".^(٢)

وما إن توفي علاء الدين محمد حتى بدأ جلال الدين يستعد لمجابهة هذا الخطر الداهم الذي يقول فيه ابن واصل " مذ بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأظهر به الدين الحنيف ونصره الله على أهل الشرك لم يفجع المسلمون فجيرة أعظم من هذه

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ١٠٤، ٧٢-١٠٨، ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٩، - ٣٣٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٠٩-٦١٠، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٣٥، سعد حذيفة، اوضاع الدول الاسلامية في المشرق الاسلامي، ص ٢٦٤.

(٢) النسوي، المصدر السابق، ص ١٢٠.

إلا أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين جلال الدين واخوته، الأمر الذي اضطر جلال الدين أن يرحل إلى مدينة نسا^(٢) بإقليم خراسان. على أن القوات المغولية التي كانت تطارد أبناء علاء الدين خوارزم شاه، استطاعت في إحدى هجماتها القوية، أن تقضى على اخوة جلال الدين.^(٣) وبذلك تكون الساحة قد خلت من منافس قوى لجلال الدين في تلك الفترة، إذ بدأ جلال الدين يعد قواته، وينظم صفوفه لمجابهة الطوفان التتري، الذي بات يهدد كيان البلدان الإسلامية فاعد جيشاً قوامه ستين ألف مقاتل.

وفي هذه الفترة سير جنكيزخان جيشاً إلى غزنه.^(٤) يقدر بحوالي اثني عشر ألفاً للقضاء على جلال الدين الخوارزمي، وعندما وصلت هذه القوات إلى مشارف غزنه، خرج إليهم جلال الدين بقواته، ودارت رحى المعركة بمكان يعرف ببلق " واقتل الفريقان قتلاً شديداً فنصر الله تعالى المسلمين وانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ".^(٥) ولما علم جنكيزخان بما حدث لقواته على يد جلال الدين منكبرتي، اعد حملة عسكرية أقوى من الأولى بقيادة أحد أبنائه، ولكن هذه الحملة منيت هي الأخرى بهزيمة ساحقة على أيدي المسلمين بقيادة جلال الدين منكبرتي. لكن بوادى النصر التي تحققت سرعان ما بدأت تنطفئ، على أثر الخلافات التي نشبت بين قادة جلال الدين حول توزيع الغنائم في الوقت الذي بدأ جنكيزخان يعد نفسه لملاقاة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٤.

(٢) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الجويني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٩-٤٠، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٥٧.

(٤) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦١-٦٢، السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٣٩.

الخوارزميين، وعندما سمع جلال الدين بذلك سار إلى بلاد الهند، ولكن قوات جنكيزخان التي كانت تطارده تمكنت من اللحاق به قبل عبوره نهر السند ثم التقيا صبيحة يوم الأربعاء سنة ٦١٨هـ، ثم حمل جلال الدين " بنفسه على قلب جنكيزخان فمزقه بدماء وجعله طرائق قديماً". و" كادت الدائرة تدور على الكفار والهزيمة تستمر بأهل النار". إلا أنه سرعان ما تراجع جلال الدين، وعبر النهر وتوجه إلى الهند^(١)، وفي بلاد الهند جرت لجلال الدين مع ملوك الهند حروب وخطوب، الأمر الذي دعى ملوك الهند إلى عقد صلح مع جلال الدين منكبرتي " غير أن الخوارزميين لم يستطيعوا الإقامة هناك فقد دب بينهم المرض وبلغهم أن التتر تركوا خوارزم".^(٢) فخرج جلال الدين من الهند برجاله ووصل إلى بلاد المشرق ومن هنا بدأ علاقته مع القوى السياسية في الشام والجزيرة والتي سيكون عليها مدار بحثنا إن شاء الله تعالى.

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ١٥٤-١٥٨، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،

ص ٤١١، السبكي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٠.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٦٦-٢٦٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص -

١١٢، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٦٢٠.

الفصل الأول

العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في الشام والجزيرة سنة ٦٢٤-٦٢٨ هـ.

- تحالف المعظم عيسى ملك دمشق مع جلال الدين الخوارزمي.
- استيلاء جلال الدين على خلاط ٦٢٧ هـ.
- تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين ضد جلال الدين ونتائجه.
- تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية ونهاية جلال الدين.

تحالف المعظم عيسى مع جلال الدين

الخوارزمي

تقوم العلاقات بين الدول على المصالح المشتركة فإذا انتفت هذه المصالح أصبحت العلاقات بينهم متذبذبة وقابلة للانقطاع ويمثل ذلك مااستطرق إليه من العلاقة بين الدولة الخوارزمية والأيوبية.

فلعل أول إشارة إلى العلاقة بين الدولتين ترجع إلى عهد الملك العادل الأيوبي الذي كان معاصراً للسلطان الخوارزمي علاء الدين محمد خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية.^(١)

ففي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وصل رسول علاء الدين خوارزم شاه إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر^(٢) ولم تشر المصادر التاريخية إلى هدف هذه الزيارة التي قام بها مبعوث علاء الدين خوارزم شاه إلى الملك العادل^(٣)، ولعل الهدف يرجع إلى رغبة خوارزم شاه في إقامة علاقة طيبة مع بني أيوب تمهيداً للتحالف معهم ضد خصومه خاصة بعد فشل السلطان علاء الدين الخوارزمي في غزو بغداد سنة

(١) محمد بن تكش السلطان الكبير علاء الدين. كان ملكاً جليلاً أحياناً واسع الممالك كثير الحروب ذا جيروت وغور ودهاء، تسلطن بعد والده علاء الدين تكش لم يقهر إلا من التتار، مات سنة ٦١٧هـ - انظر الذهبي، العبر، ج٣، ص ١٧٥.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٥٩٣، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٨٨. مرج الصفر: مكان خارج دمشق. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ١٤٩-١٥٠، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٥١-١٥٢.

٦١٤ هـ / ١١١٧ م، وقد قابل العادل ذلك برغبة صادقة حيث رد على رسالة خوارزم شاه برسالة حملها الخطيب الدولعي^(١) والنجم خليل قاضى العسكر فوصلا إلى همذان^(٢) ولم يلتقيا مع خوارزم شاه حيث اندفع بين يدي الخطا والتار، فاجتمعا بولده جلال الدين الذى أخبرهما بوصول أخبار عن وفاة الملك العادل فرجعا إلى دمشق دون تحقيق الهدف المنشود من هذه السفارة^(٣).

ثم ساد الجمود العلاقة بين الطرفين عقب وفاة العادل^(٤) ولعل ذلك يرجع إلى إنشغال كلتا الدولتين بالأخطار الخارجية التى امت بالمشرف الاسلامى فى تلك الفترة فقد انشغلت الدولة الخوارزمية بصد الهجوم الذى اكتسح اقاليمها الشرقية فى حين انشغلت الدولة الأيوبية بعد وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ^(٥) فى بداية الأمر بصد العدوان الصليبي عن مصر وماتلى ذلك من قيام الصراع والنزاع بين ملوك بنى أيوب. والذى كان فيما بعد سبباً فى إعادة العلاقات بين الدولة الخوارزمية والملك المعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق. ولا يخفى علينا أنه بعد وفاة الملك العادل الأيوبي واحتفاظ كل ملك من ملوك بنى أيوب بمملكته أنه جرى بينهم من التضامن

(١) الخطيب الدولعي: هو جمال الدين خطيب جامع دمشق، وهو منسوب إلى الدولية قرية على باب الموصل في طريق الذهاب إلى الموصل من جهة نصيبين، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٤٥.

(٢) همذان : مدينة حسنة مقدارها فرسخ فى مثله محدثة اسلامية. انظر ابن حوقل، صورة الارض.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٥٩٣، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٠٩-١١٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٦٨.

(٤) السلطان العادل: محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى، ولد بعلبك ونشأ فى خدمة نور الدين، وكان اخوه صلاح الدين يستشيريه ويعتمد عليه وكان ملكاً جليلاً سعيداً توفي فى سابع جماد الاخرة سنة ٦١٥ هـ، انظر الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٦٧.

(٥) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ٤٣.

والاتفاق ما كان له أكبر الأثر في صد الحملة الصليبية الخامسة، ويشير ابن الاثير إلى ذلك بقوله: "واتفقوا اتفاقاً حسناً لم يجر بينهم من الاختلاف ماجرت العادة ان يجرى بين الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق إلى الآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه"^(١). إلا أن هذا الاتفاق والتضامن لم يكتب له أن يستمر بين ملوك (بنى أيوب فقد بدأت الشكوك والاطماع تساور هؤلاء الملوك تجاه بعضهم البعض) ويتضح لنا ذلك من خلال الزيارة التي قام بها الأشرف موسى خدمة لأخيه السلطان الكامل "فأقام عنده بالديار المصرية متزهاً"^(٢) فقد كان الغموض يكتنف هذه الزيارة التي قام بها الأشرف إلى أخيه الملك الكامل، هذا بالإضافة إلى أن الكامل والذي كانت تقلقه شخصية المعظم حرص على إستقطاب أخيه الملك الأشرف إلى صفه^(٣).

وفي الجانب المقابل بدأت أطماع المعظم عيسى صاحب دمشق تزداد في السيطرة على بلاد الشام ففي شهر ذي الحجة سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م سار الملك المعظم عيسى على رأس قواته قاصداً حماة^(٤)، وكان الملك المعظم يبرر خروجه ذلك بأمرين أولهما أن الملك الناصر صاحب حماة تنكر له فغاض ذلك الملك المعظم حيث كان سبباً في تملكه المدينة عقب وفاة الملك المنصور صاحب حماة الذي أوصى بملك حماة من بعده لولده الأكبر الملك المظفر والذي كان في نجدة

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٢٧، ٣٧١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١١٦، وانظر ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٩٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ج ٨، ص ٦٢١-٦٢٢.

(٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٧١، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٠.

(٤) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات. انظر ياقوت، معجم البلدان، ابن الشحنة، الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص ٢٦٨.

خاله الملك الكامل ضد الفرنج في موقعة دمياط سنة ٦١٨ هـ^(١).

وثانيهما أن الملك الكامل كتب إليه يطلب منه القبض على الأمير مجاهد الدين اقبال الذي خرج عن طاعته وفر هارباً إلى أحد أمرائه الذين خرجوا من مصر "فاتخذ ذلك الملك المعظم حجة وذريعة لقصد حماة"^(٢). حيث اتجه بعساكره صوبها مظهراً أن هدفه القبض على الأمير الهارب. وكان صاحب حماة في تلك الفترة خارج مدينته فأسرع الملك المعظم حتى يسبق الملك الناصر إليها فلما علم الملك الناصر بذلك عاد مسرعاً بذلك إلى مدينته وتحصن بقلعتها قبل وصول المعظم الذي تأخر في الوصول إليها فنزل بقرية نقرين^(٣) واستعد الملك الناصر للحصار، وهنا بدأت المناورات من جانب الملك المعظم الذي أرسل إلى صاحب حماة يبرر سيره إليه بقوله "اننى لم اقصدك وإنما أتيت لطلب مجاهد الدين فحيث سلكت طريق المحاربة والقتال فنحن نسلكه ايضاً معك"^(٤) ثم تقدم عسكر المعظم إلى أسوار المدينة وضيق عليها الحصار ولشدة تحصينها رحل الملك المعظم عنها بعساكره متجهاً إلى سلمية^(٥) فنزلها واستولى على ما بها من المحاصيل وعين فيها والياً من قبله ولم يمكث بها إلا يسيراً رحل على اثرها بعسكره إلى معرة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٨٦، ١١٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ١٢٥٣ أ.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٧-١١٨، أحمد غسان سبانو، مملكة حماة الأيوبية، ص ٧٣-٧٤.

(٣) نقرين اسم قرية تقع الآن في ضواحي مدينة حماة. انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٨، حاشية (٢).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٣٨، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٧ ب.

(٥) سلمية: بلدة من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين على الأقدام. انظر ياقوت، معجم البلدان.

النعمان^(١) فخرج ابن واصل^(٢) قاضي المعرة ومعه اعيانها للقائه فأقبل عليهم الملك المعظم وأكرمهم واستولى بذلك على المعرة وعين عليها والياً من قبله ثم كر راجعاً إلى سلمية حيث أقام بها حتى أواخر سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢ م ومنها أخذ يستعد لانتزاع حماة من الملك الناصر^(٣) ولما وصلت هذه الأخبار إلى الملك الأشرف وكان مقيماً بمصر أدرك خطورة موقفه في بلاد الشام إذا لم يتدارك الأمر واجتمع بأخيه الكامل وقال له: "إن تركنا الملك المعظم يحاصر حماة ويأخذها تعدى ذلك إلى غيرها واطمعت نفسه في الاستيلاء على البلاد كلها والمصلحة الانكار عليه وتهديده وتخويفه من مغبة فعله والتقدم إليه بالرجوع إلى بلاده وأن يسلم بلاد صاحب حماه إليه"^(٤) فاتفق الاخوان على ذلك وأرسل كل واحد منهما رسولاً من قبله بهذا المعنى إلى أخيهما المعظم، فأوفد الأشرف نائبه على الموصل الحاجب حسام الدين إلى الملك المعظم يخبره أن هذا الامر لا يرضى السلطانين الملك الكامل والملك الأشرف وأنهما لا يوافقانه على ذلك^(٥) وأرسل الكامل الأمير ناصح الدين أبو المعالي الفارسي^(٦) فاجتمعاً معاً بالملك المعظم وقال له ناصح الدين الفارسي "مولانا السلطان الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل وترك

(١) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، هو والد المؤرخ المعاصر لتلك الفترة جمال الدين بن سالم بن واصل. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١١٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١١٨-١٢٠، الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٣٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٣٢.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧١، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٩٤-٩٥.

(٦) ناصح الدين أبو المعالي الفارسي: هو أحد أمراء حلب. انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٩٣.

الخلافة" فأجاب بالسمع والطاعة^(١) وترددت الرسل بين الملك المعظم والملك الناصر صاحب حماة على يد عفيف الدين عبدالله السلماني بن مراحل، وكان صاحب منزلة عظيمة عند ملوك بني أيوب فوق الصلح بينهما على دخن. ثم ترك الملك المعظم حماة وعاد إلى دمشق وهو حنق على أخويه لأن "أطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماة وبلادها وإضافتها إلى ممالكه"^(٢).

ويبدو أن موافقة المعظم كانت بهدف كسب الوقت للبحث على حليف قوى ضد أخويه ورغب في الاستناد إلى أكبر قوة اسلامية في المشرق فلجأ إلى مراسلة جلال الدين منكبرتي ليقف معه في وجه أخويه الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب خلاط الذين اتفقا عليه، وقد ظهر في بلاد الشام في تلك الفترة جراد عظيم أكل الزرع والشجر والثمر. ولكي لا يثير الملك المعظم شكوك أخويه ضده أظهر أن هناك نوعاً من الطير يقال له السممر يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري^(٣) محتسب دمشق ومعه جماعة من الصوفية إلى بلاد العجم وأخبرهم أن هناك عين يجتمع فيها السممر يذهبون إليها ويأخذون من مائها في قوارير ويعلقونه على رؤوس الرماح حتى يتبعهم السممر وما كان غرضه من ذلك إلا الاتفاق مع جلال

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٨٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٢٧، ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٣٢.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٤٠، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٧، محمد سليم الجندى، تاريخ معرة النعمان، ص ١٧٨-١٧٩.

(٣) الصدر البكري: أبو علي الحسن محمد بن محمد بن عمرو بن محمد التميمي النيسابوري ثم الدمشقي الصوفي الحافظ. ولد سنة أربع وسبعين وخمس مئة جمع وصنف وولى مشيخة الشيوخ وحسبة دمشق ابتلى بالفالج قبل موته باعوام ثم تحول إلى مصر وتوفي بها سنة ٦٥٦هـ، انظر الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٧٩.

الدين ضد اخويه فاجتمع البكرى بالخوارزمي وقرر الأمور معه وجعله سنداً له ومن العجب أن الجراد كان قد قل ببلاد الشام فلما عاد البكرى كثر الجراد وافتضح أمر الملك المعظم وقال الناس في ذلك اشعاراً وعلم الكامل والأشرف بذلك التحالف وشاع بين الناس، عند ذلك قيل للمعظم "لو كنت أرسلت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى" وكافأ المعظم الصدر البكرى على عمله ذلك يان ولاه مشيخة الشيوخ إضافة إلى الحسبة^(١).

وأرى أن في حكاية السمرمر مبالغة تاريخية لأن الملك المعظم عيسى ليس بحاجة إلى اختلاق واطهار مثل هذه الحكاية في أمر يتم عادة في نطاق من السرية التامة، ولو فرضنا جـدلاً أن الملك المعظم حاول أن يوهم أخويه والناس بهذه الرواية فربما لجأ إلى ذلك عندما انكشف خبر السفارة التي أرسلها إلى جلال الدين الخوارزمي فاراد أن يبعد الشكوك عن مقصده حتى يتحقق.

وإذا كان من الطبيعي أن تتأخر مساندة السلطان جلال الدين الخوارزمي للملك المعظم لبعد المسافة بينهما فلا غرابة أن يلجأ الملك المعظم عيسى إلى مناورة جديدة تقضى باشغال أخيه الملك الأشرف عن مساندة الملك الكامل وابنه الملك (اقسيس) الذي قدم من اليمن طامعاً في أخذ دمشق والشام فعمد إلى إثارة أخيه المظفر غازي ضد الأشرف موسى وحسن له الخروج عليه حيث كان قد جعله نائباً عنه بخلاط واعمالها وميفارقين^(٢) وغيرها وكذلك جعله ولي عهداً عندما

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٢٣، أبوشامة، الذيل على الروضتين، ص ١٣١-

١٣٢، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٢٥، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب

بنى أيوب، ص ٣١٠، ابن ايلى الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) خلاط: هي قسبة ارمنية الوسطى. ميفارقين: اشهر مدينة بديار بكر. انظر ياقوت، معجم البلدان.

غادر بلاده متوجهاً إلى مصر^(١).

وأرسل في نفس الوقت إلى صاحب إربل^(٢) مظفر الدين كوكبوري^(٣) يدعوه إلى مناصرته والاتفاق معه^(٤) واغراه بمهاجمة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والذي كان يميل إلى الملك الأشرف. فسر مظفر الدين بهذا العرض، لبغضه الشديد لبدر الدين لؤلؤ والذي كان سبياً في الاجهاز على البيت الاتابكي في الموصل واحتجازه لولدى الملك القاهر آخر ملوك الاتابكة فسارع كوكبوري في تجهيز قواته لقصد الموصل وحصارها. إذ لم يكن يمنعه في السابق من مهاجمة الموصل سوى خوفه من الأشرف الذي كان سنداً لبدر الدين لؤلؤ.^(٥)

وهكذا استطاع المعظم أن يكون حلفاً ثلاثياً قوياً ضد أخويه وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يهاجم الملك المعظم البلاد الشرقية في حين يخرج الملك المظفر غازي على أخيه الأشرف أما مظفر الدين فيكون وجهته بلاد الموصل وعلى أثر ذلك سار الملك المعظم عيسى في عساكره من دمشق لتحقيق ما يصبوا إليه من

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥٣-٣٥٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٩٤١، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص ٢٦٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٥٥، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١١٩.

(٢) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة، تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) هو أبوسعيد كوكبوري ابن الامير زين الدين على بن كوجك التركمانى ولى مملكة إربل سنة ٥٦٣هـ، كان من أدين الملوك وأجودهم، توفي في رمضان سنة ٦٣٠هـ انظر النهي، العبر ج٣، ص ٢٠٨.

(٤) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٧، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٣٧، الكامل، ج٩، ص ٣٥٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٣٧، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٣٤، على عودة، المرجع السابق، ص ١١٩.

قصد البلاد الشرقية^(١) سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م. واغار على بلاد حمص وبارين ووصل إلى بحيرة قدس^(٢).

حينئذ أدرك الأشرف وكان عائداً من مصر خطورة الموقف فأرسل إلى أخيه الكامل يطلب منه النجدة فجهز الملك الكامل العساكر وأرسل إلى المعظم يقول له: "إن تحركت من بلدك سرت وأخذته منك"^(٣). فخاف الملك المعظم من هذا التهديد لأن غالبية ممالك الشام كانت تؤيد الكامل فرجع المعظم إلى دمشق^(٤).

وسار صاحب إربل مظفر الدين بن زين الدين كوكبوري إلى الموصل وضيق الخناق عليها وكان ذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ، ١٢٢٤م "ظناً منه أن الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج المظفر غازي في طلبه فتتخط أحواله وتتوق نفس صاحب دمشق على المجيء إليهم"^(٥).

ومما قوى من عزيمة مظفر الدين على حصار الموصل قلة عساكرها حيث

(١) البلاد الشرقية: هي البلاد التي كانت تحت حكم الملك الأشرف مثل خلاط وميافارقين وغيرها. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٣٨.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤١، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٨-١٣٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥١، حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٨. وبارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، وبحيرة قدس: بين حمص وجبل لبنان يخرج منها نهر العاص (ياقوت، معجم البلدان).

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٤.

(٤) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٠.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٩، أبو الفداء،

المختصر، ج ٣، ص ١٣٤، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٩.

ذهب كثير منهم لنجدة الملك الأشرف في حصار خلاط. ولم يقف صاحب الموصل مكتوف اليدين أمام اطماع صاحب إربل بل سعى إلى تحصين مدينته وتزويدها بالعتاد والمؤن اللازمة الأمر الذي أجبر مظفر الدين كوكبوري على ترك حصار الموصل خاصة بعد ما بلغه سقوط خلاط في يد الملك الأشرف، فرحل عائداً إلى بلده.^(١)

أما عن موقف الأشرف من أخيه شهاب الدين غازي عندما بلغه خروجه عليه فقد كتب إليه يلاطفه ويحذره من مغبة فعله هذا وطلب حضوره عنده فامتنع عن المجيء فكتب إليه يقول "يا أخى لا تفعل أنت ولي عهدى والبلاد والخزائن بحكمك لا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الاعداء فوالله ما ينفعونك"^(٢). ولكن شهاب الدين تمادى في عصيانه على أخيه - لذلك قام الملك الأشرف بتجهيز العساكر لمحاربة شهاب الدين غازي الذي خرج عن طاعته وفي نفس الوقت وصلت إليه عساكر حلب وعساكر الجزيرة وعساكر الموصل فتقدم الأشرف بهذه الجموع صوب خلاط ولما قاربها فاته المظفر وأدرك عدم جدوى مقاومته فعمد إلى تفريق عساكره في البلاد لتحسينها على أمل أن تثمر جهود صاحب الموصل والملك المعظم عيسى في إشغال الملك الأشرف عن خلاط فلم تتحقق له هذه الآمال. إذ أحكم الملك الأشرف حصار خلاط "وكان أهل البلد يحبونه لعدله وحسن سيرته وفرط كرمه وسوء سيرة الملك المظفر شهاب الدين"^(٣) ولهذا بادروا أهلها بتسليم البلد

(١) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤ ص ١٣٩-١٤٠.

(٢) الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢١هـ، ابن نظيف الحموي، المصدر السابق،

ص ١٠٤، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٢، ص ٦٠، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٦٦.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٤، ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ١٠٥، ابن

القديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤١، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٠، على عودة،

بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٠.

إليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ / يونية ١٢٢٢م واعتصم المظفر شهاب الدين حتى الليل ثم نزل بعدها إلى أخيه الأشرف معتذراً عما بدر منه فقبل الملك الأشرف عذره وعاتبه ولم يعاقبه على ما بدر منه واعطاه بعد أن حلف له ميافارقين^(١) وحانى وجبل جور وذى القرنين وقلب السنانة^(٢).

وفي رأى أن ما قام به الملك الأشرف تجاه أخيه ينم عن علو الخلق وكرم النفس. وهذه صفة غالبية فى البيت الأيوبي حيث يقول ابن واصل معلقاً على ذلك: "وهذه مكرمة للبيت الأيوبي لم يكن مثلها لأحد من الملوك قبلهم فإن من كان قبلهم وخصوصاً آل سلجوق كان إذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمه الخارج عليه لا يتيقه أصلاً بل إما أن يوسطه بالسيف أو يخنقه بوتر القوس أو أحسن أحواله أن يعتقله ويضيق عليه إلى أن يموت كمداً"^(٣) وأقام الأشرف بخلاط ثلاثة أيام عاود بعدها إلى رأس العين^(٤) بعد أن جعل عليها أحد مماليكه ويدعى أيبك والحاجب علي^(٥).

لم يقف الملك المعظم مكتوف اليدين تجاه هذه التهديدات بل نجده يعاود

(١) الاصفهاني، البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، حوادث سنة ٦٢١هـ، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥٤، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٣٧ب.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٠٦، وحانى، وجبل جور، وذى القرنين، وقلب السنانة كلها بالجزيرة بديار بكر. انظر ياقوت، معجم البلدان، وابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ١٠٦، حاشية (٦).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٤٠.

(٤) رأس العين: هى مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٤٢، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٦٦.

الاتصال بصاحب إربل مظفر الدين كوكبوري لتجديد التحالف بينهما. ولتأكيد ذلك نجده يرسل ابنه الملك الناصر دواد إليه ليكون رهينة عنده^(١).

وفي هذه الاثناء ظهر على مسرح الحوادث في المشرق الاسلامي أمور لا تقل سوءاً عنها في بلاد الشام عقب الإجتياح المغولي لاملاك الدولة الخوارزمية وتدميرهم الشامل للمدن الاسلامية نتج عن ذلك تفرق أبناء علاء الدين الخوارزمي فهرب جلال الدين إلى الهند بينما استطاع أخوه الآخر غياث الدين السيطرة على كرمان والري واصفهان وهمدان وغيرها من بلاد العجم^(٢)، ولم تستقر الأمور لغياث الدين إذ لم يلبث أن خرج عليه خاله إيغان طويس الذي كان الساعد الأيمن لغياث الدين وانضم إليه جمع كثير من المفسدين الثائرين وساروا جميعاً لقتال غياث الدين وإخراجه من بلاده، وعندما سمع غياث الدين بذلك حشد عساكره وتقابل الطرفان واقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم فيه إيغان طويس ومن معه واسر وقتل كثير من عسكره^(٣) وبعد هذه الانتصارات التي تحققت لغياث الدين تطلع إلى السيطرة على مملكة فارس^(٤) فسار على رأس قواته إلى أن وصل إلى أطراف هذه

(١) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١١٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٣٣، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١١٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢١.

(٢) المختصر، ج ٣، ص ١٣٢-١٣٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٠٨-٢٠٩، الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٣٦ ب. وكرمان ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخرسان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٣٢-١٣٣، الخطيب العمري، المصدر السابق، ورقة ٢٣٦.

(٤) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيران ومن جهة السند مكران. انظر ياقوت، معجم البلدان.

المملكة فلما سمع به صاحبها اتابك (سعد بن دكلا)^(١) هرب منه إلى مدينة
إصطخر^(٢) واعتصم بها فدخل غياث الدين هذه المملكة واستولى على عاصمتها
شيراز^(٣) دون أى مقاومة تذكر واستولى كذلك على أكثر بلاد فارس ولم يبق بيد
صاحبها سوى الحصون المنيعّة الأمر الذى دعى صاحبها إلى طلب الصلح مع غياث
الدين على أن يكون له قسم من البلاد ولغياث الدين الباقي واتفقوا على ذلك^(٤).
ولم يكن غياث الدين بالرجل الذى يستطيع أن يعيد للدولة الخوارزمية
مكانتها ومجدها إذا كان منهمكاً فى لذاته وشهواته وعاش السكان فى ظل دولته فى
حالة رعب وهلع شديد لإضطراب الأمور ولاختلال الأمن نتيجة عدم مقدرته على
السيطرة على رجاله العسكريين الذين كثرت غاراتهم ضد السكان الأمنيين فى تلك
البلاد^(٥). وعندما سمع جلال الدين بأحوال أخيه غياث الدين تطلع إلى العودة إلى
ربوع بلاده خاصة بعدما علم بعودة المغول إلى منغوليا وتكالب ملوك الهند ضده،
وفعلاً سار جلال الدين منكبرتي من الهند حتى وصل كرمان^(٦). ولما وصل جلال

(١) هو الاتابك سعد بن دكلا صاحب فارس (١١٩٥-١٢٢٦) الذى ينتمى إلى اسرة

السلغوريين فى فارس. انظر الباز العريني، المغول، ص ١٦٦، حاشية ١.

(٢) اصطخر: بلدة بفارس فى الاقليم الثالث، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) شيراز: هي قصبة بلاد فارس، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٣٦، الذهبي،

المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١١٧-١١٨.

(٥) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٦٨١، سعد حذيفة، اوضاع الدولة الاسلامية فى المشرق

الاسلامى، ص ٣٣٠.

(٦) ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، ص ٢٦٠، سعد حذيفة، المرجع السابق،

ص ٣٣٠، عصام عبد الرؤوف الفقى، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ص ١٩٨.

الدين إلى كرمان رحب به حاكمها براق الحاجب^(١) وعرض على السلطان ابنته لتكون زوجة له وقدم له فروض الطاعة والولاء إلا أنه سرعان ما تغيرت نية براق الحاجب تجاه جلال الدين^(٢) حيث استغل فرصة خروج السلطان للصيد والاستجمام فعمد إلى إغلاق أبواب المدينة بعدما طرد البقية الباقية من اتباع جلال الدين وكتب إلى جلال الدين يقول بأن هذه المدينة لا تصلح أن تكون مقر سرير العرش ولا تلائم مقام حشمه واتباعه ولم يشأ جلال الدين أن يخوض في صراع معه لكي لا تنفر منه القلوب لذلك اضطر جلال الدين منكبرتي إلى مغادرة كرمان والذهاب إلى إقليم فارس وعندما قرب السلطان من أطراف مدينة شيراز بادر صاحبها الاتابك سعد ياكرام جلال الدين منكبرتي رغبة منه في الانتقام من غياث الدين أخو جلال الدين منكبرتي الذي اقتطع أجزاء كبيرة من مملكته^(٣)، ولتوثيق مراسيم الاتفاق الذي حصل بين الطرفين تم زواج السلطان جلال الدين منكبرتي من ابنة الاتابك سعد ابن دكلا، ثم توجه جلال الدين منكبرتي من شيراز إلى اصفهان^(٤) وعندما سمع به أخوه غياث الدين وكان بالرى أصابه الذعر والخوف فبدأ يعد العدة

(١) براق الحاجب: هو مؤسس أسرة كتلغ خان في كرمان، وكان أصلاً في خدمة الخطا، ثم خدم خوارزم شاه، ولم يلبث أن استقر في كرمان إلى أن قدم المغول من أوكتاي فأظهر من الولاء والاخلاص ما جعلهم يقرونه في أمارته ويمنحونه لقب تلغ خان. انظر الباز العريني، المغول، ص ١٦٦، حاشية ١.

(٢) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ١٧٤، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٨-٢٩، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٦٠.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ١٧٥-١٧٦، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ص ٥٣. العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢١هـ.

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص ١٧٦، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٥٩، ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٦١.

ويجمع العساكر للقاء أخيه جلال الدين الدين منكبرتي وطرده من مملكته، ثم سار على رأس قواته التي قدرت بنحو ثلاثين ألف فارس وعندما سمع جلال الدين منكبرتي بذلك أدرك عجزه من مقاومة غياث الدين عسكرياً فلجأ إلى استعطاف أخيه برسالة عاطفية أرسلها مع أحد خواصه ولقد تأثر غياث الدين بهذه الرسالة ورق لحال أخيه وعاد إلى الري وتفرقت عساكره في البلدان^(١) إلا أنه لم تنته مهمة رسول جلال الدين عند هذا الحد بل قام بالاتصال بجماعة من الأمراء السلطانية وأعطاهم خواتم مرسلة لهم من جلال الدين علامات منه يعدهم ويمنيهم الدرجات العلى ليستميلهم إليه وانقسم هؤلاء الأمراء إلى فريقين، منهم من أخذ الخاتم وسكت رغبة منه في مناصرة جلال الدين منكبرتي، منهم من سارع إلى غياث الدين وناول الخاتم، فادرك غياث الدين مكر أخيه به فأمر بالقبض على الرسول^(٢) وما إن سمع جلال الدين بذلك حتى سار مسرعاً في ثلاثة آلاف فارس ليقبض على أخيه ويحول بينه وبين تجميع عساكره المتفرقة في البلدان ففوجيء غياث الدين بذلك فركب فرسه وهرب إلى قلعة سلوقان^(٣)، ونزل جلال الدين إلى خيمته وبها الأميرة بكلواى والدة غياث الدين فعاملها معاملة حسنة وأنكر انزعاج أخيه وقال: " لم يتول من بنى أبى سواه، وأنا له فيما يميل إليه ويهواه، وإنه اليوم عندي بمنزلة العين النازرة أو أعز" فأرسلت إليه والدته تبين له موقف أخيه منه فعاد غياث الدين إلى خدمة جلال الدين منكبرتي.^(٤)

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٧٦-١٧٧، الذهبى، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٣، ص ٥٩،

ابن اييك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٦١، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢١ هـ.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ١٧٧، الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٢، ص ٥٩، ابن اييك

الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٦٢، العيني، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢١ هـ.

(٣) سلوقان: قلعة حصينة في الري. انظر النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٧٨.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ١٧٧-١٧٨، الذهبى، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٢، ص ٥٩، ابن

ونستبعد صحة هذه الرواية فوالدة غياث الدين يهملها سيطرة ابنها على البلاد التي استقر فيها فكيف تحاول إقناع ابنها بالتخلي عن سلطانه والدخول في طاعة أخيه جلال الدين ولعلها لجأت إلى ذلك تحت الضغط والتهديد من قبل جلال الدين.

ولما استقرت الأمور لجلال الدين منكبرتي بدأ يتجهز للقضاء على الخلافة العباسية والتي كان يظن أنها السبب في زوال ملك أبيه على يد التتار، وفعلاً سار بقواته صوب خورستان^(١) الواقعة ضمن ممتلكات الخليفة العباسي الناصر لدين الله^(٢) (٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ) وحاصر مدينة تستر^(٣) في المحرم سنة ٦٢٢ هـ وكان بها مملوك الخليفة مظفر الدين المعروف بوجه السبع، الذي تمكن من الصمود إزاء الحصار الشديد الذي فرضه جلال الدين حول هذه المدينة، وعندما اخفقت هذه القوات من السيطرة عليها أخذت تهاجم وتنهب الأراضي والأرياف المجاورة لها مثل بادرايا وباكسايا^(٤) ووصلت غاراتهم إلى حدود البصرة، ولم يستطع عسكر الخليفة الذي كان يقوده الأمير جمال الدين قشتمر أن يضع حداً لانتهاكات عسكر

إيبك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٦٢.

(١) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز الواقعة بين فارس والبصرة ووسط جبل اللور المجاورة لاصفهان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) هو العباس أحمد بن الحسن المستضيء بن المستنجد يوسف الملقب بالناصر لدين الله بويق بالخلافة سنة ٥٧٥ هـ وتوفي سنة ٦٢٢ هـ وكان فاضلاً عالماً أديباً حسن الرأي والتدبير حسن السياسة. انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٧١.

(٣) تستر، أعظم مدينة بخوزستان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) بادريا: بلدة قرب باكسايا بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي في أقصى النهر وان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

الخوارزمي لاراضي الخلافة العباسية، ثم سار جلال الدين إلى يعقوبا ودقوقا^(١) وقتل ونهب وسبي " وفعل اشنع من فعل التتر " وعزم على مهاجمة بغداد فخاف الخليفة من ذلك وأخذ يفرق المال والسلاح على العساكر، وحصن الأسوار ونصب عليها المجانيق^(٢) وأراد جلال الدين أن يستميل الملك المعظم عيسى ويكون معه حلفاً ضد الخليفة الناصر لدين الله فكتب إليه كما يقول أبوالمظفر: " وحكى لي المعظم قال كتب لي يقول أنت تحضر ومن عاهدني واتفق معي حتى نقصد الخليفة فإنه السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد ووجدنا كتبه إلى الخطأ وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع " ولم يستجب المعظم لطلب جلال الدين في حرب الخليفة وكتب إليه يقول " أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه أمام المسلمين"^(٣) ويتضح لنا من خلال موقف الملك المعظم مدى المكانة المعنوية التي يحتلها الخليفة لدى كثير من حكام المسلمين وعامتهم، فعلى الرغم من ضعف الخلافة العباسية وانفصال كثير من الحكام عنها إلا أنها لازالت تمثل رمزاً شرعياً لديهم بغض النظر عن مدى أهلية خلفائها للخلافة.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أهل البوازيج^(٤) وهي لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل خافوا من جلال الدين وأرسلوا إليه في طلب الامان بعد أن بذلوا له مالاً

(١) يعقوبا: قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان. ودقوقا، مدينة بين إربل وبغداد. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٣٤، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٥٧-٥٨، القلشندي، مآثر الانافسة، ج٢، ص٦١، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٤٩، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٩٦-٩٧.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ص٦٣٤، وانظر أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٤٢، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص٩، نافع العبود، الدولة الخورزمية ص ١٥٤.

(٤) البوازيج : بلدة قرب تكريت تعد من أعمال الموصل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

مقابل أن يكف عنهم، واستجاب لهم جلال الدين وأرسل إليهم من يحميهم، ثم دخل صاحب إربل في طاعة على أثر مراسلات جرت بين الطرفين.^(١)

وفي الحقيقة أن هذه الأعمال التي قام بها جلال الدين منكبرتي ضد الخليفة العباسي لم تكن تخدم وحدة الصف الاسلامي بقدر ماتزيد من تمزق كيان الامة الاسلامية وتجعله فريسة سهلة لإعدادها المتربصين بها من كل جانب.

اتجه جلال الدين منكبرتي بعد ذلك إلى أذربيجان حيث بلغه تهديد ايغان طاييسى خال غياث الدين لممتلكاته بعد أن أطمعه الخليفة الناصر لدين الله في ذلك وتمكن جلال الدين منكبرتي من مباغته ايغان طاييسى الذي اضطر إلى طلب الامان من جلال الدين فأمنه وعفى عنه وأقام جلال الدين في مراغه^(٢) حيث أعجبه المقام بها، ولما سمع به صاحب أذربيجان وأران^(٣) مظفر الدين اوزبك بن البهلوان^(٤) سار من توريز عاصمة أذربيجان واتجه إلى كنجة^(٥) خوفاً من جلال الدين وبقيت زوجته وهي ابنت السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مقيمة بتوريز، ثم سارع جلال الدين منكبرتي بالذهاب إلى توريز واحكم حصارها وقاتل أهلها قتلاً شديداً^(٦) إلى أن طلبوا الأمان منه وأذعنوا له بالطاعة

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٦، ابن نطف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٠٩-١١٠، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٢هـ.

(٢) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة أعظم واشهر بلاد أذربيجان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) أران: ولاية واسعة وبلاد كثيرة من اصقاع أرمينية. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) هو مظفر الدين اوزبك بن محمد بهلوان جهان بن ايلدكز أحد اتابكة أذربيجان (٦٠٧-٦٢٢هـ) وهو آخر حكام اسرة ايلدكز. انظر ستانلى لين بول، الدول الاسلامية، ص ٣٦٦.

(٥) كنجة: مدينة عظيمة هي قصبة بلاد أران، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٩٥-١٩٦، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٥٩،

ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٤٨-١٥١ الخطيب العمري، الدرر المكنون في المآثر

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

لخوفهم الشديد منه لأن جلال الدين كان يذمهم ويقول "قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم إلى التتر الكفار"^(١)، فعفى عنهم جلال الدين وامنهم وآمن كذلك بنت السلطان طغرل زوجة أذربك وأقرها على مدينة خوى^(٢) ودخل جلال الدين إلى توريز وملكها سبع عشر رجب سنة ٦٢٢ هـ^(٣)، وبذلك أصبح جلال الدين يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، وسر المعظم لذلك سروراً عظيماً وسارع إلى الإتصال بجلال الدين لتوثيق العلاقة معه فأرسل باطناً رجلاً صوفياً من خانقاه السمياطي يقال له الملق يبين له اتفاقه مع مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ضد الملك الأشرف ويدعوه إلى موافقتهم على ذلك وأرسل له ظاهراً مملوكه المعروف بالركين، فوافق جلال الدين على طلبه لأنه وجد في ذلك فرصة لتوسيع نفوذه على حساب ما جاوره من البلاد ثم بادر الملك المعظم عيسى بتزويج ابنته المعروفة بدار مرشد من جلال الدين منكبرتي حتى يضمن تحالفه معه^(٤)، ولم يلجأ الملك المعظم إلى ذلك إلا معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الأشرف صاحب البلاد الشرقية.^(٥)

الماضية من القرون، ورقة ٢٣٨.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) خوى: بلد مشهورة من أعمال أذربيجان حصن كثير الخير والفواكه، انظر ياقوت، معجم البلدان، كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٩-١٥٠، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٥٨-٦١، الديار بكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٩، ٦٣٢، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٥٤، حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٩.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢١٦.

على أن جلال الدين منكبرتي كان يرغب في إقامة علاقة حسنة مع ملوك بني أيوب، فأرسل من جانبه في سنة ٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م رسوله مجد الدين قاضي الممالك الحنفى إلى ملوك بني أيوب الثلاثة "الأشرف والمعظم والكامل" وعند وصوله إلى الملك الأشرف والملك المعظم "أحسننا في عطائه وحرمته غاية الإحسان".^(١)

ولعل هذا العمل الذي أقدم عليه جلال الدين منكبرتي يعكس رغبته في إحلال التفاهم والوثام مع ملوك بني أيوب، ومع ذلك فإن علاقة جلال الدين ازدادت قوة ومتانة مع الملك المعظم عيسى دون غيره من ملوك الشام والجزيرة^(٢) ولم تقتصر علاقة جلال الدين هنا بالممالك الإسلامية بل نجده يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن أراضى المسلمين ضد إعتداءات الكرج^(٣) (أو الجرجانيون) المستمرة على الأراضى الإسلامية المجاورة مما أكسبه سمعة طيبة من وجهة النظر الإسلامية، فقبل مجيء جلال الدين كانت غاراتهم المدمرة تثير الرعب والهلع للسكان المسلمين في خلاط وأذربيجان وأران وأرزن الروم وعاشوا تحت الذل والخزي، ولم يتحرك صاحب أذربيجان ألبك بن البهلوان لنصرة المسلمين إذا كان منغمساً في شهواته وملذاته فنظر الله إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين الذي استطاع أن يفتك بالكرج وينتقم للإسلام والمسلمين سنة

(١) ابن نطفيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١١٥، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢١٦.

(٢) محمود ياسين أحمد التكريتى، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٨٩.

(٣) الكرج : جماعة من المسيحيين كانوا يسكنون في جبال القبقق (القوقاز) وقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ولم يزالوا متملكين لها إلى أن أغار عليهم جلال الدين خوارزم شاه سنة ٦٢١ هـ واسترد تفليس منهم. انظر ياقوت، معجم البلدان، وانظر بن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٩٢، حاشية ١.

٦٢٢هـ^(١) ولم يتوقف جلال الدين عند هذا الحد بل نجده يعاود الكرة مرة أخرى ويغزوا الكرج في عقر دارهم، حيث انطلق بجيوشه إلى أراضهم في شهر ربيع الأول عام ٦٢٣هـ/ مارس ١٢٦٦م وقتك بعساكرهم ودخل عاصمتهم مدينة "تفليس"^(٢) ومع ذلك لم تكن الخلافة العباسية لترضى عن هذه الأعمال التي قام بها جلال الدين منكبرتي لخوفها الشديد من تهديدات جديدة لأراضيها يقوم بها هذا الأمير الخوارزمي فقررت إفساد العلاقة بينه وبين الملك المعظم عيسى فعندما توفي الخليفة الناصر لدين الله في سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م وخلفه ابنه الظاهر لأمر الله^(٣) (٦٢٢هـ - ٦٢٣هـ). عمل هذا الخليفة على اثناء الملك المعظم عيسى عن مولاة جلال الدين منكبرتي ومصالحة أخويه الكامل محمد والأشرف موسى ولهذا الأمر بعث الخليفة الظاهر رسوله محي الدين بن الجوزي إلى دمشق حاملاً الخلع إلى الملك المعظم وإخوته، ورسالة إلى المعظم جاء فيها "المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي (يعني جلال الدين) وترجع إلى اخوتك ونصلح بينكم"^(٤).

وفي تصوري أن الملك المعظم لم يذعن لذلك لمعرفته المسبقة بتخاذل الخلافة عن نصرتهم في المواطن الحرجة ضد أعداء الإسلام من الصليبيين، فخشى إن تراجع عن جلال الدين أن يتمكن إخوته منه وحينئذ لاينجده الخليفة، وقد عبر المعظم عن عدم إرتياحه لذلك برده على رسول الخليفة "مالككم عادة تنجدون أحد،

(١) النسوى سيرة جلال الدين، ص ١٩٧-٢٠٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٩.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢١١-٢١٢، أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٤٢، ابن أيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٧١-٢٧٨.

(٣) هو أبونصر محمد بن الإمام الناصر أحمد تولى الخلافة بعد وفاة والده وتلقب بالظاهر وكانت خلافته تسعة شهور وأربعة عشر يوماً وكان حسن السيرة حسن الاعتقاد عادلاً كريماً كثير الخير والصدقة كارهاً للظلم وأهله. انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) أبو شامة، المصدر السابق، ص ١٤٧.

هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندما كنا على دمياط نكتب ونستصرخ به فيجىء الجواب بأنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا^(١)، وأجاب المعظم رسول الخليفة بقوله " مثلى معكم كمثلي رجل كان يخرج إلى الصلاة وبيده عكاز خوفاً من الكلاب فقال له بعض اصدقائه: انت شيخ كبير وهذا العكاز يثقلك وأنا ادلك على شيء يغنيك عن حمله قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار وما يقربك كلب. واقام مدة فرأى الشيخ حامل العكاز فقال له: اما قد علمت ما يغنيك عن حمله؟ فقال: هذا العكاز لكلب لا يعرف القرآن.

وقد اتفق اخوتي على وقد أنزلت ابن الخوارزمي على خلاط إن قصدني أخى الأشرف منعه وإن قصدني أخى الكامل فأنا له^(٢) وسارع المعظم إلى تشكيل حلف دفاعي ضد الملك الأشرف واتباعه وتألف الحلف من جلال الدين منكبرتي ومظفر الدين صاحب إربل وصاحب آمد، وناصر الدين صاحب ماردين^(٣)، وتم توزيع المهام بين اعضاء الحلف بحيث يقوم الملك المعظم عيسى بمهاجمة حمص وحماة في حين يتجه مظفر الدين إلى الموصل للسيطرة عليها ويقوم جلال الدين بمهاجمة مدينة خلاط قاصداً من ذلك تشتيت جهود عساكر الحلف المقابل والذي ضم الأشرف وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصاحب حمص وحماة اضافة إلى مساندة الكامل صاحب مصر لاعضاء هذا الحلف^(٤) واستطاع المعظم

(١) أبو شامة، تراجم رجال رجال القرنين، ص ١٤٧-١٤٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٢١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٢) ابن اييك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨١، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ١٤.

(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ونصيبين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٧٦-١٧٧، محمود ياسين أحمد التكريتي الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة والشام، ص ٢٨٩، عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام، ص ١٧٨.

عيسى بحنكته أن يمنع الملك الكامل من الخروج من مصر لمساندة الأشرف وحلفائه، إذ أوهمه أن معظم امراء عسكر مصر يميلون إليه وحذره أنه إذا خرج من مصر أخذه بعسكره فلم يجسر على الحركة" ^(١)، وهنا خاف الملك الكامل من امرائه ولم يستطع الخروج من مصر خاصة بعد وصول ابن أخيه الجواد يونس بن مودود بن العادل إلى المعظم بدمشق فاراً من مصر " فتخيل من بعض عسكره فما امكنه الخروج عنها" ^(٢).

وهذا الأمر يدل على ذكاء المعظم عيسى فقد عمد إلى زعزعة ثقة أخيه الملك الكامل بامرائه عندما أوهمه في تلك المراسلات بأنهم يعملون على الإطاحة به والتحالف ضده.

وحينئذ قرر المعظم قصد حمص وحماه ورأى أن يبدأ بحمص أولاً فأرسل جماعة من عرب دمشق اغاروا على قرى حمص والحقوا بها اضراً بالغة، في حين أرسل الأشرف من جهته الأمير مانع بن حديثه أمير آل فضل في جموع كثيرة من العرب نجدة لصاحب حمص ونهبوا اثناء سيرهم قرى المعرة وحماة، ثم خرج المعظم عيسى في عساكره من دمشق متجهاً صوب حمص، وعندما قاربها وتقهر عرب حلب والجزيرة إلى قنسرين ^(٣) ثم نزلوا قرى حصار ^(٤) وتركوا أضغانهم بمرج

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٤، ص ١٧٧، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٢٠.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١١٣، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٣٦، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٥، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٣٠، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٢.

(٣) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) قرا حصار (الحصن الاسود) اسم يطلق على أماكن كثيرة مختلفة بآسيا الصغرى مثل قرى حصار صاحب وقرى حصار شرقي وقرى حصار بهرامشاه... وكل هذه الأماكن واقعة على مرتفعات حصينة من الصعب الوصول إليها أحياناً، ويحتمل أن تكون قد شيدت كمأوى لبعض

دابق وانطلقوا صوب حمص لنجدة أهلها ودارت بين عرب مانع وعرب دمشق معارك عدة في الوقت الذي أرسل فيه الاتابك شهاب الدين الخادم^(١) عسكرياً من حلب نجدة لصاحب حمص، فدخلوها قبل منازل الملك المعظم لها بعد أن جرت بين الطرفين مناوشات قرب مدينة حمص. وعندما ادرك المعظم صعوبة اقتحام حمص أرسل إلى صاحبها وعرض عليه التحالف معه ضد الملك الأشرف فما أطاعه صاحب حمص وهنا غضب المعظم وشن غارات متكررة على قرى حمص وضواحيها وكبدها خسائر فادحة إلا أنه لم يستطع دخول المدينة لحصانتها، واضطر الأخوان في النهاية إلى عقد هدنة بينهما بعد أن انتشرت الأمراض في معسكر المعظم ونقصت المؤن داخل حمص والتقى الأخوان المعظم عيسى والأشرف موسى قرب حمص ودخلا دمشق ثاني عشر رمضان سنة ٦٢٣هـ / سبتمبر ١٢٢٦م ولعل مما أجبر الملك الأشرف على طلب الصلح من أخيه الملك المعظم عيسى هو قطع مادة الشر بينهما^(٢) إضافة إلى بروز خطر جديد هدد نفوذ الأشرف في منطقة الجزيرة، تمثل في حركة سلطان الروم علاء الدين كيقيباذ بن كيخسرو بن قلعج أرسلان السلجوقي الذي اتفق في بداية الأمر مع الملك الأشرف ضد جلال الدين الخوارزمي فاوعز إليه الملك الأشرف بمهاجمة صاحب آمد

جماعات السكان وقت الحروب في آسيا الصغرى، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧٧، حاشية ٦.

(١) شهاب الدين طغرل الخادم كان مسئولاً عن قلعة حلب بوصية من الملك الظاهر غازي، وظل يولي أمور المملكة حتى بلغ العزيز بن الظاهر سن الرشد سنة ٦٢٨هـ. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٣٨.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٢٥-١٢٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤٣-٩٤٤، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٣هـ، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠، العيني، عقد الجمان، حوادث، سنة ٦٢٣هـ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٢-١٢٣.

المسعود الأرتقي الذي انضم إلى حلف الملك المعظم، فسار علاء الدين إلى ملطية^(١) وأرسل العساكر إلى بلاد آمد فتمكنوا من فتح حصن منصور^(٢) وغيره. ولما أحس صاحب آمد بالخطر بادر إلى الإتصال بالملك الأشرف معلناً دخوله في طاعته، عندئذ أرسل الأشرف إلى علاء الدين كيقلاب يطلب أن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه منه فامتنع كيقلاب عن ذلك قائلاً " ما كنت نائباً للأشرف يأمرني مرة وينهاني أخرى"^(٣) فسير الأشرف عساكره لمساندة صاحب آمد وجمع صاحب آمد عساكره وساروا لملاقاة عساكر الروم وتقابل الطرفان ومنيت عساكر الأشرف وصاحب آمد بهزيمة شنيعة^(٤)

وكان الأجدد بالملك الأشرف أن يقدر لعلاء الدين موقفه كحاكم دولة ندأ له فلا يخاطبه بما يسيء إليه وإنما يحاول أن يعزز العلاقة الحسنة فيما بينهما لتحقيق مصالحهما المشتركة في الوقت الذي تقدم فيه صاحب إربل مظفر الدين لحصار صاحب الموصل ونزل الزاب^(٥) فاستجد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأشرف، وعندما علم مظفر الدين صاحب إربل بالاتفاق الذي حصل بين المعظم والأشرف أدرك عجزه عن قتال أهل الموصل فعاد إلى إربل بعد أن دمر وخرب بعض قرى الموصل.^(٦)

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة، مذكورة تتأخم الشام وهي للمسلمين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) حصن منصور: من أعمال ديار مضر لكنه غربي الفرات قرب سمسياط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٦٩، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٥.

(٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٦٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤٤، عماد الدين خليل، الامارات الارتقية في الجزيرة والشام، ص ١٧٩.

(٥) الزاب: تقع بين الموصل وإربل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٦٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٨٨-١٨٩.

وعلى اية حال فإن الملك المعظم اظهر السرور والإبتهاج بمقدم الملك الأشرف وأمر بتزيين البلد فرحاً بهذا الحدث العظيم " وحاله في الباطن بخلاف ما أظهر والرسول مع ذلك تردد بين الملك المعظم وبين السلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه^(١) ويبدو أن المعظم حرص على استمرار علاقته بجلال الدين الخوارزمي ليقف معه في وجه أى تحالف يهدد ملكه في دمشق، كما أن جلال الدين الخوارزمي كان راغباً هو الآخر في إدامة هذه العلاقة، فأرسل رسولاً كبيراً من قبله إلى المعظم خلع عليه واعطاه سنجقاً^(٢) وحربتين وسيفاً، فأظهر المعظم هذا الأمر وأصبح يلبس خلعة جلال الدين منكبرتي وفرسه في حضرة رسل الخليفة وإذا خاطب الأشرف حلف برأس جلال الدين منكبرتي.^(٣)

وهكذا استطاع المعظم أن يفرض نفسه على أخيه الأشرف ليلزمه بموافقته في السيطرة على بلاد الشام وضم حمص وحماة إلى مملكته. وندم الأشرف على مقدمه على أخيه المعظم حيث شعر بسيطرة المعظم عليه، وبدأ الأشرف يخطط للخلاص من هذه السيطرة، كل ذلك يحدث وهما في الظاهر متوادان ومتصافيان

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٩٤٤-٩٤٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٧٩، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢١٢، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٤.

(٢) السنجق: جمع سناجق وهو لفظ تركي كان يطلق أصلاً على الرمح ثم أطلق على الراية التي تربط به وكانت السناجق تحمل بين يد السلطان في مواكبه. انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥، حاشية ١.

(٣) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٢٠-١٢١، ابن ايك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨١، على عودة، المرجع السابق، ص ١٢٤. والحلف لا يجوز إلا بالله، وهذه الصيغة من الصيغ المحرمة شرعاً.

على كل شيء^(١)، وفي تلك الفترة وردت الأخبار إلى دمشق بعزم جلال الدين على قصد خلاط وانتزاعها من الأشرف حسب الاتفاق السابق الذي تم بين جلال الدين والمعظم عيسى وغيرهما، ولكن بلغ جلال الدين في هذه الفترة من جمادى الآخرة سنة ٦٢٣ هـ عصيان نائبه بكرمان عليه وخروجه عن طاعته مما أجبر جلال الدين على العودة إلى كرمان للقضاء على هذا النائب وإخماد ثورته ولكنه عجز عن ذلك لمناعة الحصون التي يتحصن بها وهذا الأمر يتطلب فترة زمنية طويلة لحصارها فلجأ جلال الدين إلى مداراته وأرسل إليه الخلع وأقره على ولايته، وفي تلك الأثناء وصل إليه رسول من وزيره شرف الملك "يعرفه أن عسكر الملك الأشرف الذين بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم" وكان يحثه على الإسراع لإنقاذ الموقف ويحذره من التواني.^(٢) وسار جلال الدين من كرمان إلى تفليس وضيق الخناق على الكرج ثم انطلق إلى بلاد ابخاز^(٣) يتبع الكرج فانتصر عليهم وقتل وسبى ثم عاد إلى تفليس ولم يكن رجوعه إليها إلا حيلة لنائب الأشرف على خلاط حسام الدين على الذي حصن خلاط وزودها بما تحتاجه لخشيته من جلال الدين، وعندما تأكد جلال الدين من ذلك سار مجدداً لقصد خلاط، ولحسن الحظ كان هناك من يرأسل نواب الأشرف بالأخبار فوصل إليهم الخبر قبل وصول جلال الدين بيومين، الذي حاصر ملاذكرد^(٤)، يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة ثم رحل عنها

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤٥-٩٤٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٨٠-١٨١، ٢٠٤-٢٠٥، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٦٧-٣٦٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٧، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٢٨.

(٣) ابخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب وهي جبال صعبة المسالك وعرة تجاور بلاد اللان يسكنها أمة من النصاري ويقال لهم الكرج. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ملاذكرد: أو منازجرد بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم في أرمينية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ونازل مدينة خلط يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة سنة ٦٢٣هـ^(١) ولقد أردك بعض أهل الرأي والمشورة عواقب حصار جلال الدين لخلط خشية اطماعه التوسعية في الممتلكات الأيوبية مستقبلاً ومما يدل على ذلك ماورد في إحدى رسائل ضياء الدين بن الأثير والتي وجهها إلى الملك الأشرف تحذره من مغبة السكوت عن ذلك إذ جاء فيها: " وما ينبغي أن يظن بهذا العدو أنه نازل خلط وحدها، وواقف عندها، وإنما هو سيل إن لم يكف وإلا جاشت بالشام غواربه وفاضت على جوانب مصر جوانبه"^(٢).

وعلى أية حال فقد هاجم جلال الدين خلط ووصل عسكره إلى سور البلد " وقاتل أهل البلد قتالاً عظيماً فعظمت نكاية العسكر في أهل خلط ثم تقدم جلال الدين بجيشه إلى الربض"^(٣) ودمروا ونهبوا وسبوا الحريم الأمر الذي آثار نخوة أهل خلط فحرض بعضهم بعضاً على القتال فخرجوا إلى عسكر جلال الدين وقاتلوهم واستطاعوا إخراجهم من البلد بعد أن قتل خلق كثير من الطرفين، واسر عسكر جلال الدين جماعة من امراء خلط، واستراح جلال الدين عدة أيام ثم عاود الهجوم على خلط واقتل مع أهل البلد الذين كانوا مجدين في القتال للدفاع عن انفسهم حتى لايقعوا فريسة العسكر الخوارزمي فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحرимه وماله ولم يستطع جلال الدين دخول مدينة خلط لاستماتة أهلها في الدفاع عنها ولاشتداد البرد ونزول الثلج عليها وخروج التركمان الايوانية عليه

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٦٩-٣٧٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٨٩-

١٩٠، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص١٢٨.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص١٣٠، الذهبي، المصدر السابق، ص١٢٨،

الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص١٤، ١٥.

(٣) الربض: يقصد ربض بعلبك والربض هو ماحول المدينة من الخارج وقلما تخلو مدينة من

ربض، انظر ياقوت، معجم البلدان.

إضافة إلى إذعان جلال الدين لطلب المعظم بالرحيل عن خلاط وذلك نزولاً عند رغبة الأشرف فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ / ديسمبر ١٢٢٦م.^(١)

وأرى أن شدة جلال الدين وجيشه في محاولة الاستيلاء على خلاط لاتبرر ما رافق ذلك الهجوم من تدمير وإفساد لأن ذلك انتهاك لحرمات المسلمين واعراضهم التي حرّمها الله إلا بالحق.

أقام الأشرف عند أخيه بدمشق مدة عشرة أشهر تحت الإقامة الجبرية كل ذلك والمعظم عيسى يحاول الضغط على الأشرف موسى لتحقيق اطماعه في تملك بلاد الشام، فادرك الأشرف أنه لا مناص من سيطرة أخيه إلا بمساعدته على كل ما يريد فحلف له مكرهاً على مناصرته ضد السلطان الكامل والملك المجاهد صاحب حمص والملك الناصر صاحب حماة فاطمأن المعظم إلى ذلك وسمح للأشرف بالرجوع إلى بلاده في جمادى الآخر سنة ٦٢٤هـ / مايو ١٢٢٧م وعندما عاد الأشرف إلى بلاده نقض جميع ما تقرر بينه وبين أخيه وتآول في ايمانه بأنه مجبر عليها فندم المعظم على تمكينه من الخروج عليه وأرسل الاعراب للاغارة على حمص وحماة فعاثوا فيها.^(٢)

وازدادت بذلك شقة الخلاف بين ملوك الاسلام في تلك الفترة واصبحت المصالح الشخصية فوق كل الاعتبارات على الرغم من أن الموقف يتطلب وحدة الصف مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَان

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٠-٣٧١، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٣هـ، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ١٨٩، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٥٤.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٤٥-٩٤٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٠٤-٢٠٥، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٣٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون في المآثر

الماضية من القرون، ورقة ٢٤٠.

مرصوص^(١) لمجابهة الأخطار التي باتت تهدد كيان الامة الاسلامية.

ومما زاد الأمر سوءاً هو استنجد السلطان الكامل بالامبراطور فردريك الثاني
إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة إذا أنه أحس بخطورة موقفه تجاه أخويه المعظم
والأشرف حيث تيقن انهما اتفقا عليه^(٢)، فضلاً عن استمرار علاقة المعظم
بجلال الدين منكبرتي الذي آثر المحافظة على استمرار هذه العلاقة فأرسل إلى
جلال الدين رسولاً هو النجم خليل الحموي قاضي العسكر ومملوكه المعروف
بالركين فبقيا عنده تسعة شهور ثم عادا إلى المعظم سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م.^(٣)

ونتيجة لذلك أرسل الملك الكامل رسولاً هو شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف
ابن صدر الدين^(٤) إلى الامبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم إلى الشام
لمساندته ضد أخيه المعظم وحلفائه، وتعهده له مقابل ذلك أن " يعطيه بيت المقدس
وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل".^(٥)

ويبدو أن الملك الكامل قد جانب الصواب في تقدير الموقف عندما استنجد

(١) سورة الصف، آية رقم (٤).

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧١، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ، خاشع
المعاضيدى، تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبي، ص ٢٠٧-٢٠٨، عبدالقادر أحمد اليوسف،
علاقات الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر، ص ١٧٧.

(٣) ابن نطفى الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٣٢.

(٤) ينتمى اولاد الشيخ (بنو حموية) إلى أسرة فارسية متصوفة وكانوا فقهاء شافعية هاجر فرع
من هذه الأسرة إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير زمن بنى أيوب الآخر خاصة السلطان الكامل
وأولاده، انظر ابن واصل مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩١، حاشية (٣).

(٥) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٤، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٠٦-
٢٠٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ح ٢، ص ٢١٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج ١،
ص ٤٠٥، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٠-٣١١.

بالأمبراطور فردريك ووعدته إياه بتسليمه بيت المقدس، وكان بالامكان أن يبذل الملك الكامل جهده في حل الخلاف بينه وبين اخوته بالطرق السلمية بدلاً من الاستعانة بالعدو التقليدي لهم جميعاً. وما إن سمع المعظم بذلك حتى سارع إلى مكاتبة جلال الدين منكبرتي يطلب منه إرسال نجدة إليه ووعدة في المقابل أن يخطب له على المنابر ويضرب السكة باسمه فرد عليه جلال الدين باهدائه خلعة لبسها وشق بها دمشق.^(١)

فلما بلغ الكامل ذلك خرج من القاهرة ونزل بليس في رمضان سنة ٦٢٤ هـ / اغسطس ١٢٢٧ م. عندئذ لجأ المعظم إلى تخويف وتهديد أخيه الكامل فبعث إليه رسالتين أحدهما سرية جاء فيها " إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى اتصدق بالف دينار، فإن جميع عسكري معى وكتبهم عندى وأنا أخذك بعسكري"^(٢) والآخرى في علانية ورد فيها " بأنى مملوكك وماخرجت عن محبتك وطاعتك وحاشاك أن تخرج وتقابلنى وأنا أول من انجذك وحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق" فأوجس الكامل خيفة من ذلك وظهر أمام الأمراء ماورد في الرسالة الثانية حتى يشط عزيمة من يفكر في مساعدة الملك المعظم حتى تتاح له الفرصة المناسبة للقبض عليهم، ورجع من العباسية إلى قلعة الجبل^(٣)، ثملقى القبض على مجموعة من الأمراء من ممالك والده لأنه كان يشك بأنهم كاتبوا أخاه المعظم عيسى واعتقلهم وأخذ أموالهم وجميع

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٤.

(٢) ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٤، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٢٠-٢٢١،

العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤ هـ.

(٣) ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٤-١٥، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٢٢.

العباسية هي بلدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية. انظر ياقوت، معجم البلدان، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٧.

ممتلكاتهم^(١)، وفي تلك الفترة وصلت سفارة من الامبراطور فردريك الثاني إلى السلطان الكامل رداً على سفارته تحمل معها الهدايا والتحف السنية فأحسن الكامل استقبالهم وبالغ في إكرامهم وحملهم حربة قيمة إلى الامبراطور.^(٢) ثم انطلقت هذه السفارة إلى دمشق وطلبت من المعظم بيت المقدس وجميع مافتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل فغضب المعظم وأعاد الرسول قائلاً له " قل لصاحبك ما عندي إلا السيف "^(٣) واهتبل الامبراطور الفرصة وبدأ بتجهيز قواته استعداداً للمسير إلى بلاد الشام، فبلغ ذلك المعظم الذي كان يدرك خطورة مجيء حملة صليبية جديدة إلى بلاد الشام فراسل أخاه الأشرف موسى ولاطفه وطلب منه مساعدته في التصدي لهذه الحملة ولكن الأشرف لم ينس معاملة أخيه المعظم له بدمشق وتحريض جلال الدين منكبرتي لمهاجمة خلاط " فعنفه على افعاله التي عامله بها وقرعه على ما اعتمده في حقه وحق أهله "^(٤)

وحرصاً من المعظم عيسى على بيت المقدس سار من دمشق إلى القدس عندما سمع بمسير الصليبيين إليها وقام بتخريب ملامحها وعدة صهاريج بها^(٥) إلا أن الاجل لم يمهل المعظم حتى يشاهد مافعله اخوه الكامل من تسليم بيت المقدس

(١) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١١٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٥، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٢٣، عادل عبدالحافظ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامي، ص ٢٤٩.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٤٣، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٢٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٠٧، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١١، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠.

(٥) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٢٣.

للفرنج فتوفى في ذى القعدة سنة ٦٢٤هـ / نوفمبر سنة ١٢٢٧م.^(١)

وفي تقديرى أنه بموت المعظم عيسى فقدت القوة التى كان بالامكان أن تحول بين الكامل وبين تنفيذ وعده بتسليم بيت المقدس للصليبيين. وتملك البلاد من بعده ابنه الناصر صلاح الدين داود وكان صغيراً، وقام بتدبير شؤون دولته عز الدين ايبك المعظمى^(٢) صاحب صرخد.^(٣)

وسر الملك الكامل بذلك لخوفه الشديد منه على الرغم من أن الكامل وغيره من ملوك بنى أيوب كانوا يعترفون له بالفضل في حفظ البلاد، فقد كان يقول: " من حفظ على البلاد واحيانى بعد الموت غيره" وكان يقول من أنبت الشعر على رؤوسنا إلا هو " وكان الأشرف يقول " الله بينى وبين الساعة التى ولد فيها" يقصد بذلك مولده قبل المعظم بقليل فكان يحترمه لذلك، وكان الظاهر صاحب حلب يقول " هو عين البلاد وواسطة العقد ولولاه لما قر لى بحلب قرار".^(٤) وعلى اية حال فقد فشل ملوك بنى أيوب في نبذ الشقاق والنزاع فيما بينهم، الامر الذي دعاهم إلى استمرار الاستعانة بقوى خارجية تمثلت في قوة الخوارزمية وقوة الامبراطور الالماني فردريك الثانى.

(١) الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة وبرع في الفقه والادب وشرح الجامع الكبير وصنف في العروض. ملك دمشق ثمان سنين وأشهر مات في ذى القعدة سنة اربع وعشرين وستمائة، انظر ترجمته في السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٦٥، محى الدين الحنفى (الجواهر المضيئة، ج ٢، ص ٦٨٢ - ٦٨٣، الحلبى، جبهة الأخبار، ورقة ٣٨، ابوالعدل، تاج التراجم، ص ٤٩، ابن طولون، تاريخ الصالحية، ق ١، ص ٢١٩.

(٢) عز الدين ايبك المعظمى هو استاذ دار الملك المعظم عيسى، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٢٤ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٧، ص ٣٤٥٣، أبوالفداء، التبر السبوك في تواريخ اكابر الملوك، ورقة رقم ٨، ابن ابى الدم، التاريخ المظفرى، ق ٥٤٩.

(٤) أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٢٨١.

استيلاء جلال الدين على خلاط ٦٢٧هـ

فبعد وفاة الملك المعظم عيسى تأمر كل من الملك الكامل والملك الأشرف على انتزاع دمشق من ابن أخيها الملك الناصر داود فاضطر الأخير أمام اطماع عميه إلى الاستتجاد بحليف والده السابق جلال الدين منكبرتي إذ سير إليه رسولاً يخبره " بأن أعمامه إنما قصدوه لإنتمائهم هو وأبيه إليه" وطلب منه إشغال عمه الأشرف بسرعة النزول على خلاط ومضايقتها.^(١)

وفي هذا الوقت وصلت إلى بلاد الشام الحملة الصليبية السادسة بقيادة الأمبراطور الألماني فردريك الثاني بناء على طلب الملك الكامل الذي أحس بالخرج بسرعة قدومها وأن وصول الأمبراطور في هذا الوقت لن يفيد في شيء لوفاة أخيه المعظم عيسى حليف جلال الدين منكبرتي واضطر في نهاية المطاف بعد مفاوضات جرت بين الطرفين إلى عقد صلح يافا في ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م تقرر فيه: -

- ١- أن يسلم بيت المقدس للفرنج على شرط أن يبقى خراباً لا يجدد سوره.
- ٢- أن تكون جميع قراه للمسلمين وعلى المسلمين وال منهم يكون مقره بالبيرة.^(٢)
- ٣- أن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وشعارهم فيه ظاهر.
- ٤- أن لا يدخل الفرنج الحرم الشريف إلا للزيارة فقط.
- ٥- أن تكون بعض القرى من عكا إلى القدس بأيدي الفرنج خوفاً من

(١) مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٠.

(٢) البيرة هي قلعة بين بيت المقدس ونابلس، انظر ياقوت، معجم البلدان.

اعتداءات المسلمين عليها.^(١)

وحلف كل من السلطانين الكامل ومحمد والامبراطور فردريك على هذا الاتفاق وعقد الهدنة لمدة معلومة.

ولقد أدى هذا الاجراء الشنيع الذي أقدم عليه الملك الكامل إلى اثارة سخط المسلمين عامة "وكان القيامة قد قامت في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم بحيث اقيمت المآتم"^(٢) وتذمر المؤرخون من ذلك فقال اليافعي "أعوذ بالله من سخط الله ومن انتهاك شعائر الله ومولاة أعداء الله فكم بين من طهره من نجاسات الشرك وبين من ساق إليه نجاسات الشرك. ومن أعز دين الله ونصره وبين من اذله وخذله"^(٣) كما عبر الذهبي عن إستيائه من ذلك بقوله "وكانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين وتوغرت القلوب على الكامل فإنا لله وإنا إليه راجعون".^(٤)

وفي الوقت الذي كانت فيه الصراعات مستمرة بين ابناء البيت الأيوبي وكان جلال الدين منكبرتي مشغولاً بدفع التار عن بلاد الاسلام، انتهز الحاجب على حسام الدين نائب الأشرف على خلاط هذه الفرصة واتجه بقواته صوب أذربيجان في شعبان ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، وكان الدافع الحقيقي من وراء عملية الحاجب هي

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣-٢٣٤-٢٤١، ص٢١٣، ٢٣٣، ابن أبي الدم، التاريخ المظفرى، ورقة ٥٥٠، القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج٢، ص٧٩، عادل عبدالحافظ العلاقات السياسية، ص٢٩١-٢٩٥، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٦٧.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٥٤، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٦هـ، ابن اييك الدواحر، كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٢.

(٣) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٩، وانظر الذهبي، العبر، ص١٩٧.

(٤) الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص٢٨، دول الاسلام، ج٢، ص١٣٢، وانظر أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص١٥٤.

كسر شوكة جلال الدين إذ أن " سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكرة طامعة في الرعايا"^(١)، إضافة إلى أن زوجة السلطان جلال الدين بنت السلطان طغرل السلجوقي أهملها زوجها ولم يلتفت إليها مع أنها كانت مع زوجها السابق أوزبك ابن البلهوان هي التي تدير شؤون البلاد وصاحبة الكلمة الأولى، فلما حصل لها من جلال الدين ذلك خافت منه فاستجدت هي وأهل خوى بحسام الدين الحاجب " لتنفس من خناقها ويساعدها على استطلاقها على أن تسلم إليه ماتملكه من القلاع والبقاع".^(٢)

كل هذه الأمور مجتمعة دعت الحاجب إلى المسير إلى أذربيجان فصار إليها على رأس قواته سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م واتجه إلى خوى، وعندما علم شحنتها^(٣) بقربة من خوى اخلوها وفتحت ابواب هذه المدينة للحاجب فدخلها وقام اصحابه بنهب هذه المدينة نهباً شنيعاً على غرار ما قام به جلال الدين عندما حاصر خلاط في المرة السابقة، واستمر اصحاب الحاجب في النهب حتى نودى بالكف عن ذلك، وما أن سمع به أهل نقجوان^(٤) حتى سارعوا بمكاتبتهم فذهب إليهم وسلموا إليه المدينة. ثم مضى إلى مرند^(٥) وكان سورها ضعيفاً فدخلها الحاجب، ورتب بها

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٤، وانظر العيني، عقد الجمان، حوادث، سنة ٦٢٤ هـ.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٧٤، وانظر النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٥٩، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٠٧، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣٠-١٣١، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٠، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٢.

(٣) صاحب الشحنة: هو متولي رئاسة الشرطة، ويقال للوظيفة الشحنة أو الشحنة، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ١، ص ٧، حاشية (٥).

(٤) نقجوان: بلد من نواحي أران، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) مرند، من مشاهير مدن أذربيجان بينها وبين تبريز يومان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

يزكه^(١) جهة تبريز، فقويت بذلك شوكة المسلمين في تلك الديار ولو استمر بها لملكوها جميعها ولكنهم عادوا إلى خلاط وكان في صحبتهم زوجة جلال الدين منكبرتي ابنة السلطان طغرل^(٢)

بلغ السلطان جلال الدين منكبرتي الاعتداء الذي قام به الحاجب حسام الدين على ممتلكاته وقبضه على زوجته وأخذها معه إلى خلاط فأثاره هذا العمل وسار بقواته إلى خلاط ولم يكتف بذلك بل تعدى خلاط إلى صحراء موش وجبل جور^(٣) "ونهب الجميع وسبي الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وضرب القرى"^(٤).

ووصلت هذا الأخبار إلى البلاد الجزرية حران والرها وسروج وغيرها أنه قد تجاوز خلاط إلى جور وأنه على مقربة منهم فأصابهم الذعر والهلع، فخافوا أن يقصدهم جلال الدين لأن الشتاء قد حل وبلادهم ليس بها برد شديد، فغزموا على الانتقال إلى بلاد الشام، وسار بعض أهل سروج إلى منبج^(٥) من أرض الشام ولكن

(١) اليزك: لفظ فارسي معناه الطلائع أو الكشافة. انظر عبدالرحمن زكي، السلاح في الاسلام، ص ٦١.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٤، النسوي، سيرة جلال الدين، ٢٧١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٠٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢١٣، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٠، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٢٦، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠.

(٣) موش: بلدة من ناحية خلاط بأرمينية، وجبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي ارمينية، كان اهلها نصارى أرمن وفيها قلاع وقرى. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٣٥، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٤١، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٥ هـ، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٢٩٤، الخطيب العمري، المصدر السابق، ورقة ٢٤١.

(٥) سروج: بلدة قرية من حران من ديار مضر، منبج: بلد قديم أول من بناها كسرى لما غلب على الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

سرعان ما أتاها الخبر بعودة جلال الدين عن تلك الديار فأقاموا في ديارهم.^(١)
وهكذا فشل جلال الدين منكبرتي في الإستيلاء على خلاط سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م
ولعل ذلك يرجع إلى تساقط الثلوج بكثرة في تلك السنة فرجع إلى بلاده خائباً.^(٢)

لم تكن هذه الحادثة لتمر بسلام على الملك الأشرف خاصة بعد أن سيطر
على دمشق إذ اعتقد أن سبب معاودة السلطان جلال الدين منكبرتي الهجوم على
خلاط هو ما أقدم عليه الحاجب حسام الدين على بتعدية على ممتلكات
الخوارزميين في أفريجان سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧، وخشى الأشرف من عودة
جلال الدين منكبرتي إلى محاصرة خلاط، فأرسل مملوكه عز الدين ايبك إلى مدينة
خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين فقبض عليه وأعتقله وقد تسرع
الأشرف في قراره السابق إذ أن الحاجب حسام الدين كانت له اليد البيضاء في
الحفاظ على بلاده وصد الخوارزميين عنها وتعقبهم في بلادهم.^(٣)

وعلى أية حال فإن الأشرف قام بهذا العمل لكي يكسب ود جلال الدين
ويطيب خاطره عله يتوقف عن مهاجمة ممتلكاته مرة أخرى، وقد تجسد ذلك
بوضوح فيما أقدم عليه عز الدين ايبك نائب الأشرف على خلاط حينما أرسل
رسوله إلى جلال الدين منكبرتي يبذل له الخضوع والطاعة، وأن الملك الأشرف ما
أمره بالقبض على الحاجب إلا لإساءته الأدب مع السلطان والتخطي إلى بلاده من
غير أمر صدر إليه وبالغ عز الدين ايبك في ملاطفة السلطان واستعطافه وبين له أن

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٣٥، المقریزی، السلوك، ج ١، ق، ص ٢٢٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٤٠،

الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٧٩، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة

٦٢٦، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٨٠-١٨١، ابن العماد الحنبلي، شذرات

الذهب، ج ٥، ص ١١٩، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٦٢-١٦٣.

الأشرف ولاءه خلّاط "مأموراً بطاعة السلطان واتباع مراده معدوداً في جملة أعوانه وأنجاده أسوة بسائر اجناده بعامّة بلاده".^(١)

إلا أن هذه الاجراءات لم تجد نفعا في اثناء جلال الدين عن تحقيق اهدافه فوجه قواته واثقاله جهة خلّاط وكان قد تفرغ من كسر شوكة الكرج وتفريق جموعهم، وتوجه جلال الدين إلى نخجوان^(٢) وتزوج يابنة صاحبها، ثم نظر السلطان جلال الدين في أحوال أهل خرسان والعراق ومازندران^(٣) وقضى مطالبهم لأنه كان يعلم أنه إذا حاصر خلّاط سوف تنقطع الطرق وتضطرب أحوال تلك الديار^(٤)، واصل جلال الدين مسيره صوب خلّاط ولما دنا منها أرسل رسله إلى أهلها يخبرهم بقدومه ويطلب من الزعماء أن يحضروا بين يديه فلما بلغهم الخبر خافوا من سوء العاقبة ومن تنكيل جلال الدين بهم ودخوله خلّاط واستحواذه عليها وسفك الدماء وسبي النساء. خصوصاً عندما بلغهم سوء سيرته في القرى والبلاد القريبة لذلك رفضوا الاستجابة لطلب جلال الدين منكبرتي، ولما يئس السلطان من مناصحتهم أمر باحاطة المدينة، ونصب عليها اثني عشر منجيقاً^(٥) وألات الحرب الاخرى كراشقات النبال والنفاطات، واستعد أهل خلّاط للدفاع والاستماتة عن مدينتهم وباشرت مجانيق الطرفين بالقذف وشرعوا بتراشق النبال المضروبة من الاقواس أو الدواليب وكأنها حبات البرد وحمى الوطيس فبرز المتبارزون ليلاً

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٩٩، وانظر العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ.

(٢) نخجوان: بلد بأقصى أذربيجان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) مازندران: اسم لولاية طبرستان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٩٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠ النسوى، المصدر السابق، ص ٢٩٩، ابن واصل، مفرج

الكروب، ج ٤، ص ٢٩٤، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٧، رشيد الدين فضل الله

الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٣.

ونهاراً يحملون على البوابات لعلهم يستطيعون فتحها غير أن أهل المدينة تمكنوا من ردهم بأنواع من التحايل وكال أهل خلاط السباب لجلال الدين من على أسوار المدينة، فغضب جلال الدين واحتد في قتالهم رغم حلول فصل الشتاء إلا أنه لشدة البرد وتساقط الثلج في خلاط لجأ جلال الدين إلى تفريق عساكره في القرى والبلاد القريبة من خلاط.^(١)

ولما بلغ صاحب أرزن الروم عزم جلال الدين الاستيلاء على خلاط خاف من بطش جلال الدين به خاصة بعد دخوله في طاعة الملك الأشرف، وموافقته للحاجب علي في عداوته للدولة الخوارزمية، فأسرع بالقدوم على جلال الدين وبذل له فروض الطاعة والولاء وطلب منه الامان، فعفى عنه السلطان وأمنه وأحسن استقباله، وأقام في خدمة جلال الدين عدة أيام ثم أذن له بعدها في العودة إلى بلاده وطلب منه أن يسير إلى خلاط مايقدر عليه من الآت الحصار، ولكي يكسب صاحب أرزن الروم ود جلال الدين ويضمن عدم غدره به ومساعدته على ابن عمه صاحب الروم علاء الدين كيقباز، سير إليه " منجيقاً كبيراً سموه " قراغرا^(٢) وسير تروساً^(٣) وجنويات^(٤) ونشابات كثيرة".^(٥)

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٢) قراغرا: يبدو أن هذه الكلمة لفظ تركي ربما قصد به النوع التركي من المحنقات. انظر عبدالله الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصلبيين، ص ٣١٨، حاشية (٢).

(٣) تروساً: جمع ترس وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل في اليد يتلقى بها ضربة السيف ونحوه. انظر عبدالرحمن زكي، السلاح في الاسلام، ص ١٦.

(٤) جنويات: جمع جنوية وتطلق على نوع من الحسك وهو عبارة عن قطعة من الحديد ذات شعب تطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها. انظر عبدالرحمن زكي، السلاح في الاسلام، ص ٢١، ٢٢.

(٥) سيرة جلال الدين، ص ٣٠١-٣٠٣، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١١٥،

ومهما يكن من أمر فقد استمر جلال الدين في تضيق الخناق حول المدينة "فعم القحط وغلّت الاسعار" وكانت آثار ذلك ترى من وراء الأسوار، وبلغت القلوب الحناجر وأخذوا يرسلون رسلهم خفية إلى بغداد وبلاد الروم والشام عليهم يشفعون لهم عند جلال الدين^(١)، كما أرسلوا إلى الملك الكامل صاحب مصر يطلبون منه النجدة، إلا أنه لم يقدم لهم أى معونة تذكر لخشيته من كسر شوكته أمام جلال الدين، خاصة بعد أن وطد اقدامه في بلاد الشام والجزيرة.^(٢)

وصبر أهل خلاط وصابروا في مقاومة هذا الحصار الشديد وبلغت بهم الحاجة عندما قلت الاقوات إلى أكل الكلاب والسنابير بل أنهم كانوا يصطادون الفئران ويأكلونها^(٣) ويصور لنا النسوى الحالة التي وصلت باهل خلاط فيذكر أنه "خرج منهم في يوم وأحد قرابة عشرين ألف انسان وقد تغيرت صورهم بالجوع حتى أن الأخ كان لايعرف أخاه ولا الوالد ولده فكان شرف الملك يطعمهم فيذبح كل يوم عدة ابقار لهم فما سرت النفوس الناحفة ولا الارماق التالفة ومات أكثرهم وتفرق الباقيون ايدي سباً".^(٤)

واشفق الخليفة العباسي المستنصر بالله^(٥) على أهل خلاط فأرسل رسله إلى

والنشاب: هو النبل وهو سهم مصنوع من اثناب. انظر عبدالله الغامدى، جهاد المماليك، ص ٣٢٠، حاشية (١).

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٨.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٦٣، ٢٣٦.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٠-٣١١، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٨٤، السبكى، طبقات الشافعية، ج ١٠، ص ٣٤١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٥، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٢، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٧٥.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١١.

(٥) هو أبو جعفر عبدالله بن الظاهر محمد بن الناصر بوبع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ وعمره يومئذ

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

جلال الدين منكبرتي يلتمس منه عدة أمور منها: إعادة الدعاء للخليفة على المنابر في مملكة جلال الدين بعد أن أسقطها والده علاء الدين محمد عندما عجز عن دخول بغداد، فاصدر السلطان جلال الدين أوامره إلى عامة مملكته بالدعاء للأمام أبي جعفر المستنصر بالله ومنها الشفاعة في أهل خلاط.^(١)

وعندما وصل رسولا الخلافة بالخلع لجلال الدين منكبرتي. ضربت له خيمة بجوار الخزانة ونقلت إليها الخلع فدخل السلطان جلال الدين إلى الخيمة مرتين ولبس الخلعتين في يوم واحد وتحسنت بذلك علاقة جلال الدين بالخلافة العباسية ووجد رسولا الخليفة أن في ذلك فرصة لطلب الشفاعة في أهل خلاط ورفع الحصار عنهم وتقليص الخناق عنهم، فتوقف جلال الدين عندما طلب منه ذلك ولم يرد عليهما جواباً فرجع رسولا الخليفة إلى مقر إقامتهما وسير إليهما النسوى فيما بعد معاتباً لهما على طلبهما حيث قال " قد ذكرتما فيما بلغني عن أمير المؤمنين أنا نريد إعلاء امرك وإجلال قدرك وتعظيم شأنك وتحكميك على ملوك زمانك ثم تشيران على بإزالة الحصار عن خلاط بعد أن الفتح قد ورد بشيره والنجح قد اسفر تابشيره وهذا مما ينافي ما ذكرتما من عنايات أمير المؤمنين"^(٢) فلم يكن في وسع رسولا الخلافة إلا أن يقرأ ويصدق ما ذكره السلطان، وحاولا أن يجدا لهما مخرجاً من ذلك فذكرا للسلطان أنه ربما تعذر فتحها واستمر صمودها في وجه السلطان فيضطر إلى الرحيل دون تحقيق ما يصبوا إليه فيكون ذلك مدعاة إلى التقصص من قدر السلطان، اما إذا رحل عنها بشفاعة من الخليفة فإن ذلك يكون " اسلم من مطاعن

عشرون سنة ولقب بالمستنصر بالله ومات سنة ٦٣٩هـ وقيل سنة ٦٣٨هـ كان ملكاً حازماً جيداً للسياسة كثير العدل والاحسان. انظر ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص ١٧٤.

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٠، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٨٤، السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٤١، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٠.

المستعجزين واشبه بحال الفائزين".^(١)

فقبل جلال الدين عذرهما واستمر في مواصلة الحصار. وكان سكان خلاط قد توقفوا عن سب السلطان وشتمه عندما حضر رسل الخليفة عليهم يفلحون في اقناع جلال الدين برفع الحصار عنهم، ولكنهم عندما تحققوا أن شفاعتهم لم تقبل وحن وقت رحيلهم " استأنفوا فيها بكل معنى غريب اللفظ عجيب".^(٢)

وسارع كل من صاحب آمد الملك المسعود وصاحب ماردين الملك المنصور بإرسال رسلهم إلى جلال الدين يعرضان الخدمة على السلطان وبذل الطاعة وما ذلك إلا لخوفهم من أن تدور الدائرة عليهم فيقعوا فريسة لجلال الدين وجنده وحينئذ لا تنفع شفاعة الشافعين، ولتحقق جلال الدين من صدقهما أرسل معهما رسولا يأمرهما باقامة الخطبة له في بلادهما.^(٣)

واصل جلال الدين تضيق الخناق على خلاط وأبان عن عزم قوى تحار العقول منه حرصه على إسقاط خلاط في اسرع وقت ممكن.^(٤)

وخرج مجير الدين يعقوب بن الملك العادل من خلاط يلتمس الحضور بين يدي السلطان جلال الدين ليكلمه، فسمح له جلال الدين بالحضور إليه ظناً منه أنه ربما يكلمه فيما فيه مصلحة الطرفين، فلما حضر مجير الدين قال لجلال الدين: " إن البلاء قد نزع والضرر قد اتضح، الطائفتان قد هلكتا، فهل لك أن تبارزني فيعود الأمر إلى فيصل، فقال له السلطان: ومتى يكون ذلك؟ فقال المعياذ بكره غداً " ولما حان الموعد خرج جلال الدين لمبارزة مجير الدين الذي جبن عن لقاءه.^(٥)

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٥) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٣.

والواقع أن هذا التصرف كان ضرباً من الخيال إذ لا يعقل إنهاء أزمة الحصار حول خلاط بهذه الطريقة التي أقدم عليها مجير الدين وهو يعلم من هو جلال الدين الذي كابد وناضل حتى استطاع ببسالته وشجاعته أن يعيد جزءاً كبيراً من أراضى الدولة الخوارزمية، بل أنه ادخل الرعب والخوف لدى كثير من حكام المسلمين المجاورين له حتى اضطر بعضهم إلى الدخول في طاعته.

وتتابعت رسل عز الدين إيك تستصرخ بالملك الأشرف وتطلب منه الاستعجال في تخفيف وطأة الحصار عليهم، وفي إحدى المرات مسكت رسالة موجهة من عز الدين إيك إلى الملك الأشرف وأخرى من مجير الدين يعقوب إلى أخيه الأشرف موسى وتم عرض كلتا الرسالتين على النسوى الذي استطاع أن يفهم فحوى الرسالتين، والتي كان مضمونها عرض للصورة التي هم عليها من الضائقة والبلوى، بل بلغ بهم الخوف والذعر أنهم ظنوا أن عدم وقوع الثلج بكثرة في تلك السنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ م التي حاصر فيها جلال الدين خلاط أنه نوع من السحر^(١) وهذه الرواية لا تمت بصلة إلى حقيقة ما يعتقد المسلمون في اقدار الله عز وجل.

كما تم القبض على رسالة أخرى موجهة من الملك الأشرف إلى عز الدين إيك رداً على رسالته السابقة حاول فيها أن يطمئن أهل خلاط ويسكن من روعهم جاء فيها " أن الذي ذكرتم من سحر العدو وإقشاع السماء دل على ما ملككم من الرعب وإلا فمن المعلوم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا الله. غير أن الشتوات تختلف فتارة يتأخر الثلج وتارة يتقدم". ثم وعدهم الأشرف بأنه سوف يعد العدة ويصل إليهم بعساكره في اقرب وقت يكشف البؤس ويزيل الضرر ولم يقتصر الأشرف على ذلك بل مناهم بطرد الخوارزمية إلى ما وراء جيحون.^(٢)

واستمر الحصار على خلاط ما يقرب من عشرة أشهر وأهلها في استماته

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٥.

شديدة للدفاع عنها رغم ما حل بهم من جوع وارتفاع في الاسعار، وبلغت القلوب الحناجر، واصبحت خلاط كلا لمن يأخذها ووبالاً، على من يملكها كل ذلك وهم مصرون على عدم تسليم خلاط لجلال الدين مهما بلغت بهم الاسباب وانقطعت عنهم الحيل وثبتوا ثباتاً لم يسمع بمثله لعلمهم بجور جلال الدين وإقدامه على سفك الدماء واسرفوا في شتمه من على الأسوار وسبه والوقية فيه مما اثار حنقه وغضبه فامر جيشه " بأن يحملوا على الشاتمين ويدخلوا بهم المدينة.^(١)

وفي هذه اللحظات الحرجة لعبت الخيانة دوراً بارزاً في سقوط خلاط فقد ادلى إسماعيل الإيوانى أحد اصحابه من السور ليلاً ليذهب إلى جلال الدين يلتمس منه إقطاعاً بأذربيجان مقابل مساعدته في الدخول إلى خلاط^(٢) ولم ينظر الايوانى إلى ماسوف يحصل لأهل خلاط بعد تسليمها لجلال الدين، ولم يفكر في ذلك وإنما فكر في مصيره فقط كل ذلك مقابل منحة هذا الاقطاع.

سارع جلال الدين باستغلال هذه الفرصة فاقطع الايوانى سلما^(٣) وعدة ضياع بأذربيجان متفرقة ولكي يطمئن جلال الدين رسول الايوانى حلف له على تقريرها بيده، ورجع الرسول إلى خلاط محققاً اطماع الايوانى، واستعدت قوات جلال الدين للهجوم وبدأ الايوانى في تنفيذ مااتفق عليه فأدلى الحبال من على أسوار خلاط ليلاً ليصعد إليها عسكر جلال الدين وفعلاً تسلمت مجموعة من عسكر

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٠، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٥٩-٦٦٠، ابن واصل مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٥، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٨، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢٠، ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٥، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٦٤.

(٣) سلما^(٣) مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين رومية يومان وبينها وبين خوى مرحلة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

الخوارزمية ومعهم الاعلام وصعدت إلى داخل الابراج، فلما أصبح الصباح زحفت القوات الخوارزمية على ثلثة في سور خلاط كان المنجنيق قد أحدثها. إلا أنهم لم يتمكنوا في البداية من الدخول عن طريقها لوجود بقايا الاجناد القيمرية^(١) التي كانت تقف لهم بالمرصاد على الرغم من أنهم كانوا ينظرون إلى الابراج فيرون اكثرها مملوءة بالرجال والاعلام السلطانية واستبسل جنود القيمرية في قتال الخوارزمية إلا أن الذين كانوا في الابراج زحفوا من ورائهم فما كان منهم إلا أن ولوا منهزمين وسقطت خلاط بيد جلال الدين واسر مجموعة كبيرة من امراء القيمرية وغيرهم الذين صمدوا ولم يفارقوا مواقعهم وتحصن عز الدين ايبك ومجير الدين وتقى الدين ابناء الملك العادل الأيوبي في قلعة خلاط.^(٢)

وما إن سقطت هذه المدينة حتى فعل عسكر جلال الدين بأهل خلاط الافاعيل فقد عمدوا إلى تخريب خلاط واكثروا من سفك الدماء ولم ينج منهم إلا من هرب كما قاموا بنهب الاموال وسبي الحريم واسترقاق الاولاد وبيعهم " فكان قرحاً على قرح وملحاً فوق الجرح" بل بلغ بهم الامر أن استخرجوا دفائن أهل خلاط وخباياهم ومن يظفر منهم بأحد الخلاطية يعذبه أشد العذاب^(٣)

ونحن نتعجب من ذلك اشد العجب إذ كيف يفعل ذلك بالمسلمين وكيف تنتهك الحرمات وتستباح الاعراض والاموال من قبل دولة اسلامية لو كان هذا العمل الذي اقدم عليه الخوارزميين من قبل دولة كافرة لقبلائه كارهين ولكن وما

(١) القيمرية: نسبة إلى قيصر وهي قلعة بين الموصل وخلاط، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٠-٣٢١، ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج ٥، ص ٣٢٣.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢١، وانظر ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص

١٨٦، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٩٥٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٤٣،

السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٤١.

ربك بغافل عما يعمل الظالمون " وقد وصفهم ابن تغرى بردى بقوله: "وكانوا شراً من التار لا يعفون عن قتل ولا سبي ولا فى قلوبهم رحمة".^(١)

بعد هذه الاعمال الوحشية الهمجية التى اقدم عليها عسكر جلال الدين يأتى من يبرر عمله ذلك بقوله: إن جلال الدين اراد أن يحمى خلاط مما حصل بها من النهب والقتل ولكن عسكره غلبوه على ذلك بعد أن حضر إليه الامراء وبينوا له حقيقة الامر فقالوا " إن تطاول مدة الحصار قد اضعف عسكرك وافنى خيلهم ودوابهم، فإن منعتهم النهب، قعد بهم الضعف عن لقاء عدو يتحرك ولعل الضعف يفضى بهم إلى تشتت الشمل وانتشار الحبل" فكان من عسكره ما كان^(٢)، فهل هذا الامر مسوغ لأن يدع جيشه يفعل تلك الأعمال الهمجية، وهل بلغ به الأمر أن يغلبه عسكره على تنفيذ ما يحلوا لهم كل هذه التساؤلات نوجهها لكل من يحاول أن يدافع عن جلال الدين إزاء تلك المأساة التى حصلت في خلاط.

وبالرغم من ذلك نجد أحد المؤرخين المعاصرين يواصل في دفاعه عن جلال الدين ويحمل غيره اللوم في تلك المصيبة من ذلك إلقاء المسؤولية بدرجة كبيرة على الأمراء والحكام الأيوبيين بسبب تنافسهم وجشعهم في املك بعضهم البعض^(٣) ونحن لن نسقط المسؤولية عنهم فهم يتحملون جزءاً كبيراً من ذلك ولكن هل هذا التنافس يبرر لجلال الدين تلك الأعمال ولماذا لم يقوم جلال الدين بدوره في الإصلاح بين ملوك بنى أيوب أم أن له اطماعاً أخرى حرص على الاستفادة منها لتوسيع ممتلكاته ولتكوين حلف ضد الخلافة العباسية.^(٤)

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢١.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢١، سعد حذيفة، أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامى، ص ٣٢٥.

(٣) سعد حذيفة، المرجع السابق، ص ٣٥٢.

(٤) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢١٦، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٣٤، حامد استكمال الحواشي في الصفحة التالية

وقد يقول قائل ايضاً أن جلال الدين لم يلجأ إلى ذلك إلا دفاعاً عن ممتلكاته التي انتهكت حرمتها من قبل نائب الأشرف على خلاط الحاجب حسام الدين على إذ كان هو أول من بدأ الحرب ضد مملكة جلال الدين فنهب ودمر واستباح الاراضي واختطف زوجة جلال الدين مما زاد في حنق جلال الدين وغيظه^(١). إن المتتبع للأحداث يرى حقيقة الأمر فجلال الدين منكبرتي هو أول من بدأ الحرب ضد ممتلكات الأشرف موسى فحاصر خلاط سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م أربعين يوماً مستغلاً تحريض المعظم عيسى له وفعل بها ما فعل من القتل والسبي والنهب وعظمة نكايته بأهل خلاط.^(٢) أما هجوم الحاجب على اراضي الدولة الخوارزمية فلم يكن إلا في السنة التي بعدها وكان ذلك بإستدعاء من زوجة جلال الدين منكبرتي التي أهملها زوجها ووعدته أن تعطيه من القلاع والبقاع كما أرسل إليه اهل أذربيجان أيضاً يستدعونه ليخلصهم من سيطرة الخوارزميين كل هذه الأمور مجتمعة إضافة إلى تهديدات جلال الدين السابقة لخلاط دفعت الحاجب أن ينطلق إلى تلك البلاد لتحقيق مقصوده منها.^(٣)

على أننا لو سلمنا جدلاً بكل تلك المبررات فهل نسينا ما أحدثه جلال الدين في العراق عندما اغار على بعض بلدان الخلافة العباسية وأباح لجنوده نهبها وقتل أهلها ولم يسلم من أهلها إلا من هرب من دقوقاً وغيرها.^(٤) وكيفما كان الأمر فإن جلال الدين استطاع أن يدخل خلاط في الشامن

زيان غانم، الصراع السياسي العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٩،

محمود ياسين احمد التكريتي، الأيوبيون في الشام والجزيرة، ص ٢٩٠.

(١) سعد حذيفة، أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي ص ٣٥١.

(٢) انظر في المبحث الأول ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) انظر ما سبق ص ٣٨.

(٤) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٢.

والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٢م^(١)، وبعد فترة وجيزة نزل إليه من القلعة مجير الدين وتقى الدين ابنا الملك العادل الأيوبي وأحسن استقبالهما ثم طلبا منه الأمان لعز الدين اييك فأمنه، ونزل إلى جلال الدين فسارع إلى تقبيل يديه فلم يمكنه جلال الدين من ذلك استخفافاً به وحنقاً عليه ولم يمكنه كذلك من تقبيل رجله إلا بعد مراجعات طويلة. بل أنه عندما كان يحضر الجميع كل يوم لمجلس جلال الدين يجلس كلاً من تقى الدين ومجير الدين ويقف عز الدين^(٢).

والجدير بالذكر أن جلال الدين لما استولى على خلاط وجرى عليها من النهب ماسبق ذكره، شغف بعمارتها وحرص على ترميمها وإصلاح ما أفسده بها، وندم على ما فعله جنده من النهب والتخريب " وابن من الندامة نفوس مدروسة واجساد تحت اطباق الثرى مطموسة؟ " ولكي يتدارك جلال الدين ما قام به عسكره من التخريب والنهب والتدمير صرف من الخزانة ما يقرب من أربعة آلاف دينار ليتم تجديد أسوار المدينة التي خربتها المجانيق، فتمت بذلك عمارة الأسوار في وقت قصير، ولكي يضمن جلال الدين ولاء الأمراء والقواد له بادر باقطاعهم الكور من أعمال خلاط^(٣).

ثم ذاع صيت جلال الدين وعظمت شوكته بسبب هزيمته للكرج واستيلائه على خلاط، وبادرت الخلافة بإرسال رسلهم إلى بلاط جلال الدين مع التحف

(١) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩، ابن اييك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٩٩،

المقريزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٣٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٣.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢١-٣٢٢، ابن نطيف الحموى، التاريخ المنصورى،

ص ١٨٦، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٨، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع

التواريخ، ص ٤٣.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢٥.

والهدايا واقتدى بها في ذلك ملوك مصر والشام وعلا بذلك شأنه مرة أخرى.^(١)
 وإذا كان علو منزلة قادة المسلمين في تلك الفترة تكون غالباً بقدر جهادهم
 في كبت اعداء الله إلا أننا لانستبعد في هذه الحادثة إلى جانب ذلك أن تكون
 ملاطفة الخليفة وملوك الاسلام لجلال الدين كانت بدافع الخوف منه بعد استيلائه
 على خلاط.

وكان من مهمة رسل الخلافة لجلال الدين الشفاعة في مجير الدين وتقى
 الدين ابني الملك العادل أبوبكر بن أيوب، فلم ير جلال الدين ردهم في المطلوب
 كله، وسلم إليهم تقى الدين وحده وخرج في وداعهم.^(٢)

وكان لذلك الانتصار والشأن الذي بلغه جلال الدين أكبر الأثر في تخوف
 الأيوبيين وسلطان سلاجقة الروم منه الأمر الذي دعاهم إلى تكوين حلف لصد
 اعتدائه على أملاكهم. خاصة وأنه قد دمر مدينة خلاط التي كانت تضاهي مصر في
 ثرواتها وغناها ومواردها.

(١) رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، ص ٤٣، ابن القوطي، الحوادث الجامعة، ص ٦٣.

(٢) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٨.

تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين ضد جلال

الدين ونتائجه

لقد بدأ هاجس الخوف والقلق يدب في نفوس حكام المسلمين المجاورين لجلال الدين منكبرتي^(١) فبادر سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباز بإرسال رسله إلى جلال الدين منكبرتي أثناء حصاره لخلاط، وكان معهم هدايا والطف يرتهن بها رضاه فانطلقوا حتى وصلوا إلى ارزنجان^(٢) فمنعهم صاحب ارزن الروم^(٣) من الوصول إلى جلال الدين وقد كان مجاهراً بعداوة جلال الدين وعداوة سلطان الروم وموالياً للملك الأشرف^(٤)

فاقام الرسل بارزنجان حتى دخل صاحب ارزن الروم في طاعة جلال الدين^(٥) عندها قدموا بما معهم من الهدايا إلى جلال الدين ولم يحسن اتباع جلال الدين استقبال رسل صاحب الروم لعدم رغبتهم في مصافاته ولاحتقارهم لما احضره أولئك الرسل من هدايا والطف وأخذ الرسل في عرض طلباتهم على جلال

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧٣.

(٢) ارزنجان، إحدى مدن أرمينية بين سيواس وارزن الروم وبينها وبين كل من المدينتين أربعون فرسخاً، وكان غالب أهلها من الأرمن وفيها مسلمون وتسمى أيضاً ارزنكان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ارزن الروم: مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من اعمر نواحي أرمينية. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣١٧-٣١٨.

(٥) دخل في طاعة جلال الدين حتى يقطع الطريق على سلطان سلاجقة الروم وكان بينهما عداوة مستحكمة من الاتصال بجلال الدين والاتفاق معه على حساب مملكته الصغيرة.

الدين، ومن ذلك أنهم خطبوا ابنة جلال الدين لابن صاحبهم تأكيداً للالفة وإزالة الوحشة والفرقة فلم يتم لهم ذلك ومنها أنهم طلبوا من جلال الدين أن يأذن لهم في السيطرة على أرزن الروم وأن يسلم صاحبها إليهم لينتقموا منه، فغضب جلال الدين ورفض إقتراحهم وقال " هذا المذكور المطلوب، وإن هتك معي ستر الادب ورفع حجاب الحشمة فقد دخل على دخول العرب، وقبيح بمثلى إحقار حق مقدمه وتسليمه إلى من يعطش إلى دمه".^(١)

ويصور لنا النسوى مدى الإهانة والإحتقار التى لقيها رسل سلطان سلاجقة الروم فيذكر أنه دخل على شرف الملك يوماً فوجد عنده رسل الروم جلوساً وهو يخاشنهم في الكلام ويقلل ممن هبة صاحبهم فيقول " لو أذن لى السلطان لدخلت بلادكم وحدى وفتحتها بجندى".^(٢)

وعلى أية حال عادت رسل سلطان الروم دون تحقيق الهدف المنشود واخبروا صاحبهم بما حصل لهم من التوبيخ والتقريع والتهديد وعدم الرغبة في إحلال الود والتعاوض معه^(٣) ويرى أحد المؤرخين المحدثين أن الهدف من إرسال الرسل من قبل سلطان الروم هو محاولة إقامة تحالف بينه وبين جلال الدين منكبرى لتوحيد القوى الإسلامية ضد القوات المغولية القادمة من الشرق.^(٤)

والواقع أن هذا العمل الذي أقدم عليه الخوارزميون كان بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير إذ أنه كان السبب الذى دفع صاحب الروم إلى تأليب الحكام المسلمين المجاورين ضد جلال الدين، الذين أفزعته الأعمال الهمجية التى أقدم عليها أتباعه في كثير من البلدان التى دخلوها وكان آخرها ماحل بخلاط وأهلها.

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

(٤) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢١٣.

إضافة إلى أن إنضمام حاكم أرزن الروم إلى جلال الدين منكبرتي ومساعدته له في حصار خلاط قد اقلق ابن عمه علاء الدين، وكان بينهما عداوة مستحكمة فخشي من اتفاقهما عليه. لذلك بادر علاء الدين بتجميع القوى للوقوف في وجه التوسع الخوارزمي ورداً للأعتبار.^(١)

كما أرسل سلطان الروم رسالة إلى جلال الدين منكبرتي تحمل في طياتها تهديده وتحذيره من مغبة أعماله حيث قال فيها عن قوة البيت الأيوبي مانصه: - "ولهم الأموال والبلاد والرجال والاولاد والقوة، وأنت فلا أموال ولارجال ولاقوة، وبلادك خربة ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولاتظن أبي عدوهم، لا والله، بل صديقهم ونسيهم بما بيننا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمري معز الدين منهم الاولاد، ولي منهم الاولاد ولاشك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ما كنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء فكان الجواب أن قال لرسولي عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدي".^(٢) وهو بذلك يريد أيضاً أن يبين لجلال الدين مدى الصلات القوية - بسبب المصاهرة - بينه وبين بني أيوب، وأن الخللات بينهم لايمكن أن تؤدي إلى تخليهم عنه في ساعة الشدة.

لم تكن هذه الاعمال تجدى مع جلال الدين منكبرتي فسارع علاء الدين بمراسلة الملك الكامل وكان نازلاً بحران وطلب منه أن يبعث إليه بقوات الشام^(٣) بقيادة الأشرف ولشدة خوف علاء الدين من جلال الدين تابع رسله إلى الملك الكامل فما كان من الكامل وهو يعلم مدى الخطر المحقق بهم إلا أن استدعى

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٨٩، ابن خلدون،

تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٣، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢١٤.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٩٧-١٩٨، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٧٦.

(٣) المقصود بقوات الشام هنا الواقعة تحت سيطرة كل من الملك الكامل وأخيه الأشرف.

أخاه الأشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين متابعة يحث الأشرف على
المجيء للاجتماع إليه بل بلغ الأمر بعلاء الدين أنه أرسل في يوم وأحد خمسة
رسل إلى الكامل والأشرف يحثهما على سرعة قدوم الأشرف إليه بقواته.^(١)

وجد الأشرف الفرصة سانحة له للانتقام من جلال الدين من جراء ما فعله
بمملكته في خلاط، وما فعله مع زوجته خاصة بعدما وصل إليه حسام الدين
القيمرى زوج اخته هارباً من خلاط إلى الرقة، وأخبره عن ضعف جلال الدين وقلة
من معه من العسكر وأن في استطاعتهم الانتصار عليه وكان الكامل قد عزم على
العودة إلى الديار المصرية ولم يرغب في المشاركة في مقاتلة جلال الدين، فلم
يعجب ذلك الأشرف وملوك الشام ولم يستطيعوا منعه من العودة إلى مصر. وعندما
حضر القيمرى وبين للأشرف ضعف جلال الدين سيره إلى الكامل وهو في طريقه
إلى دمشق ليخبره بذلك عله يرجع إليهم. فعرفه ثم عاد إليه.^(٢)

ثم وصلت كتب عز الدين ايبك إلى الأشرف يخبره بما هم عليه من تشديد
جلال الدين عليهم، وأنه عازم على خنقهم بعد هروب القيمرى لحنقه وأن
الخوارزمى توجه من خلاط ونحن بصحبته إلى ملازجرد.^(٣)

ازداد سلطان سلاجقة الروم في التلطف للأشرف وأرسل إليه رسولاً يحمل
رسالة منه جاء فيها "مخدومى السلطان علاء الدين كقباذ يخدم المولى ويقول له
محبتى ومودتى وصادقتى ماتغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب،

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٠، ابن
واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٨.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٠-٢٠١، الجوينى، تاريخ فاتح العالم،
ج ٢، ص ٨٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٦-١٣٧، حافظ حمدى، الدولة
الخوارزمية والمغول، ص ٢٥٩.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

ولا يحسب المولى أننى مذكّرتّه في نجدة السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض ابلغه. والآن فبلادى وأموالى بحكمك فتصل قولاً وأحداً بالعساكر إلى قرشهر^(١) وتنجد وحدك وتصل إلى عندى بقيسارية^(٢) نتفرج ونحظى بخدمتك، ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر، فوالله لا قنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد^(٣). ثم أرسل صاحب الروم كتاب آخر إلى رسوله يقول له " لا تجيء بالأشرف إلا إلى سيواس^(٤) حتى لا يتعب ويبقى العسكر في قرشهر" وكان معه نسخة يمين من صاحب الروم إلى الأشرف، سر الأشرف بذلك وأراد هو الآخر التطفل لسلطان الروم فقال لرسول علاء الدين " ما أحلف بهذا اليمين بل أنا اصل بنفسى جريدة إلى خدمته".^(٥)

كل هذه الأمور مجتمعة دفعت الأشرف إلى تجهيز العساكر والمسير بهم إلى علاء الدين وكان معه نحو خمسة آلاف فارس. ورغم قتلهم إلا أن فيهم من الشجاعة والدراية بأمور الحرب ما يهرب الأعداء إضافة إلى مامعهم من السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وغيرها.^(٦) كما قام الأشرف بمكاتبة حلب

(١) قرشهر: مدينة كبيرة ذات مباني جميلة على نحو ثمانين ميلاً غرب قيصرية. انظر كسى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٢) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي ملوك بنى سلجوق، ملوك الروم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) سيواس: مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع في اسيا الصغرى. انظر كسى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٥) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٦) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٦.

وأهل الموصل والجزيرة يستنصرهم للوقوف في وجه الخوارزمي وقد أجابوه إلى ذلك لخوفهم من وصول جلال الدين إليهم.^(١)

وعندما علم صاحب أرزن الروم بهذا الاتفاق ذهب إلى جلال الدين وكان نازلاً في منازل جرد لترتيب عساكره، فأعلمه بما أقدم عليه صاحب الروم وملوك الشام حيث قال له "إن علاء الدين ملك الروم قد جدد الصلح مع ملوك حلب والشام، واتفقوا على مهاجمة السلطان وقاموا بحشد الجنود. وهم يهددونى دائماً قائلين لو لم يكن السلطان قد وجد منك المدد بالعلف على باب خلاط لما استطاع التوقف هناك"^(٢) وطلب من جلال الدين أن يباغتهم قبل أن يجتمعوا فيصعب على السلطان هزيمتهم، واستحسن جلال الدين رأيه واتفق معه على أن يرحل ركن الدين إلى أرزن الروم ليعد العدة ويجهز العسكر للقاء الحلف السلجوقي الأيوبي، ويرحل هو بعده بخمسة أيام في عساكره وحدد نقطة التقاء العسكرين في نواحي خرتبرت، وحتى يطمئن جلال الدين ركن الدين كتب له توقيعاً بناحيتي كنعين وخريشين من أعمال خرتبرت، فسر ركن الدين لذلك ورجع إلى أرزن الروم لتنفيذ ما اتفق عليه من قبل.^(٣)

وفي شعبان من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م وصل الأشرف إلى علاء الدين كيقباز بسيواس وكان في صحبته أخويه شهاب الدين غازي والعزیز عثمان وكذلك الجواد يونس وبقية الأمراء الكبار، فاستقبلهم علاء الدين كيقباز وسربهم وتبعهم

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٠، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٢، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٣، عماد الدين خليل، الامارات الارتقية في الجزيرة والشام، ص ١٨٨.

(٢) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٩، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٣، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٤.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ٣٢٩.

العساكر الشامية وعند وصولهم خرجوا إلى استقبالهم في الملوحة وحملوا إليهم الإقامات والتقاعد والنفقة مالا عظيماً.^(١)

وبعد فترة وجيزة وصل الخبر بوصول صاحب حمص الملك المجاهد نجدة لهم ولكن سرعان ما وصل الخبر بعودته من حلب بسبب أمور جرت. وأتاب عنه ابنه المنصور إبراهيم ولي عهده، فسار بعساكر حمص حتى وصل إلى مقر إجتماع القوات الأيوبية السلجوقية.^(٢)

وأعلن السلطان جلال الدين منكبرتي النفير العام وأمر العسكر بالإجتماع إليه لتنفيذ ما اتفق عليه سابقاً مع صاحب أرزن الروم، وسار بقواته إلى خرتبرت وأقام بها فترة ينتظر إكتمال العسكر. وسمعت القوات المتحالفة ضد جلال الدين بمسيره صوب أرزن الروم فملئت القلوب خوفاً من ذلك وكان من رحمة الله سبحانه وتعالى ولطفة أن مرض الخوارزمي مرضاً شديداً أقعده في الفراش فلم يستطع مواصلة المسير ويعلق ابن نظيف الحموي على ذلك فيقول " إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرضه منها".^(٣)

وهذا الأمر لا يخفى على كل متبع لسيرة جلال الدين الذي كان يطوى المراحل الطوال في أقصر وقت ممكن. واستبطأ صاحب أرزن الروم قدوم جلال الدين فأرسل إليه الكتب الواحد تلو الآخر يحثه على سرعة القدوم ويخبره بتحريك عسكر التحالف. كل ذلك وجلال الدين في شغل عن قراءتها لما الم به من مرض أعياه من الوقوف عليها وما أن خف عنه المرض حتى تجهز للمسير، وترك أحد قواده بعسكره وعسكر العراق على منازجره، ولم يستلحق العساكر الأرمينية

(١) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٧، ابن

ايك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٩٩، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٣١.

(٢) ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

الأذربيجانية والعراقية والمازندرانية إذ سبق وأن أذن لهم في العودة إلى أوطانهم. كل ذلك استخفافاً وعدم مبالاة بالقوات المقابلة، وسار يطوى المراحل طياً ليستدرك مافاتاه وجرد أمامه أحد قواده في نحو ألفي فارس يرسم اليك للاستطلاع والاستكشاف.^(١)

واستدعى صاحب الروم عسكره الموجود بارزنجان ولم يخبر الأشرف بذلك فتحركت العساكر من ارزنجان في اثني عشر ألف فارس نجدة له من شرق البلاد، ونزلوا في مرج ياسي جمن^(٢) للراحة ووضعوا أسلحتهم وأطلقوا خيولهم للمرعى ولم يعلموا بقرب القوات الخوارزمية منهم فباغتهم وهم على حالهم ذلك فقتلت منهم مقتلة عظيمة وأسرت فلم ينجو إلا جريح أو هارب توغل في الجبال. وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩. نما خبر هذه الهزيمة إلى القوات المتحالفة فشق ذلك عل الأشرف وقال " ليت كان المولى عرفنا بطلبهم كنا لقيناهم".^(٣)، وأما علاء الدين فلم يستطع أن يتمالك نفسه لما سمع بهذا الخبر المزعج وخارت قواه وفترت عزيمته عن لقاء عدوه حيث كان يفتخر أمام حلفائه بقواته القادمة من ارزنجان ويقول لهم " ليس هذا العسكر الذي ترونه من العساكر الذين اتكل عليهم في لقاء العدو دائماً رجالي وابطالي وعسكري

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣٠.

(٢) في الأصل ياصح من وياصجن اسم هذا المكان عند ابن الاثير ياسي جمن وهو من أعمال ارزنجان. انظر، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٦، حاشية ٣.

(٣) ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ٢٠٦، النسوى، المصدر السابق ص ٣٣٠، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٢، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٣، ذكر الجوينى في تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٤، أن عدد الذين تقابل معهم جلال الدين ستة آلاف مقاتل وقتلهم جميعاً.

الذين عليهم اتكالى عسكر الشرق وأنهم واصلون".^(١)

وقرر علاء الدين الانسحاب والعودة إلى بلاده والإقتصار على الدربندات^(٢) التى وراءه، ولكن القوات المتحالفة لم تكن لترضى بذلك إذ كيف يتخلى عنهم في هذا الموقف الصعب أمام جيش متسلط لا يبقى ولا يذر وهم في أمس الحاجة إلى تكثيف سوادهم لتحقيق مرادهم، فذهبوا إليه وواسوه على ما حصل لقواته على يد جلال الدين ورفعوا من معنوياته ليثبت معهم في القتال، فقويت عزيمته بذلك وأصر على الإنتقام من القوات الخوارزمية.^(٣)

ولم يكن الخوف والرعب الذي حصل لصاحب الروم من جراء ما فعلته القوات الخوارزمية بعسكره مقتصرأ عليه وحده بل إن الخوف دب إلى قلوب كثير من الناس، وتفرقت عساكر القوات المتحالفة لإعداد الترتيبات النهائية استعداداً لمواجهة القوات الخوارزمية القادمة لملاقاتهم.^(٤)

ففي يوم الخميس من شهر رمضان المبارك سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م فوجئت القوات المتحالفة بوصول القوات الخوارزمية متتابعة، وكان قد بلغهم أنهم لن يصلوا إليهم إلا في يوم الجمعة، ومن حسن حظهم إن تلك القوات لم تكن تواصل المسير بل كانوا يقفون أثناء سيرهم حتى لا ترهق قواتهم " ولو ساقوا على فورهم

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١.

(٢) الدربندات: جمع دربن وهى كلمة فارسية معناها في الأصل سنبلة من حديد يقفل بها باب الدكان ويقال لها دروند أيضاً وتستعمل هذه الكلمة كذلك بمعنى المضايق الطرقات، انظر النسوى، المصدر السابق، ص ٣٦، حاشية ٧.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣١، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع لتواريخ، ص ٤٤.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٠ كنز

الدرر، ج ٧، ص ٣٠٠.

لاعضل الداء وعسر الثبات وعظم البلاء".^(١)

عندئذ سارعت القوات المتحالفة بترتيب قواتها، فوضعت العساكر والحاشية في الأول ثم العرب ثم الحلبيين ثم شمس الدين صواب، ثم الملك الجواد ثم العزيز عثمان وشهاب الدين غازي، ثم تبعتهم اطلاب^(٢) الروم وبقي كل من كيقباز والأشرف في طلبه الخامس.^(٣)

تمركزت قوات الحلفاء في أرض وعرة أعاقحت حركتها، فبادروا بالانتقال إلى أرض مستوية تمكنهم من التنقل يسر وسهولة في ميدان القتال، وما أن تم لهم ذلك حتى طلعت عليهم طلائع جلال الدين فتقابلت مع العرب وجرى بينهم قتال شديد تمكن فيه العرب من إلحاق الهزيمة بهم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م واسروا وقتلوا وغنموا اعداداً من خيولهم.^(٤)

ويصور لنا الذهبي نقلاً عن شاهد عيان لتلك المعركة مدى الضعف الذي كانت تعاني منه القوات الخوارزمية فيقول " وعرفنا قتالهم ونشابههم وضعف خيلهم وقلة فروسياتهم فتبدل خوفنا منهم بالطمع واحتقرناهم وتعجبنا كيف غلب هؤلاء امماً كثيرين".^(٥)

ثم تشجعت القوات المتحالفة وساروا إلى عقبة مطلة على معسكر القوات الخوارزمية، وأعادوا ترتيب قواتهم بحيث أصبحت الميمنة والميسرة لصاحب

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦١.

(٢) اطلاب: جمع طلب وهو لفظ كردى معناه وحدة تتألف من قائد (أمير) له علم معقود وبوق مضروب يقود عدداً من الفرسان يتفاوت عددهم بين ٧٠-٢٠٠ فارساً، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٧، حاشية ٦.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٦١، ابن أليك الدوادار، كثر الدرر، ج ٧، ص ٣٠٠.

(٤) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٧، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٦١.

(٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٣.

الروم وهو المسئول كذلك عن الدربندات أما القلب والاجنحة فكانت تحت إشراف الأشرف وكان من ضمن أجنحة صاحب الروم ابن صاحب خرتبرت، ومن ضمن أجنحة الأشرف الملك المنصور ابن الملك المجاهد صاحب حمص، وكانت عساكر الحلفاء من الكثرة بمكان حتى إن ابن نظيف الحموي ذكر أنه " كان مع الرومي من الخلائق ماطبق الأرض منها من التركمان والأرمن والفرنج والمسلمين وغيرهم من الشاميين".^(١)

فلما كان يوم الجمعة تجهز الخوارزمي ورتب عساكره استعداداً للقتال، واخفى مجموعة من اتباعه في الاودية كيداً منه، ثم أمر بمن بقي من عسكر ارزبخان وكانوا خمسمائة فضربت رقابهم فخاف الحلفاء من ذلك وكان بينهم وبين جلال الدين جبل عظيم وإلى جانبه واد عظيم، ولم يبق معهم زاد ولا ماء ولا علف لدوابهم، فقال الأشرف من شدة الخوف " لانحشر إلا تحت حوافر خيولنا أين المفرو؟".^(٢)

وتقدمت القوات الخوارزمية فقطعت الوادي ووقف جلال الدين على رأس الجبل، ولما رأى الأشرف قلة عساكر جلال الدين قويت نفسه وطمع فيهم فسار إليهم وملك عليهم أكثر منزلتهم، وعندما حل الليل تراجع الأشرف وعلاء الدين إلى معسكرهم ورتبوا اليزكية كما جرت عادتهم في أكثر حروبهم.^(٣)

وفي هذا الوقت بدأ الخوف يدب إلى نفس سلطان الخوارزمية عندما " رأى قوة العسكر الذين مع الأشرف وتجميلهم وفراة دوابهم وحسن سلاحهم وقوتهم"

(١) التاريخ المنصوري، ص ٢٠٧-٢٠٨. والأرمن في قليقية خضعوا أسماً لكيقباد وضربوا السكة

باسمه وبذلك لزمهم تقديم الخدمة العسكرية كرمز للتبعية، أما البقية هم عبارة عن طوائف مرتزقة.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٨، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦١.

(٣) ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ٢٠٨، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٦١.

فبهت من ذلك وملىء منهم رعباً^(١)، وضعفت عزيمته وكاد يهرب لولا أن فر إليه جماعة من صفوف الحلفاء فشجعوه وقالوا له: "إن الرومى والأشرف قد خافاك وتأخرا عن التل" فقيوت عزيمته للقائهم^(٢).

وفي الوقت ذاته فر من معسكر جلال الدين اثنان من أتباعه وانضما إلى الأشرف فرحب بهما رغبة منه في الحصول على أكبر قدر ممكن من الأخبار المتعلقة بالقوات الخوارزمية، فسألتهما عن عدد قواتهم فقالا: هم ثلاثون ألفاً وأخذ الأشرف يتنقل بين الصفوف يشجع الناس ويرفع من روحهم المعنوية ويحقر من شأن عدوهم ولما أصبح الصباح استعدت القوات المتحالفة لمنازلة جلال الدين في معركة فاصلة بين الطرفين^(٣) إذ أنها سوف تحدد مصير كل منهما فالخاسر منهما لن تقوم له قائمة بعدها بسبب طبيعة العصر الملىء بالحوادث الجسام وهذا الأمر يدعونا إلى إلقاء اللوم على هؤلاء الزعماء حيث أن الخاسر في هذه المعركة سيكون على حساب القوات الإسلامية لصالح الأمم الكافرة كالتار والصليبيين وغيرهم المتربصين بالمسلمين الدوائر إذ كان بإمكانهم تلافي هذا الصراع في هذا الوقت بالذات والعمل على توحيد الجبهة الإسلامية لطرد الصليبيين أولاً من بلاد الشام ثم الوقوف في وجه القوات الترية التي فعلت الأفاعيل بالمسلمين ولا زالت تواصل جهودها للسيطرة على كثير من البلدان الإسلامية وكذلك نلقى باللوم على الخلافة العباسية والقوى الإسلامية الأخرى التي لم تلعب دور الوسيط في إنهاء هذا الخلاف والإصلاح بين القوات الإسلامية مع أنها سوف تتضرر هي الأخرى من النتائج المترتبة على ذلك فيما بعد. قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٩، الاصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، حوادث سنة ٦٢٧هـ.

(٢) ابن نطفة الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٨، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٣.

(٣) الذهبي، المصدر السابق، طبعة ٦٣، ص ٣٣.

فأصلحوا بينهما فإن بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين^(١).

ومهما يكن من أمر فإن الجيوش إصطفت للنزال في التاسع والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م واستدعى الأشرف الهاريين من جيش الخوارزمي وسألهم عن موضع جلال الدين منكبرتي فاخبراه "أنه على ذلك التل وشعره في كيس أطلس وعلى رأس كتفه برجم صغير مخيط بقبائه"^(٢).

فوقع الجاليش^(٣) وحملت ميمنة جلال الدين على ميسرة علاء الدين وسيطرت على التل الذي تمركزت عليه ميسرة علاء الدين ثم عادوا وحملوا على الخوارزمية، ثم رجع الخوارزميون مرة أخرى وكسروا ميسرة علاء الدين، فأردف الأشرف الميسرة بأخيه الحافظ وأردف الرومي بصاحب خرتبرت وتمكنوا من زحزحة ميمنة جلال الدين عن التل وإنزالها في الوادي وتتابع حملات عليهم^(٤)، ثم تقدم الأشرف إلى عسكر مصر وهم في الف وخمسمائة فارس وإلى عسكر حمص وحلب وحماة فالتقى منهم الف فارس، وأرسل بعض أمراء العرب في الف فارس منهم فهجموا على التل المقيم عليه جلال الدين منكبرتي ففوجيء بهم^(٥) وايقن بالهلاك فلاذ بالفرار^(٦) ولما رأى جيشه فراره وكانوا قد اعيتهم

(١) سورة الحجرات، آية (٩).

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٠٨، الذهبي، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٣-٣٤.

(٣) الجاليش: معناه في الأصل الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ثم اطلقت على مقدمة

القلب في الجيش أو على الطليعة منه. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤١، هامش ١.

(٤) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١، ابن نظيف الحموي، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٥) الذهبي، المصدر السابق، طبعة ٦٣، ص ٣٤.

(٦) يذكر الجويني في تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٤ أن سبب هزيمة جلال الدين تعود إلى

ضعف صحته حيث لم يتمكن من التمسك بزمام جواده فانطلق الجواد يسرع على غير بصيرة

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

الحرب ووقعت بهم الواقعة انهزموا وراءه، وأما الذين حملوا على ميسرة الرومي احاطت بهم الجيوش فلم يفلت منهم أحد.^(١)

ويذكر بعض المؤرخين أن سبب الهزيمة هو أن الله سبحانه وتعالى أرسل ضباباً عندما اصطفت الجيوش للقتال فاستحالت رؤية قوات العدو، بينما هجمت قوات الأيوبيين والروم على جند جلال الدين فلم يستطع الثبات في ميدان القتال فولوا منهزمين وفي ذلك عظة وعبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يمهل جلال الدين بل عاجله بالعقوبة الدنيوية نظير ما اقترفته قواته من قتل ونهب وتدمير في خلاط.^(٢)

ولم يقتصر ذلك على جلال الدين وحده بل شمل معظم قواته حيث أصابهم الخوف والذعر فلم يقدرُوا على الهرب ولم يهتدوا إلى ذلك سبيلاً ونزل أكثرهم عن خيولهم وتفرقوا في الجبال والشعاب والوادية والبيوت الخربة فوقعوا فريسة سهلة للفلاحين والغلمان وقتلهم أضعف الناس وتفرقوا لا يلبثون على شيء ووصلت مجموعة منهم إلى درابزون^(٣) فنزلوا في وادي به شقيف فوقعوا فيه^(٤) وما ذلك إلا

فقال خاصة يجب أن ينال السلطان راحته فعادت الرايات لهذا السبب فلما رأت صفوف اليمين والميسرة ذلك ظنوا أن السلطان انهزم فراجعوا.

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٩٩، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٣.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦١، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٠٠.

(٣) داربزون: مدينة على ساحل البحر الأسود. انظر ابن نطيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص

لشدة ماملكتهم من الخوف والذعر حتى قيل أنه وقع فيه مايقارب ألفاً وخمسمائة وأبغال بأحمالها وجمال، وتهافت الناس عليهم ليأخذوا مامعهم فأخرجوا الجمال بأحمالها وكان بها الجواهر والكساوى والذهب والاطلس وغيره، وكان أغلبه خزانة لجلال الدين منكبرتى ولإصحابه واغتنى الناس من ذلك لدرجة أنهم تركوا كثيراً من العدد والالات والأقمشة في الطرقات.^(١)

وتمكن جنود الحلفاء من أسر صاحب ارزن الروم بعد أن أحاطوا به وقيده وحملوه على بغل وجرعه الزمان مر كاسه ثم سارت جيوش الحلفاء حتى وصلت إلى ارزن الروم ونزلت عليها وحاصروها من كل مكان وشرعوا في قتالها وأظهر أهلها العصيان ورفضوا تسليم مدينتهم، وعندما أحسوا بخطورة الموقف سيروا إلى كل من الأشرف وعلاء الدين سراً، وقال لهم الأشرف " أنا أدخل في الكف عنكم ورفع الأذى من السلطان عنكم " ففتحوا لهم ابواب المدينة ودخلوها وأقام بها الأشرف وعلاء الدين " في أنس ووداع وتقرير ممالك ".^(٢)

أما جلال الدين منكبرتى فإنه لشدة هول الهزيمة التى حلت به فقد وصل إلى خرتبرت في يوم وليلة وهو في حالة يرثى لها وكان وزيره نازلاً على منازل جرد

(٤) سيرة جلال الدين، ص ٣٣١ ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢١٠، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٧، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٢٩-٤٣٠، تاريخ الزمان، ص ٢٧٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٣، والشقيفة في اللغة "الارض بين جبلين صلبة يستتقع الماء فيها ". انظر أبو الحسين بن فارس ابن زكريا، " معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ١٧٢ " وفي لسان العرب، ج ٢، ص ٥٢، " الشقيفة الفرجة بين الجبلين ".

(١) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٢، النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٢، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٧٦-٢٧٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٣.

محاصراً لها ومضيقاً الخناق عليها فأتى أهلها الفرج من حيث لم يحتسبوا، إذ أن جلال الدين استدعى وزيره وسار معه بعسكره إلى خلط، فلما وصلها أخذ منها ما أمكنه حمله من الخزائن، وأحرق الباقي لقلّة الظهر وضيق الوقت وأخذ معه الكرجية زوجة الأشرف وأخوته وسار مسرعاً إلى أرجيش^(١) ثم انطلق منها إلى أذربيجان بعد أن ترك وزيره خلفه في سكماناباذ^(٢) يحميه من أي قاصد يقصده وأقام هو بخوى^(٣) على أن قوات الحلفاء لو سارت خلف جلال الدين بعد قدر الله لتمكنت من القبض عليه ولكنهم ظنوا أن انهزامه بتلك الصورة إنما هو خدعة منه يستدرجهم فيوقع بهم وبعد أن تيقنوا من كسرة الخوارزمي قرر الأشرف المسير إلى خلط، وسير علاء الدين معه خمسة آلاف فارس من عسكره واعطاه ذخيرة لإستخدامها أثناء مسيره إلى خلط كما عرض عليه القلاع التي استولت عليها الكرج من خلط فما أخذ منها الاقلعة وأحدة تسمى بقلعة ألتى وكانت أجودها^(٤) انطلق الأشرف بقواته قاصداً خلط، فوصل خرتبرت وأخبره أهلها بقدوم جلال الدين عليهم في طريق عودته، ثم سار إلى ملازجرد فاستقبله من كان بها من أهلها وعسكره، كما بعث إلى خلط من نظم أمورها ورتب أحوالها وعين والياً عليها، وبعد ثلاثة أيام غادر الأشرف ملازجرد وسار إلى أرجيش فاستقبله من كان بها ووصل إليه في

(١) أرجيش: إحدى مدن أرمينية الكبرى وهي بالقرب من خلط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) سكماناباذ: لم أقع لها على ترجمة في المراجع المتوفرة لدى.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣٣، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣٠، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٤، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٣.

(٤) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٢-٢١٣، النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦١، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٧٧، وألتى: قلعة بأرمينية غرب كرس. انظر ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٩، هامش ٥.

ارجيش صاحب الجزيرة الملك المعظم فأكرمه وأحسن استقباله.^(١)

أما الأشرف فقد أقام فى أرجيش يتربص الموقف ويستطلع الأخبار ورتب اليك لقرب وزير جلال الدين منكبرتي من بيكرى^(٢) وهم الأشرف باللاحاق بجلال الدين وتردد فى ذلك وأخذ يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم استشار أحد القادة فى أمر جلال الدين^(٣) فأشار عليه برأى رشيد يحقن الدماء ويحفظ الحرمات ويراعى حال المسلمين.

ولابد لنا من وقفة هنا حول هذا المبدأ العظيم من مبادئ الإسلام وهو مبدأ الشورى حيث قال تعالى: ﴿وشاورهم فى الأمر﴾^(٤) وقال ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾^(٥) كما أن الرسول ﷺ وهو الذى لا ينطق عن الهوى كان يستشير أصحابه فى كثير من المواقف. والمتبع لتاريخ هذه الفترة من التاريخ الإسلامى يلاحظ أن معظم الصراعات التى قامت بين الدول الإسلامية بعضها مع بعض أو مع أعدائها كان يفتقر إلى هذا المبدأ العظيم فكل حاكم ينفذ ماتمليه عليه رغباته وشهواته دون استشارة أحد فى ذلك فتتج عن ذلك تغلب الهوى على الصالح العام وأدى فساد الرأى إلى ضعف الأمة الإسلامية.

ولقد أحسن الأشرف فى استشارته لهذا القائد فقال له "كيف نعمل بجلال الدين" قال: "إذا أذن للملوك قال ماعنده" فاذن له فذهب واحضر أحد اسراه من الخوارزميين ومنحه الأمان على نفسه وقال له "تمضى إلى جلال الدين تعرفه

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) بيكرى: أو بركرى هى من أعمال خلاط. انظر الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٤، هامش ٣.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٤، أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩،

الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٥) سورة الشورى، آية ٣٨.

إحساننا إلى من عندنا من الأسرى ومالككم من راتب ونفقة وحرمة ليفعل مع من لنا عنده كذلك" فسار إلى جلال الدين وبلغه المقولة فما كان من جلال الدين إلا أن طلب منه أن يرجع إلى الأشرف ويطلب منه رسولاً ليحدثه، فعاد الرسول ونقل للأشرف طلب جلال الدين فقال له الأشرف وكان يخشى من بطش جلال الدين برسله "ما عندنا مثلك وانت امينا ونسمع ما تقوله فعاد إلى جلال الدين وعرفه ماتم الاتفاق عليه^(١)، فقال له: "تقول للأشرف يا خوند^(٢) أنا مأسأت أولاً، ولاشك أنى سيرت المجيد قاضى الممالك إليكم فى أحسن السفارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقد طلب المسالمة فما اجبتم إليها، ودخل الحاجب بلادى واخربها وأخذ حرمى، وفعل ماقد علمتموه، وطلب الصلح فما فعل، ثم ولى بعده أيك طلب الصلح فما فعل وجرى ماجرى بقدر الله وقضائه وعندى الآن ملوك وعندكم ممالك، فان اخترتم الصلح باسم الله".^(٣)

ويظهر أن جلال الدين حاول من خلال هذه الرسالة أن يبرر لنفسه ما أقدم عليه هو وقواته ويرجع ذلك إلى عدة أمور منها أن قاضى الممالك الذى كان قد سيره إلى ملوك بنى أيوب قد عمل على إفساد ما بينهم ثم يذكر أنه طلب المسالمة فلم يجبه أحد إلى ذلك ومن خلال استعراضنا لتاريخ جلال الدين فى هذا الفصل لم نطلع على نص وأحد يفيد بأن جلال الدين قد طلب المسالمة مع ملوك بنى أيوب. وإنما هو يحاول أن يلتمس أعذاراً لنفسه على حروبه المتواصلة فى الجزيرة. ثم يذكر ما فعله الحاجب بيلاده من خراب وتدمير وإعتداء على حرمة^(٤)، ويختتم رسالته بتهديد للأشرف يبين له أن فى قبضته ملوك من بنى أيوب أما الأشرف

(١) ابن نطفى الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) خوند: كلمة فارسية، تعنى السيد، انظر الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٥، هامش ٣.

(٣) ابن نطفى الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٥، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣٠.

(٤) انظر المبحث السابق ص ٣٨.

فليس عنده سوى ممالك.^(١)

لم تنطل هذه المبررات على الأشرف ولم يسكت للتهديد الذى بدر من جلال الدين فأرسل رسوله بجواب جاء فيه "أن تدخل على المولى السلطان وتقول: يا خوند أنت سلطان وابن سلطان وما أردنا لك سوءاً وقد بلغت فيما فعلته فى بلادنا من خراب ونهب وقتل. والذى كان قصد بلادك كما زعمت فقد قابلناه على فعله، وأنت فما أبقيت فى سوء المعاملة وإراقتك الدماء؟ فبلادنا قد خربت فصلحنا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فانزل عن هذه البلاد التى ما كانت لك ولا لإبيك، لنعمر نحن بالعامر الخراب، ونحن فما اشتهينا اذيتك، لأن خلفك اعداداً كثيرين، وأنت ابتر، فهذا موجب ابقائنا عليك رحمة، وأما قولك: عندك ملوك وعندنا ممالك، فالذى عندك ممالك ايضاً، واخى مجير الدين اقدر أنه مات، ولى عدة أخوة وأولادهم جماعة، واهلى ما يناهض الفى فارس من بيتنا، ولى من يكلفنى ويخلفنى ويكفينى ماورائى وأنت فما لك أحد".^(٢)

ويذكر النسوى أن الأشرف كان حريصاً على الصلح حقناً للدماء وحريصاً على قوة جلال الدين لتقف فى وجه التار فأرسل إلى وزيره شرف الملك^(٣) وكان مقيماً بسكاناباذ قائلاً له بعد أن لاطفه "إن سلطانك الإسلام والمسلمين وسندهم، والحاجب دونهم ودون التار وسدهم، وغير خاف علينا ماتم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام، وضرره عائد على كافة الأنام، وأنت قد حلبت الدهر اشطره، وعرفت نفعه من ضرره، وذقت حلوه ومره، فهلا ترغبه فى جمع الكلمة ما هو اهدى سبيلاً، وأقوم قليلاً؟ ولم

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢١٥.

(٢) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٦، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٢٧، مختصر

الدول، ص ٤٣٠.

(٣) اسم هذا الوزير عند ابن نظيف الحموى خواجاجةان

لاتدعوة إلى الالفة التي هي أحمد في البدء والعقبى، وأقرب إلى ما يقربه إلى الله زلفى؟ وما أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كي قباذ وأخى الكامل ما يرضيه الإنجاد والاسعاد، وإصفاء النيات على حالتى القرب والبعاد، والقيام بما يزيل عارض الوحشة ويمحو سمة الفرقة".^(١)

واستحسن جلال الدين هذه الرسالة، حيث حفظ له الأشرف مكانته، بعد أن هزم شر هزيمة على يد قوات الحلفاء، فمال إلى الصلح وترددت الرسل بينهم فى ذلك، وكان آخر رسول تمت على يديه مراسيم الصلح النهائية هو الشمس التكريتى الذى ذهب إلى تبريز واستحلف جلال الدين للأشرف بعدم الإعتداء على ممتلكاته فى خلاط ونواحها^(٢) واستثنى من ذلك سرمارى^(٣) لأنها معدودة من أعمال أذربيجان فالح عليه التكريتى بالنزول عنها لأن صاحبه دخل فى طاعة الملك الأشرف فنزل فى نهاية الأمر عنه، ولكن جلال الدين توقف عن الحلف لعلاء الدين كي قباذ لما يحمله من غل عليه ولم يرجع التكريتى بل أقام عند جلال الدين عليه يرجع عن ذلك، ومضى شهر وجلال الدين مصر على عدم اقرار الصلح مع الروم وكان يقول للرسول "قد حلفنا لكم بجميع ما أردتم، فخلوا السيل بينى وبين صاحب الروم" فلم يقتنع الرسول بذلك بل حاول معه وراجعته فى ذلك عدة مرات فلم يحلف له، إلى أن وردت الأخبار بوصول التار إلى العراق العجمي عندئذ اضطر إلى الحلف لصاحب الروم، والكف عن بلاده.^(٤)

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣٣-٣٣٤، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٦٦.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣٤، ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٢، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٧هـ، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٢٩٥، نافع العبود، المرجع السابق، ص ١١٦-١١٧.

(٣) قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

ويتبين من تأخر وتسويق حلف جلال الدين لصاحب الروم مدى الدخن والغل في القلوب وان هذه المعاهدات والاتفاقات انما كانت هدنة مرحلية تمهيداً للاستعداد لمعارك جديدة وأنه اقسم مضطراً لما علم بهجوم التار.

واخيراً كانت هذه المعركة بين الطرفين فرصة استثمارها جلال الدين ليحسن علاقته مع القوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة لاسيما وان الخطر المغولي قادم من الشرق للقضاء الدولة الخوارزمية ومن ثم الهجوم على البلدان الإسلامية فيما وراءها.^(١)

كما كان لهذه المعركة نتائج اخرى من أهمها: -

١- إضعاف قوة جلال الدين وتفرق أتباعه في البلدان وكسر شوكته على الرغم من أنه كان بمثابة السد الفاصل بين المسلمين والمغول.

٢ - فرح كثير من البلدان الإسلامية بكسر شوكة جلال الدين لأنه في نظرهم لا يؤمن جانبه وخاصة أهل خلاط.

٣- تحريض الإسماعيلية للمغول على سرعة الاجهاز على جلال الدين وفتح الباب أمامهم مرة اخرى للقضاء على الدولة الخوارزمية منتهزين فرصة هزيمته وانكسار قواته.

وستتجلى هذه النتائج بوضوح في المبحث الرابع من هذا الفصل.

(١) محمود ياسين التكريتي، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص ٢٩٤.

تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية

ونهاية جلال الدين

ويحسن بنا قبل أن نوضح هذه النتائج أن نلقى الضوء على أحوال المغول بعد انتصارهم على جلال الدين في المرة الأولى. فقد عاد جنكيزخان إلى بلاده بعد أن تمكن من الإنتصار على جلال الدين منكبرتي وسيطر على أغلب اقاليم الدولة الخوارزمية إلا أنه لم يحتفظ بهذه الأقاليم لأن جيوشه الجرارة عندما قدمت إلى هذه الأقاليم أتت على الأخضر واليابس فلم تترك أى معنى للحياة بها، فقتلوا أهلها ونهبوا أموالها وسبوا حريمها ولم يبقوا على أحد بها بل أنهم عمدوا إلى إحراقها وخرابها وفعلوا بسوادها كذلك "فاصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس".^(١)

ومن المسلم به أن هناك أموراً أخرى شغلت المغول عن الإلتفات إلى البلاد الإسلامية. من ذلك بروز أحداث جديدة أصبحت تهدد كيانهم فى بلادهم الأصلية.^(٢)

ومن أجل ذلك نرى جنكيز خان مؤسس هذه الامبراطورية يبذل كل جهوده من أجل الحفاظ على هذا الصرح الذى شيده وحتى تتسنى له الفرصة من جديد لتوسيع مملكته على حساب البلدان الإسلامية المجاورة له، فكان أول ما قام به بعد رجوعه إلى بلاده هو القضاء على القبائل الشائنة عليه ثم سخر جهوده لإخضاع امبراطورية سونج فى النصف الجنوبى من بلاد الصين حتى لاتبقى شوكة فى ظهره

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٤٤.

(٢) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢١.

تهدد كيان دولته في أخرج الظروف، ولكنه توفي قبل أن يرى ثمرة إنتصار قواده هناك.^(١)

ومما زاد في تأخر الزحف المغولي على بلدان العالم الإسلامي في هذه الفترة هو بقاء عرش المغول خالياً لمدة عامين بعد وفاة جنكيز خان^(٢) سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م فاضطربت أحوال المغول لذلك وسارع الأمراء بالعودة إلى "قرا - قورم" منغولياً لأنهم "خشوا إذا ظل الحكم للأمراء في ولاياتهم دون رجوع الخان الأعظم، أن تحدث فتنة أو يخرج على الدولة عدو لها" فاجتمع مجلس الشورى المغولي "قورتيلاي" وتشاوروا فيمن يخلف جنكيز خان ويتولى زمام هذه الامبراطورية، وكان من عادة المغول أن يقوم أصغر الأبناء مقام أبيه بعد وفاته إلا أن الأمراء خالفوا هذه القاعدة المعمول بها عندهم وقرروا تنصيب أكتاي على عرش هذه الامبراطورية عملاً بوصية جنكيز خان وتردد أكتاي في ذلك إلا أنه انصاع إلى ذلك في نهاية المطاف.^(٣)

ومما تجدر الإشارة إليه أن المغول رغم إنشغالهم بتعيين خان جديد لهم إلا أن إعتداءاتهم لم تنقطع عن أراضي الدولة الخوارزمية، فقد كانت جماعات مغولية غير منظمة تخرج فتغير على البلدان الإسلامية وتتوغل فيها بحروب أشبه بحروب

(١) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢١.

(٢) جنكيز خان طاغية التتار وسلطانهم الاعظم الذي خرب البلاد واباد الأمم وهو الذي جيش الجيوش وخرج بهم من بادية الصين. فدانت له المغول وعقدوا له عليهم وأطاعوه وإسمه قبل الملك تموجين، مات على الكفر وكان من دهاة العالم توفي في شهر رمضان سنة ٦٢٤هـ، انظر الذهبى العبر، ج ٣، ص ١٩٢.

(٣) رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٥-٦، حافظ حمدي، المرجع السابق، ص ٢٢١.

ولابد لنا من وقفة هنا نبين من خلالها أحوال اقاليم خراسان وخوارزم وغزنه بعد الإجتياح المغولى لها وعودتهم إلى بلادهم، فقد ترك جلال الدين هذه الاقاليم فى أيدي المغتصبين لها من رجال الدولة الخوارزمية وصرف كل جهوده للسيطرة على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية فى حياة أبيه. ^(٢)

لذلك لم تجد القوات المغولية صعوبة تذكر عندما كانت تقوم بشن غاراتها على تلك الاقاليم ففي سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م وصلت طائفة من التتر إلى الرى ^(٣) ووضعوا السيف فى أهلها بعد أن عمروها فقتلوا ونهبوا وأخربوا ثم ساروا إلى ساوة ^(٤) وقم ^(٥) وقاشان ^(٦) فملكوها وفعلوا بها مثل ما فعلوا بالرى، وانطلقوا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون حتى وصلوا إلى همذان فلم تسلم منهم فقتلوا واسروا ونهبوا واخربوا البلد، وفر كثير من عسكر الخوارزمية إلى أذربيجان ليحتموا بها وما أن وصلوا إليها حتى كبسهم التتر ووضعوا فيهم السيف وفرت طائفة منهم إلى تبريز وكان صاحبها فى ذلك الوقت أربك بن البهلوان فأرسل إليه

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣١٥، عفاف صبرة،

التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٥٩، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢٢.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٥٣، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٥،

حافظ حمدى، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٣) الرى: مدينة مشهورة من أمهات البلاد واعلام المدن وهى قصبة بلاد الجبال. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ساوة: مدينة حسنة بين الرى وهمذان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) قم: مدينة تذكر مع قاشان وهى مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) قاشان: مدينة قرب اصبهان تذكر مع قم. انظر ياقوت، معجم البلدان.

التر يهددونه ويأمرونه بتسليم من فر إليه من عسكر الخوارزمية فما كان منه إلا أن قبض على من وجد عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسّر بعضهم وسيرهم إلى التتر مخافة أن يزول ملكه على أيديهم رغم أن عسكره كان أضعاف عسكر التتر.^(١)

وعندما فرغ جلال الدين من كسرة الإسماعيلية نتيجة قتلهم أمير من أمرائه الكبار ورد إليه الخبر بمقدم طائفة من التتر عظيمة وأنهم قد وصلوا إلى دامغان بالقرب من الري طمعاً في الاستيلاء على ماتبقى من ممتلكات الخوارزميين واستغلال خيراتهم، فما كان منه إلا أن سار إليهم لياغتهم في دامغان والتقى الفريقان واشتدت الحرب بينهم وحمى الوطيس واستبسل الخوارزميين في قتالهم فانهزم التتر من أرض المعركة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م فأوسعوهم قتلاً وتبعوا المنهزمين عدة أيام يقتلون ويأسرون.^(٢)

وفي العام التالي ورد الخبر بمقدم فرقة مغولية كبيرة صوب أراضي الدولة الخوارزمية وكان جلال الدين مقيماً بتبريز للاستجمام، فلما سمع بقربهم من أصفهان خاف على أولاده وحرمة فيها، فجمع قواته وسار مسرعاً إلى أصفهان لأن "التقاءهم بها أصوب، ومن الإحتياط والحزم أقرب، لما فيها من عدة وعديد، ورجال يمجون من بحار من حديد".^(٣)

وصل جلال الدين إلى أصفهان، واعد فرقة استطلاعية تأتيه بأخبار التتر كان

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٥٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١١٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٧٤، الأصفهاني، البستان، الجامع لجميع، حوادث سنة ٦٢٤هـ، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٠، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٠٠.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٢، الياقعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٥٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ٣٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٣.

قوامها أربعة آلاف فارس، أرسلها إلى الري ودامغان و كانت الأخبار تأتي من جهتهم يوماً بعد يوم تخبره بتقدم التار صوب اصفهان، ثم رجعوا إلى جلال الدين منكبرتي وأخبروه بأحوال المغول، وعرفوه بما في عسكر التار من الفرسان الشجعان الذين كانوا كما يذكر الدوادار جمرة التار الوقادة وصاعقتهم المحرقة.^(١)

تقدمت جموع التار ونزلت بقرية السين شرقي اصفهان واستعدوا للقاء القوات الخوارزمية بقيادة جلال الدين منكبرتي، إلا أن جلال الدين لم يتحرك للقائهم لأن المنجمين قد أشاروا عليه بالأيقاتلهم إلا بعد ثلاثة أيام، وصدق جلال الدين كلام المنجمين^(٢) فلم يتوجه لمقابلة التار إلا بعد إنقضاء المدة المحدودة وفي هذه اللحظات تجلت شجاعة جلال الدين فلم يكثر لمجيئهم أو على الأقل تظاهر بعدم الإكتراث لمجيئهم حتى لا تفتر قواته ويصيبهم الخور والخوف، ويظهر ذلك فيما أورده النسوي حيث قال "ومما يدل على قوة قلب السلطان في الأمور القادمة، وقلة مبالاته بالخطوب الكالحة، ان جماعة الأمراء الخانات لما سمعوا يقرب العدو، انزعجوا لذلك، وقصدوا بابه، فجلسوا ساعة حتى أذن لهم بالدخول، فلما وقفوا بين يديه وهو واقف في صحن الدار أخذ يتكلم زماناً فيما ليس يتعلق بالتار استحقاراً بهم، وإظهاره للجماعة بأن الأمر ليس بأمر، وإن الحادث ليس بنكر، تسكيناً لقلوبهم الخافقة، وتقوية لنفوسهم الفارقة"^(٣)، واستمر جلال الدين في حديثه حتى تيقن من ثبات جنده واجلسهم في نهاية المطاف وعرض عليهم أمر التار وقال لهم "لقد داهمنا خطب جمل وبلاء عظيم، فإن داخلنا العجز، والجبن فلن يكون لنا وجود، فعلينا أن نقاوم ونصبر أولاً، فقد يمن الله علينا

(١) ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٤.

(٢) وما أصاب الأمة اسلامية على أيدي التار إنما كان بسبب الانحراف العقدي الذي سرى فيها والمتمثل في التصوف والشركيات التي عمت في هذه الحقبة ضللاً عن التنجيم.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٣،، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ١٨.

وعليكم بالبقاء أما إن كان الأمر غير ذلك فلن نحرم أنفسنا من درجة الشهادة وفضيلة السعادة، قال تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) ووقف جميعهم مع السلطان قلباً ولساناً.^(٢)

وكان جلال الدين يفتقر إلى الثقة في أمرائه وقواده لذلك نجده يلجأ إلى استحلافهم على أن لا يهربوا من ميدان القتال، وفي المقابل نجده يعزز ثقة أمرائه به فيحلف لهم تبرعاً منه من غير طلب منهم على أن يقاتل إلى النهاية، ثم بدأ جلال الدين يرتب أوضاعه ويستعرض القوات المشاركة معه فاستدعى قاضي اصفهان ورؤساءهم وأمرهم بإجراء استعراض عام لقوات اصفهان وتوزيع العدد عليهم، كل ذلك من أجل رفع الروح المعنوية عند بقية قواته إذا أن عساكر اصفهان فيهم من القوة والشجاعة والشدة وقوة البأس ما ليس في غيرهم.^(٣)

ولما تأخر السلطان جلال الدين ثلاثة أيام عن الخروج ظنوا أن السلطان إمتلاً منهم رعباً وخوفاً، فأرسلوا ما يقرب من ألفي فارس إلى جبال اصفهان ليجمعوا لهم ما يقوتهم خلال حربهم مع الخوارزمية، فلما بلغ جلال الدين خبرهم جرد إليهم ثلاثة آلاف فارس، فانطلقوا إليهم وضيقوا عليهم الطرقات وتقابلوا معهم فانزلوا بهم هزيمة ساحقة وقتلوا منهم من قتلوا واسروا ما يقرب من أربعمئة أسير ما بين مأمور وأمير وأحضروهم إلى جلال الدين منكبرتي قتل بعضهم بيده وسير البقية الباقية إلى القاضي كي يقوم بقتلهم وسحبهم في شوارع المدينة حتى تسقط هيبتهم من قلوب

(١) سورة الأنفال، آية ٤٥.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ص ٧٠-٧١.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٣، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٥،

الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٣٧، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ١٨.

عامة الناس. (١)

ثم أمر جلال الدين بعد ذلك بالتعبئة العامة لقرب الموعد المحدد لقتال التتار وأخذ ينظم صفوف قواته حيث وزعها إلى ثلاث مجموعات الميسرة والميمنة والقلب، فوضع أخاه غياث الدين على ميسرة الجيش بينما وضع أحد قواده الشجعان على ميمنة الجيش وتولى هو قيادة القلب، فلما ظهرت جموع التتار وتراءى الجمعان خذله أخوه غياث الدين فانسحب بعساكره ومجموعة من عساكر جلال الدين مقدمهم جهان بهلوان ايلجى. (٢)

لقد كان هذا العمل الذى أقدم عليه غياث الدين بمثابة خرق لوحدة الصف الإسلامى الذى كان ينبغى أن يتم لدحر أي عدوان على بلدان العالم الإسلامى فالأمة الإسلامية فى تلك الفترة عامة والدولة الخوارزمية ممثلة فى جلال الدين خاصة كانت فى أمس الحاجة إلى نبذ الخلافات والأطماع الشخصية وتحديد الخطر الحقيقى المهدق بالجميع ومن ثم تكثيف الجهود وتسخيرها ضد أعداء الأمة الإسلامية.

تقول الروايات التاريخية بان جلال الدين لم يلتفت إلى ما قام به أخوه غياث الدين من مفارقة فى ساعة العسرة، بل إنشغل بأمر التتار الذين وقفوا أمامه فى اطلاب متفرقة ومتراصة، وكان عسكر جلال الدين أضعاف عسكر التتار لذلك أمر رجال اصفهان بالعودة إلى مدينتهم إعجاباً بكثرة قواته واستحقاقاً لقوات التتار. (٣)

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٤، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٥

الذهبي، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ١٩، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٤، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ص ٧١، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٥٧،

الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٣٨، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٤-٢٣٥، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣٠، الديار

بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١.

تقدمت عساكر جلال الدين وتباعدت الميمنة عن الميسرة بحيث لم تعرف الواحدة منها حال الاخرى " فالتقوا على حرب اشابت الذوايب وأنارت الكواكب " فحملت ميمنة السلطان على ميسرة التار فانزلت بهم هزيمة ساحقة ولاذ بعضهم بالفرار فتبعوهم إلى تخوم قاشان ولم تكن ميسرة السلطان بأقل حظاً من اختها فقد فعلت وانزلت بأسها، بالقوم الظالمين^(١)، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى المساء، وفرح السلطان جلال الدين بانتصاره على التار فما كان منه إلا أن، ترجل وسجد شكراً لله تعالى^(٢)، ثم نزل على حافة جرف كان في المعركة قاطع بينة وبين العدو، ولشدة الفرحة وحلاوة النصر لدى الخوارزمية أشاد به أحد امرائه وقال له "قد تمنينا دهرأ أن نرزق مثل هذا اليوم الأبيض في هؤلاء الملاحين، نذهب فيه غيظ قلوبنا، ونطفئ، حر صدورنا فلما سمح الدهر بالمأمول وجاء الزمان باسعاف السول نجلى عطاش أماننا عن الماء ويزاد عن مشربها العذب ببلايلها ظماء"^(٣)، ولم يزل هذا الأمير يمينه ويحفزه على اللحاق بفلول التار للقضاء عليهم، فركب من ساعته يتبعهم وعبر النهر، وعندما شاهد التار السواد الأعظم خرج جماعة من شجعانهم وكمنوا لهم خلف تل قريب منهم وكان ذلك غروب الشمس، ولما أقتربوا منهم خرجوا على السلطان يداً وأحدة، فحملوا على ميسرة السلطان وفتكوا بهم ولم يبق بها سوى ثلاثة اشخاص ثم حملوا على القلب فشتوا شملهم واشتبك الفريقان بعضهم في بعض، وثبت جلال الدين في القلب مع أربعة عشر نفر من خواص مماليكه، ثم أحاطت به التار من كل جانب وتحول النصر السابق إلى هزيمة نكراء، فلاذ بالفرار من بين الصفوف وتفرقت جيوشه في البلدان

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٥-٢٣٦، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٥٧، ابن

العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٣، الديار بكري، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١.

(٢) ابن ايلى الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٥.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦، ابن ايلى الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٨٥.

فمنهم من ذهب إلى فارس ومنهم من وصل إلى كرمان ومنهم من قصد أذربيجان ومنهم من عجز عن المسير فدخل إلى اصفهان.^(١)

أما ميمنة السلطان فقد عادت ظافرة منصوره تظن أن النصر قد تحقق للجميع فلما علمت بما حل ببقية الجيش أصابهم الخور والخوف ففرقوا وساحوا في البلدان، ولا يفوتنا أن التار أنفسهم رغم ما فعلوه بعسكر جلال الدين إلا أنهم انهزموا كذلك فكانت هذه من الوقعات التي لم يسمع بمثلها لإنهزام الفريقين^(٢)، واختلفت الرويات التاريخية في تحديد تاريخ هذه الواقعة فنجد أن اليافعي ورشيد الدين يذكran أنها جرت في عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م^(٣)، بينما نجد النسوي يذكر أنها وقعت في الثاني والعشرين من شهر رمضان عام ٦٢٥هـ، ٢٥ أغسطس ١٢٢٨م.^(٤)

أما جلال الدين فقد بلغت به الهزيمة إلى خوزستان، فنزل في أحد الوديان هناك وتوافد عليه بعض فلول جيشه، ولم يعلم به أهل اصفهان وعامة جيشه، فقد زعم البعض أنه قتل وزعم البعض أنه اسر واضطربت الأمور عند بقية اتباعه، هل هو حي ينتظرون عودته أم غير ذلك فيجهزون أنفسهم لإختيار خليفة له يتولى زمام الأمور، وهنا بدأت الأطماع تظهر من قبل عامة أهل اصفهان حيث همسوا بالإعتداء على عورات النساء الخوارزمية وأموالهن، لولا تدخل القاضي الذي طلب منهم عدم

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ١٣٨، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٥ الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ١٩، العبر، ج ٣، ص ١٩٢، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣٠، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٣.

(٢) النسوي، المصدر السابق، ص ٢٣٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٣٩، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٥٧، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٠.

(٣) اليافعي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٧، الهمذاني، جامع التواريخ، ج ١، ص ٣٩٦.

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

التعجل في ذلك حتى يتبين أمر السلطان.^(١)

ولنا أن نتساءل لماذا هم أهل اصفهان بالاعتداء على عورات النساء الخوارزمية وأموالهم؟ لعل قائل يقول بسبب معاملة جلال الدين لهم، فلو سلمنا جدلاً بهذه الاحتمالات أيجب لأهل اصفهان أن يفعلوا ذلك أم كان الاجدر بهم أن يتبعوا فلول التار ويقضوا على البقية الباقية منهم، لأن العدو مشترك وهو لن يميز بينهم عندما يعاود اعتداءاته على الأقاليم الإسلامية.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان جلال الدين خرج إليهم بعد ثمانية أيام وصلى معهم صلاة العيد قابلت إليه جموع عساكره المتفرقة، وكافأ أمراء ميمته بجزييل الرواتب والمراتب ولكي يثبت السلطان قوته أمام أعدائه سار بقواته ناحية الري ليلقى الرعب في قلوب التار ويزيدهم نفوراً، كما جرد سراياه إلى أراضي خراسان لتتبع شتات المغول.^(٢)

ولقد أورد ابن الأثير وابن واصل صورة أخرى لوقائع هذه المعركة تختلف إلى حد كبير عن الصورة السابقة فهم أولاً يذكران أن الحرب بين جلال الدين والتر تعددت حتى اختلف الناس في عددها، وكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً مرة ينتصرون عليه ومرة ينتصر عليهم، وثانياً أن جلال الدين عندما تقابل مع التتر في المعركة السابقة لم يقتل معهم بل انه عندما انسحب اخوه غياث الدين مع مجموعة من عسكر جلال الدين، ظن التتر أنهم يريدون أن يأتوا من ورائهم فيقعوا فريسة بين عسكر الخوارزميين فانهزموا لهذا الظن. أما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقة أخيه له مع مجموعة من الأمراء ورأى تراجع التتر ظن أن ذلك خدعة من قبلهم ليستدرجوه فيوقعوا به فولى منهزماً، وهذه من أغرب الوقائع إذ انهزم

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٧، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٧١-٧٢، ابن

ايك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٦.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الفريقان من غير أن يقتتلا.^(١)

كما أن جلال الدين لم يجرؤ على دخول اصفهان خوفاً من حصار التتر له، فمضى إلى سميرم^(٢) وتوقف التتر في الطريق إذ لم يروا أحداً يلحق بهم فعادوا إلى اصفهان وضربوا الحصار حولها، وظن أهلها أن جلال الدين قد قضى عليه، فبينما هم كذلك إذ ورد إليهم رسول جلال الدين يخبرهم بسلامته ويقول لهم: "لابد أن يجتمع لدى من تفرق من العساكر واقصدكم واتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وترحيلهم عنكم".^(٣)

ولصعوبة موقفهم أرسلوا إليه على عجل يستدعونه إليهم ويعدونه النصر والخروج إلى التتر لإنزال الهزيمة بهم، فسار إليهم واجتمع بأهل اصفهان ثم خرجوا جميعاً لملاقاة التتر وماهى إلا لحظات حتى انهزم التتر أقبح هزيمة، وسار جلال الدين خلفهم إلى الري يقتل ويأسر.^(٤)

وعلى أية حال فإن هذه الحملات المغولية لم تكن منظمة ومعدة من قبل دولة المغول ومما يدل على ذلك أن جلال الدين عندما توقف في الري جاء إليه رسول الخان وهو ابن جنكيزخان يقول له "إن هؤلاء ليسوا من اصحابنا وإنما نحن

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٣٢.

(٢) سميرم: بلدة تقع في منتصف المسافة بين اصفهان وشيراز. انظر ياقوت، معجم البلدان، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤١١.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٢-٢٣٣، النجاشي، المختار من تاريخ الجزري، ص ١٤٢، النجاشي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٣، ص ٢٤-٢٥.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٦، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤١، الاصفهاني البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٥هـ.

ابعدناهم عنا" ^(١) كما أن هذه الجيوش رغم ماتحقق لها من إنتصارات فإنهم لم يفعلوا كما يقول الجويني أكثر من الإقتراب من أبواب اصفهان ثم عادوا مسرعين إلى ديارهم في ما وراء النهر بعد أن فقدوا معظم جيوشهم. ^(٢)

عاد جلال الدين بعد ذلك إلى بلاد أذربيجان وكان اخوه غياث الدين عندما فارقه اتجه إلى خوزستان طالباً الحماية من الخليفة العباسي المستنصر بالله فلم يمكنه النائب على خوزستان من الدخول خشية أن يكون ذلك مكيدة للإستيلاء على خوزستان فردوه عن المدينة رداً جميلاً ولما بلغه عودة التار وانتصار أخيه سارع بالذهاب إلى الإسماعيلية في الموت واستجار بزعيمهم علاء الدين. ^(٣)

سمع جلال الدين وهو في تبريز بنزول أخيه على الإسماعيلية فاعد العدة وسار بقواته إلى الموت عازماً على خراب بلادهم ونهبها إن لم يسلموا إليه أخاه وأرسل إلى زعيم الإسماعيلية في طلب أخيه، فورد عليه الجواب بقولهم "إن اخاك قد قصدنا وهو سلطان وابن سلطان ولايجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيئاً من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ماتكره في بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل ماتختار" ^(٤) فلما سمع جوابهم أثر إجابتهم على طلبهم خاصة وأنه لايزال منهكاً بعد عودته

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٢.

(٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٧٢.

(٣) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٥-٣٧٦، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٤١، الذهبي، المختار من تاريخ الجزري، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤) النسوي، المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٥-٣٧٦، ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ١٦٢.

من قتال التتر واستحلف على الوفاء بعهدهم ثم كر راجعاً إلى بلاده^(١)، وهكذا فقد لعب غياث الدين دوراً كبيراً في إضعاف قوة أخيه بتحالفه مع القوى المعادية له في ذلك الوقت، لما يحمله في قلبه من حقد وضيغنة لأخيه الذي استحوذ على كل ما بيده من ممتلكات.

حاولت طائفة الإسماعيلية أن تلعب دوراً خطيراً مع جلال الدين بتغيير أساليبها السابقة، فقد أرسل زعيمهم علاء الدين تسعة من الفدائية إلى جلال الدين مظهراً أنه يريد تقوية الصلات بين الطرفين، على أن يعدهم ويسيرهم إلى من شاء من أعدائه فيقتلونهم ولم يشأ السلطان أن يتسرع في ذلك فاستشار في ذلك وجوه أصحابه وذوي الرأي فأشار أكثرهم باستغلال هذه الفرصة للقضاء على أبرز خصومه في تلك الفترة، إلا أن نائبه على العراق العجمي شرف الدين لم يستحسن ذلك، وبين لجلال الدين مراد زعيم الإسماعيلية من ذلك إنما هو الإطلاع على قوة السلطان وتحركاته واستعداداته ليطلع الأعداء على آخر أخبار السلطان فيعدو العدة من أجل القضاء عليه.^(٢)

عندئذ تفطن جلال الدين لخبثهم، فأعاد الفدائية إلى زعيمهم وقال له "ليس يخفى عليك وعلى غيرك معاندنا ومعاهدنا، ومخالفنا، فإن شئت أن تفعل ذلك فافعل، ولا حاجة إلى التعيين، ونحن إن شاء الله مانحوك إلى هذه الكلفة وإن في الصوارم الماضية والقسائم الضاربة الغنية عن السكاكين والفدائية".^(٣)

ولم يتوقف خطر الإسماعيلية عند هذا الحد، بل أنهم أصبحوا يتبعون أخبار جلال الدين وتحركاته وقوته وضعفه حتى إذا سنحت لهم الفرصة فعلوا كل ما في

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٤٣، ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٥-٣٧٦، الذهبي،

المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٤٣.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

وسعهم وإستطاعتهم من أجل القضاء عليه، وليس أدل على ذلك من أنه حينما هزم جلال الدين على يد قوات الحلفاء الأيوبيين والسلاجقة وغيرهم أرسل زعيم الإسماعيلية إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنهم حثوهم على سرعة القدوم لإستغلال الفرصة السانحة عقب الضعف الذى حل بجلال الدين، إضافة إلى أنهم ضمنوا للتتر النصر على جلال الدين للوهن الذى صار إليه.^(١)

على أن المغول لم يكونوا فى حاجة إلى تذكير من طائفة الإسماعيلية ولا غيرها بضرورة القضاء على جلال الدين فهم أولاً: شغلوا بأحداثهم الداخلية عقب وفاة جنكيز خان ولما استقرت الأمور وتم تنصيب خان جديد لهم كان لابد لهم من مواصلة سياستهم السابقة الرامية إلى توسيع امبراطوريتهم وسيطرتهم على أغلب ممالك الأرض، وثانياً ثبت بالدليل القاطع أن المغول رغم إنشغالهم بأحداثهم الداخلية إلا أنهم على علم بما صار إليه جلال الدين^(٢)، وقد ذكر النسوى أن سلطانه خان أكبر بنات السلطان محمد والتي تم أسرها على يد التتار اثناء زحفهم الأول على أملاك الدولة الخوارزمية وتم زواجها من ابن جنكيزخان، كانت تعرف أخاها بأحوال التتار وأخبارهم وما يستجد لهم.^(٣)

ومن ذلك أنها سirt إليه وهو محاصر لخلط خاتم من خواتم والدهما فيه فص منقوش عليه اسم السلطان محمد علامة منها لجلال الدين، فعرف أخاها "أن الخاقان بلغه أخبار شوكتك وسكتك، وإتساع باعك وبسطه رباعك، فعزم على مصاهرتك والمهادنة معك على أن يشاطر الملك على نهر جيحون، فيكون لك

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣١٥-٣١٦،

البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٨هـ، السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٤١.

(٢) عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٦٢.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٠٠-٣٠١.

مادونه وله ماوراءه، فان كنت تجد من قوتك مايقاومهم فتتقم، وقاتلهم فتظفر،
فشانك وماأردت، وإلا فاغتم المسالمة حال رغبتهم فيها.^(١)

لم يلتفت جلال الدين إلى ماجاء فى الرسالة وتشاغل عنها بالإستيلاء على
خلاط، ولم يعر الأمر أي اهتمام، فلم يرد على رسالتها تلك، ولم يبد رغبة فى
مصالحة المغول، وقد علق النسوى على ذلك بقول الشاعر: -

كتاركة بيضها بالعراء وملبسه بيض اخرى جناحا.^(٢)

وهذه الرواية - حتى وإن صحت وعلمت بها أخت جلال الدين فإن التار
إنما كانوا يناورن جلال الدين بتلك المعاهدة وكان مقصدهم الاساسى استمرار
زحفهم والقضاء على الممالك فى طريقهم وعلى اية حال فإن التبر بعد أن استقرت
لهم الأمور اعدوا العدة لمواصلة برنامجهم التوسعى، ففى بداية عام ٦٢٨هـ /
١٢٣١م خرجت جموع التار وعبرت بلاد ماوراء النهر قاصدة ملاحقة جلال
الدين والقضاء عليه، وكان قائد هذا الجيش من أمهر قواد المغول وهو (جرماغون
نويان) الذى قاد جيشاً يزيد تعدادده عن ٥٠,٠٠٠ جندي، بل زاد تعدادهم فيما بعد
حتى وصل إلى مايقرب من مائة ألف جندي.^(٣)

سارت هذه القوات المغولية باتجاه إيران، فاستولت فى طريقها على الرى
وهمذان ومايينها من البلاد^(٤)، وما أن سمع جلال الدين بذلك حتى سارع بإرسال
فرقة استطلاعية بقيادة أحد قواده ليطلعه على أخبار المغول، فلما وصل إلى شروان

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٤، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٥-٨٦، الصياد،
المغول فى التاريخ، ص ١٧١.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣١٨، عفاف
صيرة، التاريخ السياسى، للدولة الخوارزمية، ص ٢٦٢.

صادفه يزكاً للتار ولم يكن معه من اصحابه إلا أربعة عشر نفساً، فوقعوا لقمة سائغة للتار، ولم ينج منهم غيره، وعند عودته أخبر جلال الدين بان المغول على مقربة منه وانهم مجدون السير للحاق به.^(١)

لم يصدق جلال الدين هذا الخبر المزعج، إذا اعتقد أن التار يشتون بالعراق ولن يتعدوا أذربيجان إلا في فصل الربيع ففوجيء بذلك في هذه الفترة الحرجة عقب هزيمته من قبل قوات الحلفاء الأيوبيين والسلاجقة وغيرهم وتشتت قواته في البلدان، لذلك رحل من تبريز إلى موقان لتجميع عساكره المشتية بها.^(٢)

وبلغ الخوف والهلع بجلال الدين مبلغه حتى صرفه عن النظر في أمر حرمه وأعزته، فتركهم في تبريز معتقداً أن يومه ذلك سوف يكون آخر عهده بأهله وأعزته، بل أنه كما يقول النسوي "كانت تنحدر الدموع من عينيه على خديه لما يتوهمه من زوال ملكه ويتوقعه من هلكه، ولمفارقة الأهل والأعزة على بأس من الاجتماع وتركه إياهم بالعراء معرضة للإعداء".^(٣)

نزل جلال الدين وهو في طريقة إلى موقان^(٤) في قرية أرمينان، حيث ورد عليه كتاب من والي قلعة بلك^(٥)، يخبره بان التار قد أقاموا بمرج زنجان وان عددهم لا يتجاوز سبعمائة فارس، فسر جلال الدين بذلك وزال مابه من هم وخوف، إذ توقع

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٠.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ٣٥٠-٣٥١، انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣،

السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٤١.

(٤) موقان: ولاية بأذربيجان فيها قرى ومروج كثيرة. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) بلك: قلعة بالقرب من مدينتي خلخال وزنجان. انظر النسوي، المصدر

السابق، ص ٢٧٧، حاشية ٥.

أن هذه الطائفة من التتر سوف تملك زنجان^(١) وتقيم بها ولن تطارده بهذه القلة من العدد^(٢).

واصل جلال الدين مسيره حتى بلغ موقان، فوجد عساكره متفرقة في الأطراف فبعث البلهوانية بعلامات تحت عساكره على الاستتار والتجمع استعداداً لملاقات التتار، ثم اشتغل جلال الدين في هذه الفترة بالصيد ريثما تحضر إليه قواته، وكان إذ ذاك في قلة من العساكر إذ لم يكن معه سوى ألف فارس من خواصه، وبينما هو كذلك باغته التتار بموقان، فلاذ بالفرار أمامهم وتوجه إلى نهر أرس في حركة تمويه على التتار بحيث يظنوا أنه ذاهب إلى كنجه، ولكنه حول مساره إلى أذربيجان وأقام بماهان^(٣) لقضاء فصل الشتاء بها^(٤).

ومن حسن حظ جلال الدين أن صاحب قلعة شاهق^(٥) والذي كان مجاهراً له بالعصيان عليه، خدمه في هذه الفترة أحسن خدمة، فكان يخبره عن تحركات التتار وبعث إليه بما يحتاجه من المأكولات وغيرها، فرضى عنه جلال الدين ورغب في مكافأته على ما قدم له من معروف^(٦).

وما إن إنقضى فصل الشتاء حتى علم بأن التتار قد كشفوا مكانه وانهم خرجوا من أوجان لقصده فأشار عليه صاحب قلعة شاهق بالتوجه إلى أران لحصانتها وكثرة العساكر الموجودة فيها، ويكون الطريق فيما بعد مفتوحاً أمامه للتوجه إلى بلاد

(١) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينهما. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٥١.

(٣) ذكر ياقوت أن هناك مدينة بهذا الاسم في إقليم كرمان. انظر معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥١، ٣٥٦.

(٥) قلعة شاهق: تقع في جزيرة وسط بحيرة أذربيجان. انظر النسوى، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٦) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥٦.

الهند عند حصار التار له.^(١)

وقبل ذلك يجب أن نوضح سبب الضعف الذى لحق بجلال الدين فى هذه الفترة التى عاود المغول فيها غزو أراضي الدولة الخوارزمية فيعلل ابن الاثير ذلك بسوء سياسة جلال الدين التى سار عليها منذ عودته من بلاد الهند إذ بدلاً من أن يعمل على توحيد الصف الإسلامى واكتساب رضاء جيرانه ليقفوا معه فى وجه المغول وبدلاً من أن يعمل على كسب محبة رعيتة حتى يضمن ولاء الأهالى إذا ماظهر الخطر المغولى بدلاً من ذلك نرى سياسته تؤلب عليه جيرانه، إذ اعتدى على املاك الخليفة واملاك الأمراء المسلمين فى بلاد ما بين النهرين فعادى الملك الأشرف وعادى علاء الدين صاحب بلاد الروم كما أنه غزا أذربيجان وجورجيا وهزم الكرج وناصب طائفة الإسماعيلية العداء، ولم يترك له أصحابا وأعوانا سوى المعظم عيسى الذى توفى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وصاحب إربل الذى لم يكن من القوة بمكان حتى يقف مع جلال الدين فى وجه المغول^(٢)، وبما أن جلال الدين قد ظهر فى صورة الحاكم المستبد فى دولته، فإن هذه السياسة قد أدت إلى أن ينفر منه كبار رجال دولته من حوله، وعلى رأسهم وزيره المخلص شرف الملك الذى خرج عليه لأسباب منها:

١ - التبذير والإسراف الزائد فى أموال الدولة.^(٣)

٢ - أنه ظهر من قلة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله، إذا كان له غلامٌ يهواه واسمه قلع فمات ذلك الغلام فظهر من الجزع والهلع ما لم يسمع بمثله إلا لمجنون ليلى، وكان يأخذه معه أينما ذهب حتى أنه امتنع عن الأكل والشرب حزناً على ذلك الغلام، بل أنه كان يعاقب كل من يتفوه بوفاة الغلام فغاظ ذلك أمراءه

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ٣٥٧، ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٣.

وكبار رجال دولته ففارقوه من أجل ذلك.^(١) وفي رأيي أن هذه الرواية التاريخية من وضع أعداء هذا القائد الذي أدمى قلوب الكثيرين فرجل كجلال الدين لا يملك وقتاً لمثل ذلك فلم يكن يوماً ينعم بفترة هدوء وراحة وإنما كان في معظم حياته شاك السلاح مدافعاً عن مملكته.

٣ - أنه ظن أن هذه الحملة التي قام بها التتر سوف تلاحق السلطان حتى تضطره إلى الذهاب إلى بلاد الهند فرأى مكاتبه الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران وأذربيجان لنفسه.^(٢)

٤ - أما السبب الحقيقي لضع جلال الدين هو أنه ينتمى في أصله إلى أحد ممالك السلاجقة. ولم يكن من أسرة السلاجقة.

وعندئذ حاول جلال الدين تجميع القوى الإسلامية الموجودة في تلك الفترة لتقف معه صفاً واحداً في مواجهة الخطر الذي أصبح يهدد جميع الممالك الإسلامية، فأرسل رسله إلى كل من الخليفة وسلاطين الشام والروم يخبرهم بوصول المغول ويقول لهم "إن التار كثرة هائلة وهم في هذه الفترة أكثر من كل مرة، وجنود هذه النواحي مستوحشون منهم وإذا لم تمدوني بالعدد والعدة فإنني أنا الذي بمثابة السد لكم سوف أهزم ويخلوا مكاني من بينكم ولن تستطيعوا مقاومتهم، فليبادر كل منكم بامدادى بفوج من الجنود ومعهم علمهم، وذلك من أجل الدفاع عن نفسه وأولاده والمسلمين حتى إذا بلغهم نبأ اتفاقنا واتحادنا، ارتدعوا وانزعجوا، وعندئذ تقوى عزائم جنودنا، أما إذا تهاونتم في هذا الأمر فسترون بانفسكم ماتتول إليه الأمور".^(٣)

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣-٣٨٤، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٤٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٨.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٧، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٥.

(٣) الهمذاني، المصدر السابق، ص ٤٤، ابن العبري، مختصر الدول، ص ٤٣٠-٤٣١.

لم تجد صيحات جلال الدين ولاندايته في جمع الكلمة وتوحيد الصف أمام العدو المتكررة ويعلق الجويني على ذلك بقوله "هيهات هيهات لشجيرة الخلاف التي نبتت في الصدر وسقيت من ماء القلوب أن تثمر غير الشوك وجراح الزمان، وهل ينجح الاعتذار والإستغفار بعد إثارة النار وطعن الرجال وقتلهم".^(١)

ونؤيد في هذا المقام ما ذهب إليه الجويني فجلال الدين لم يترك أحداً من ملوك الإسلام إلا وعاداه وعلى رأسهم الخليفة العباسي فهل يعقل بعدما أحدثه في بلادهم من القتل والنهب والتدمير أن يمدوا له يد العون ومن الذي يضمن لهم عدم عودته مرة أخرى إلى بلادهم بعدما يقدموا له يد المساعدة وينتصر على المغول.

ومما زاد الأمر سوءاً أنه في ظل هذه الظروف الحرجة تخرج لنا بعض الحركات المناوئة للخوارزميين، ومن ذلك خروج أهل تبريز على شمس الدين الطغرائي الوالي الخوارزمي لسوء معاملته لهم "فهمت عامة تبريز بقتل من بها من اتباع الخوارزمية تقريباً إلى التار، وتشفياً من الاحقاد والأوتار" وواطأهم على ذلك مجموعة من الوزراء إلا أن الطغرائي تمكن من إخماد ثورتهم، وحصن المدينة وزودها بمن يحفظها من حفظة الرجال.^(٢)

وتبعهم في ذلك أهل كنجة فقد اظهروا العصيان وقتلوا من وجدوه بها من الخوارزمية وحملوا رؤوسهم إلى التار، ولم يشأ جلال الدين أن يصطدم معهم لأن الوقت غير مناسب فسير إليهم مجموعة من رجاله وأمرهم أن يستميلوا أهل كنجة، وبنوا لهم خطورة الأمر لأن ذلك سيؤدي إلى وقوعهم في قبضة التار، إلا أنهم "كانت الموعظة إذا القيت عليهم جعلوا اصابعهم في اذانهم، واستغشوا ثيابهم واصبروا واستكبروا استكباراً".^(٣)

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٦.

(٢) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٦٩.

لذلك توجه إليهم جلال الدين وأقام بالقرب من كنجة وترددت الرسل بين الطرفين وبذل لهم جلال الدين الأمان ووعدهم بالعفو والإحسان ولكنهم أصروا على غيهم وعنادهم، بل أنهم خرجوا إلى مقاتلة السلطان ورموا خيمته بعدة سهام، فما كان منه إلا أن حمل عليهم حملة واحدة ثم دخل المدينة وأمر باحضار كل من سعى في إثارة الفتنة فقتلوا جميعاً.^(١)

مكث جلال الدين بعد ذلك بكنجة سبعة عشر يوماً يفكر في كيفية القضاء على جموع المغول فقرر أخيراً بعد نقاش طويل مع قواده ان يستنجد بالملك الأشرف موسى مع عدم رغبته في ذلك وإنما فعل ذلك موافقة لقواده، وتسابعت الرسل إلى الملك الأشرف تحثه على توحيد الصفوف للوقوف في وجه الخطر الداهم إلا أن الأشرف تلكأ" وهيئات أن الضغينة إذا تمكنت من القلوب تلبث وربما تورث وإن المستعين على العدو بذي ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار".^(٢)

لم يرد الأشرف ان يقدم أى معونة لجلال الدين رغم ماوقع بينهم من صلح فيما سبق وحتى لا يخرج أمام رسل جلال الدين توجه إلى مصر زاعماً أنه سيأتي بعساكره من مصر لنجدتهم وأخذ جلال الدين يتنقل بين المدن حتى وصلت إليه رسالة من أكبر رسله الموجهين إلى الملك الأشرف يؤكد له إنقطاع الأمل في وصول نجدة من قبل الأشرف "وأنه لا يرجع من مصر إلا بعد انفصال أمر السلطان مع التار على إحدى الحالين".^(٣)

لم يهتم جلال الدين بنجدة الملك الأشرف فأرسل إلى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل يطلب منه ومن صاحبي آمد وماردين النجدة، ووعدته بأنه إذا

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧١، وانظر الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٦.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧١.

انتصر على التار فإنه سوف يملكه خلاط ومايرغب فيه من البلاد^(١)، كما حاول جلال الدين أيضاً الاستجداد بالخليفة العباسي إلا أنه لم يتمكن من ذلك^(٢)، ومما يؤسف له أن جلال الدين سير في هذه الفترة مايقرب من ستة آلاف فارس أغاروا على خرتبرت وارزبخان وملطية كل ذلك نكاية بعلاء الدين كيقباز صاحب بلاد الروم مما أدى إلى تخوف مظفر الدين من أن يصيبه مثل ذلك، إضافة إلى أنه تحجج بحجج أخرى واهية منها أنه لا يستطيع أن يتصرف بدون الرجوع إلى إخوته وأنه ليس له قدرة عسكرية تمكنه من تقديم يد العون والمساعدة للسلطان ثم بين للرسل بأنه ليس له سلطة على صاحبي أمد وماردين وماعلى جلال الدين إلا أن يرسل إليهما ويختبرهما ليرى مدى صدقهما في انجاده على التار.^(٣)

سمع النسوي أثناء سفارته للملك المظفر بملاحقة التار لجلال الدين للقضاء عليه فرغب في الإقامة عند المظفر بعد أن عرض عليه ذلك محبة في السلطان وحذر المظفر من عاقبة أمرهم نتيجة تخاذلهم وتقاعسهم عن مساعدة جلال الدين إذ أنهم سيصبحون على خطر عظيم من جانب التار أو جلال الدين إذا تمكن من الانتصار عليهم.^(٤)

وعلى أية حال فإن التار أخذوا يلاحقون جلال الدين من مكان إلى آخر إذ أن خروجهم هذه المرة يختلف عنه في المرات السابقة، فقد كانت خطتهم تهدف إلى القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ومن ثم يتحقق لهم ما يصبون إليه من إكتساح بلدان العالم الإسلامي.^(٥)

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢١، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٤٧.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧٥.

(٥) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢٣-٢٢٤.

انتقل جلال الدين بقوته إلى جبل جور، ولما دخلها وصل إليه الخبر بملاحقة المغول له، وقد نصحه أمير من أمراء التار، وكان قد تدمر منهم للذنب صدر منه بأن يترك طريقته السابقة في الحروب لتفرق جنده وقتلهم، وأشار عليه بأن يكمن لهم حتى إذا وقفوا للراحة واشتغلوا بالأكل "يدير عليهم كاسات الحمام بأيدي الانتقام"^(١). ويبدو أن جلال الدين لم يستمع لنصحه وكأنه قد فقد القدرة على التفكير ويسير مسرعاً إلى حتفه.

اتجه جلال الدين بعد ذلك إلى ديار بكر، فعاد جيش المغول بعد أن أعياه الطلب إلى قائدهم جور ماغون فعنفهم ولامهم على صنيعهم وقال لهم: "كيف تهملون خصماً يتوارى وقد بلغ به الضعف مبلغه ولا تلاحقونه؟". فما كان منه إلا أن سارع بإعداد قواته وجعل على رأسهم (نايماس) ومعه بعض فرسان التار الشجعان وسيرهم على الفور لملاحقة جلال الدين والقضاء عليه^(٢)، وعند رجوع التار إلى قائدهم العام أعد جلال الدين يزكاً من أربعة آلاف فارس بقيادة أحد أمرائه^(٣)، ليطلعوه على أخبار التار وتحركاتهم، سار هذا الأمير في اثر التار يتبع أخبارهم إلا أنه لم يواصل مهمته خوفاً من أن يقع في أيدي التار فرجع إلى جلال الدين، وأخبره كذباً بأن التار قد رجعوا من حدود منازجرد^(٤).

صدق جلال الدين خبر هذا الأمير رغم أن النسوى تعجب من ذلك وأخبر

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٨، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٥ سبط ابن الجوزى،

مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٦، ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١.

(٣) اسم هذا الأمير عند النسوى أوترخان واورخان أما الهمذاني فيسميه بوقاخان واورخان وهو

من اقرباء جلال الدين يذكر عنه النسوى أنه غير مخلص فى خدمته لجلال الدين، النسوى،

المصدر السابق، ص ٣٧٥، الهمذاني، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٥، الهمذاني، المصدر السابق، ص ٤٦.

(١٣٨)

السلطان بأن المغول ماخرجوا من ديارهم إلا رغبة في القضاء على الدولة الخوارزمية ورد جلال الدين على تعجب النسوى بقوله: إن المغول "حين علموا بتوسطنا بلاد الشامية واعتقدوا اتفاقهم معنا وانضواءهم إلينا رجعوا".^(١)

نزل جلال الدين في بلدة حاني^(٢) وجمع كبار رجال دولته، واستحضر النسوى وأمره بأن يخبرهم بموقف الحكام المسلمين، فيبين لهم تقاعسهم وعدم رغبتهم في مشاركة جلال الدين في دفع التار عن البلدان الإسلامية "وأنهم يضربون في حديد بارد فما من منجد ولا مساعد".^(٣)

عندئذ فكر جلال الدين وكبار رجال دولته بضرورة التوجه إلى اصفهان^(٤) على أن يتركوا ائقاليهم ونسائهم وأولادهم بديار بكر، لأن مدينة اصفهان مشهورة بتحصيناتها القوية وبفرسانها الشجعان ولقائلها الحسن في النصر على المغول كما حدث في سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م عندما تمكنوا من طرد المغول وإلحاق الهزيمة بهم.^(٥)

ولما هم جلال الدين بالرحيل، وصل إليه رسول صاحب آمد يعرض المساعدة العسكرية له ويقدم له فروض الطاعة، بشرط أن يتوجه جلال الدين بقواته صوب سلطنة بلاد الروم للإستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم، ويبين أنهم في حالة ضعف وأن في استطاعته أن يستحوذ على هذه المملكة بدون مشقة تذكر وأنه متى ماتم له ذلك فسوف يكون في منعة وقوة بحيث تهابه التار.^(٦)

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٦.

(٢) حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٤) اصفهان: تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من اقليم الجبال، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٦) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٠.

كان الدافع لهذا العمل الذى أقدم عليه صاحب آمد هو الحق الذى يحمله على صاحب الروم الذى استولى على عدة قلاع كانت تابعة له^(١)، وفى الحقيقة أن هذا العمل يعد من المضحكات المبكيات فكيف يقدم صاحب آمد على سحب جلال الدين من أجل خلافات مقيمة فى الوقت الذى كانت فيه جموع التتار تلاحق جلال الدين من مكان إلى مكان آخر للقضاء عليه ومن ثم السيطرة على بقية بلدان المسلمين، أما كان الأجدر به أن يعد قواته ويسير بها إلى جلال الدين أو يرسل بها أحد قواده للوقوف فى وجه الخطر المغولى، أو على الأقل إرسال الرسل إلى حكام المسلمين فى ذلك الوقت لتوضيح خطورة الأمر وحثهم على جمع الكلمة وإعداد الجيوش وتسييرها إلى جلال الدين ليتمكن من إيقاف هجمة المغول فى العالم الإسلامى.

ومما زاد الأمر سوءاً هو أن جلال الدين الذى سارت جيوش المغول من بلادها من أجل تبعة والقضاء عليه إستحسن عرض صاحب آمد وعدل عما قرره مع رجال دولته من المسير إلى أصفهان، فتوجه إلى آمد ونزل بجسر بقربها، ويعلق النسوى على عمل جلال الدين بقوله "مثله مثل الغريق يتعلق بما تصل إليه يده وقد قعر عن السباحة وكره"^(٢).

وتختلف رواية ابن الاثير وابن واصل فى هذا الموقف عن رواية النسوى فيذكران أن جلال الدين لما رأى ما فعله التتار ببلاد أذربيجان من قتل ونهب وتخريب وإبادة وأنهم عازمون على اللحاق به، خشى من سوء العاقبة لما رآه على نفسه وجيشه من الوهن والضعف، ففارق أذربيجان واتجه إلى خلاط ليحتمى بها من وحشية المغول، ولمعرفته بموقف أهل خلاط منه أرسل إلى النائب عن الملك الأشرف يقول له "ماجئنا للحرب ولا للأذى إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٧.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧، انظر ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٠.

بلادكم" ^(١) إلا أنه لم يرد أن يبقى في خلاط حتى ينتهى أمر المغول وإنما كان عازماً على الذهاب إلى ديار بكر والجزيرة ثم الذهاب إلى الخليفة العباسى لشرح له حقيقة الموقف فينصره على هؤلاء الغزاة، كذلك كان من مخططة الذهاب إلى ملوك الإسلام لطلب النصرة منهم وتحذيرهم من التقاعس فى ذلك لأن الدائرة سوف تدور عليهم إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه لأنه ما أن وصل إلى خلاط حتى علم بتعقب المغول له وأنهم مجدون فى طلبه، فتركها مباشرة واتجه صوب آمد التى كان يحكمها الملك المسعود بن الصالح. محمود بن محمد الارتقى فنزل بالقرب منها. ^(٢)

وكيفما كان الأمر فإن جلال الدين توجه إلى آمد، وجعل له يزكاً فى عدة مواضع على الطريق إلى آمد حتى لا يباغته العدو على حين غرة من أمره. ^(٣)
سبق وأن أشرنا إلى أن جلال الدين أرسل يزكاً بقيادة أحد أمرائه ليطلععه على أخبار التتار، فلما رجع هذا الأمير أخبر السلطان من غير تثبت برجوع التتار، وبدافع الفرح والاستبشار بهذا الخبر، إنشغل جلال الدين وكبار رجال دولته بل وغالب جنده بالأنس واللهو والطرب ^(٤)، بدل من أن ينشغلوا على افتراض صحة هذا الخبر بشكر الله وإعداد العدة لخروجهم مرة أخرى، ولكنهم وللأسف الشديد

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢٠، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٨هـ.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٤، الاصفهاني، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢١.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٧، ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢١.

(٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٨، الهمداني، جامع التواريخ، ص ٤٦، ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١.

"أبدوا إستعداداً لضرب الدف والوتر وليس للضرب فى الوغى" ويعلق الجوينى على هذا الأمر بوصفه لحالة جلال الدين فى السابق وماآل إليه أمره فى آخر حياته فيقول "هذا هو الملك الذى جعل الصهوة عرشه، والسرج فراشه، والدرع قميصه، هو الذى كان قائداً لأبكار المعارك والقتال فغدا بطل الأبكار ربات الحجال، وخالف ماعهد عنه فبدل الطرب بالحرب، والمدمام بجراح الايام".^(١)

وبينما هو غارق فى سكره ولهوه أتاها رجل تركمانى وأخبره عن وجود عسكر فى منزله الذى كان نازلاً فيه بالأمس يختلف زيهم عن زى عسكره، ولكنه لم يصدقه وقال "هذه حيلة ممن لا يختار توسطنا هذه البلاد".^(٢)

استمر جلال الدين على حاله حتى داهمته جيوش التتار من كل جانب وأحاطت به وبمعسكره، فحمل أورخان على التتار المحيطين بخركات^(٣) جلال الدين وازاحهم عن الحزكات فلما دخل على السلطان وجده نائماً غارقاً فى سكره، فصبوا فى وجه ماء بارداً حتى عاد إليه صوابه، وشاهد ما كان يحذره، ولما أيقن بالهلاك أمر أورخان بان يسير بمعسكره فى طريق آخر ليوهم التتار بأنه من ضمنهم، ولاذ هو بالفرار بمفرده، ولقد أخطأ جلال الدين فى ذلك التدبير لأن أورخان لما فارقه بجموع عسكره تمكن من الوصول إلى إربل ومعه أربعة آلاف فارس، ثم سار إلى اصفهان وملكها فترة من الزمن إلى أن قصده التتار.^(٤)

(١) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٨٩.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٨، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦١.

(٣) الخركاه: جمع خركاوات وهو لفظ فارسى يقال بأنه نوع من أنواع الخيام يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة وتغطيها قطع من اللبد، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، حاشية ٢.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٨-٣٧٩، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٦، ابن شداد،

المصدر السابق، ص ٤٦١.

أما رشيد الدين الهمذاني فيذكر أن جلال الدين بعد مباغطة التار له ولى هارباً، بعد أن أمر أحد قواده وهو أورخان بأن لا يحرك العلم من موضعه، وأن يقاوم بقدر الإمكان حتى يتقدم هو ويرحل، نفذ أورخان ما أمره به جلال الدين من مقاومة التار، ولكنه لم يستطع أن يستمر في المقاومة فلأذ هو الآخر بالفرار، فطارده المغول ظناً منهم أنه جلال الدين منكبرتي ولكنهم سرعان ما عرفوا الحقيقة، فعادوا وقتلوا كل من ظفروا به من عسكر الخوارزمين^(١)، أما بقية العسكر ولو منهزمين في البلدان وتفرقوا شذر مذر وتمزقوا كل ممزق.^(٢)

ساق جلال الدين بعد ذلك إلى باشورة آمد، فاضطرب أهل آمد لهذا الحدث وظنوا أن جلال الدين سوف يغدر بهم، فمنعوه من دخول مدينتهم، ولما أيس من اقناعهم ليسمحوا له بالدخول، واصل سيره حتى وصل حدود جزيرة بها دربندات منيعة، فعجز أيضاً عن دخول تلك الجزيرة، فأشار عليه أورخان بأن يرجع مع الطريق الذي سلكه التار لسلامته من القطاع^(٣)، توجه جلال الدين بعد ذلك إلى ميفارقين، قاصداً المظفر شهاب الدين غازي ليحتمي بها ريثما يجتمع إليه جيشه، واسرع جلال الدين في السير لشدة ماملكه من الرعب، حتى انقطع عنه من رافقه من أصحابه فوصل إلى ميفارقين وحيداً ليس معه أحد.^(٤)

(١) الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٦، انظر ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١.

(٢) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٤٢، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٦.

(٣) النسوي، المصدر السابق، ص ٣٧٩-٣٨٠، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٧، ابن شداد، الاغلاق الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٢.

(٤) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٦٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٢، ابن شداد، المصدر السابق، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٢.

أقام جلال الدين بقرية من قرى ميفارقين "فنزل بيدرها" ^(١)، ففارقه أورخان في هذا الوقت الذي أرسل فيه المغول خمسة عشر فارساً من فرسانهم للحاق به، فلحق به إثنان منهما ولقيا مصرعهما على يد جلال الدين، أما بقية الفرسان فقد عجزوا عن اللحاق به فرجعوا من حيث أتوا. ^(٢)

ولقد اختلفت الروايات التاريخية في حقيقة مقتل جلال الدين، فيقول بعضهم أنه عند فراره بمفرده نام ذات ليلة تحت شجرة فهجم عليه مجموعة من الأكراد شقوا بطنه طمعاً فيما معه من الملابس والأسلحة، وعند دخولهم إلى المدينة عرف بعض من في المدينة ملابس السلطان واسلحته، فقبضوا على الأكراد وسلموهم إلى صاحب آمد الذي قام بقتلهم بعد أن عرف جرمهم، ثم نقلت جثة السلطان إلى آمد حيث دفن بها. ويقول البعض أن السلطان هو الذي أعطى الأكراد أسلحته وملابسه بإختياره وأخذ ملابسهم الخشنة فلبسها حتى لايعرفه أحد وصار يسير في البلدان في زي المتصوفة. ^(٣)

ويذكر ابن الاثير أنه بعد انهزامه لم يعرف أحد طريقه "ولم نتحقق لجلال الدين خبراً ولانعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفاً من التار أو فارق البلاد إلى غيرها والله أعلم". ^(٤)

أما النسوى وهو من أشد الناس إلتصاقاً بجلال الدين فيذكر أنه بعد أن تمكن من قتل الفارسين "صعد الجبل وكان الأكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه فأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرّاً:

(١) البيدر: هو الموضع الذي تدرس فيه الغلال، انظر النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٨٠، حاشية ٢.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٨٠-٣٨١، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٢.

(٣) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج ٢، ص ٩٢-٩٣، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٦، ابن

العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١-٤٣٢، تاريخ الزمان ص ٢٧٧.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٨٦.

إنني أنا السلطان فلا تستعجل في أمرى"، ووعدته بمراتب عليا في دولته في حالة إيصاله إلى بلاده أو إحضاره عند الملك المظفر شهاب الدين فيعطيه ما يتمناه من المال.^(١)

عندئذ رغب كبير الكرد في إيصاله إلى بلاده، فذهب به إلى عشيرته وادخله بيته عند امراته وخرج لإعداد خيل له. واثناء غيابه حضر رجل كردى ويده حربة، فدخل البيت ورأى جلال الدين أمامه "فقال للمرأة: ما هذا الخوارزمي، وهل تقتلونه؟ فقالت: لاسييل إلى ذلك وقد آمنه زوجي وعرف أنه السلطان" لم يصدق أنه هو السلطان وذكر أنه قد قتل له أخ بخلاط خير منه فضربه ضربة أغت عن الثانية، وكان ذلك في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٥ أغسطس سنة ١٢٣١م^(٢)، ونختم حديثنا عن نهاية جلال الدين برواية ابن واصل التي يذكر فيها أن جلال الدين عندما وصل إلى قرية من قرى ميفارقين، أرسل بعض أهل القرية إلى الملك المظفر شهاب الدين يخبرونه بوصول جلال الدين إلى تلك القرية، "وكان بتلك القرية رجل كردى كان عسكر جلال الدين قتلوا أباه وأخاه، فوثب ذلك الكردى على جلال الدين وقتله".^(٣)

ولما بلغ خبره إلى الملك المظفر حزن لذلك وتألم له، وسير إلى تلك القرية مجموعة من الجند ليتحققوا من خبره، فاحضروا معهم سلاح جلال الدين وملابسه فعرفها بعض الخوارزميين الفارين من المغول، فثبت حينئذ مقتله، وكان

(١) سيرة جلال الدين، ص ٣٨١-٣٨٢، انظر ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٢،

السبكي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٣٤٢.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٨٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١، الصياد،

المغول في التاريخ، ص ١٧٣.

(٣) مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢٢، وانظر ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٣١.

الملك المظفر يؤثر أن يجتمع به ويكرمه ويتخذ بذلك عنده منزلة عظيمة.^(١)

وعند إنقطاع خبر جلال الدين بقى الناس فى حيرة من أمرهم، فظن بعضهم أنه ذهب إلى الهند كما فعل أول أمره أو إلى بعض الجهات الحصينة، وبقي جماعة من العجم والخوازرمية بعد اختفائه مدة طويلة ينتظرون عودته "كما ينتظر الحاكمية الحاكم والأمامية محمد بن الحسن المنتظر، والكيسانية محمد ابن الحنيفة".^(٢)

ويعلق الصياد على ذلك بأنه نسجت حول شخصية جلال الدين الخرافات والأساطير مثله فى ذلك مثل كل بطل قومى، تتعلق به الآمال فى ساعة العسرة، فلم يكن أحد يود أن يصدق أن مثل هذا البطل الشجاع الذى قضى جل حياته فى الكر والفر يموت هذه الميتة على يد جلف من أجلاف الأكراد.^(٣)

وبذلك سقطت الدولة الخوارزمية وما ذلك إلا بسبب أفعالهم الشنيعة ومعاملاتهم القاسية مع الشعوب وهمجيتهم اللامحدودة وإنغماسهم فى الشهوات والمحرمات^(٤) فتحققت فيهم سنة من السنن الربانية التى لاتجامل ولا تحابى أحداً من الناس كائناً من كان قال تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(٥). وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بَانَفْسِهِمْ﴾^(٦). وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٩-٦٧٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤،

ص ٣٢٢، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٠٣.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٣.

(٣) الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٧٣.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٣.

(٥) سورة الإسراء، آية ١٦.

(٦) سورة الرعد، آية ١١.

وأهلها مصلحون^(١)

ومع ذلك فإن هذه الدولة كانت بمثابة الحاجز بين بلدان العالم الإسلامي وبين التتار^(٢) الذين لم يسلم منهم أحد في البلدان التي اجتازوها حتى أن جماعة دخلوا على الأشرف وهنأوه بمقتل جلال الدين فقال "تهنئوني به وتفرحون وسوف ترون مغبة ذلك والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام وما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا بين يأحوج ومأجوج"^(٣)

ثم تفرق جيش جلال الدين في البلاد وبدأوا يعرضون خدماتهم على من يبذل لهم الأموال وشاركوا في الصراع الدائر بين حكام المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وسيوضح هذا الأمر في الفصل الثاني والفصول التالية.

(١) سورة هود، آية ١١٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢٣، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١،

ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٣١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٤٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٧.

الفصل الثاني

**علاقات الخوارزميين بالقوى
الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام
بعد مقتل جلال الدين (٦٢٨-٦٣٨هـ)**

تفرق جيوش جلال الدين وتجدد الخلافات بين

ملوك بني أيوب

تفرقت القوات الخوارزمية فى البلدان بعد مقتل جلال الدين سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ولم يكن فى استطاعتهم العودة إلى مواطنهم بسبب سيطرة المغول عليها، فقصدت طائفة منهم حران^(١) فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامل بحران وقصدت طائفة أخرى سنجار^(٢) والموصل وميافارقين^(٣) وغيرها من البلدان، وتخطفهم الملوك والرعية وطمع فيهم كل واحد حتى الفلاحون والأكراد وانتقم الله منهم على ما فعلوه بالمسلمين فى خلاط وغيرها.^(٤)

وفى ظل هذه الظروف الحرجة التى مرت بالقوات الخوارزمية، أخذوا يعرضون خدماتهم على من يرغب من ملوك الإسلام لحمايتهم من تخطف الناس لهم وحصولهم على أكبر قدر من المال ليعيشوا به^(٥)، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذه القوات لم تكن تفكر فى الإعداد لجهاد المغول واسترجاع ملكهم السابق بدليل اشتراكهم مع القوات المتصارعة من المسلمين فى بلاد الشام

(١) حران: هى قصبة ديار مضر بينها وبين الرها مسيرة يوم على طريق الموصل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهى فى لحف جبل عال.

انظر ياقوت، معجم البلدان

(٣) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة، ص ٤٦٣، الذهبى، تاريخ الإسلام،

طبقة ٦٣، ص ٣٦، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٦٥، ابن ايك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص

٣٠٣، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٦.

(٥) نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٩٦، عقاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص

٢٧١، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٦٧.

والجزيرة، فلربما قاتلوا فئة معينة اليوم كانوا يناصرونها بالأمس، وقضوا بقية تاريخهم على هذا المنوال.

واتجهت طائفة منهم إلى خدمة السلطان علاء الدين كيებაذ الذي كان يرغب في استمالتهم إليه واستخدمهم كجنود مرتزقة يساعدونه في حروبه ضد أعدائه، وكان عددهم يقدر بحوالي إثني عشر ألف فارس، على رأسهم بركة خان وكشلوخان وصاروخان وفرخان وبردي خان^(١) واتجهت جماعة أخرى من الخوارزمية إلى الخليفة المستنصر بالله^(٢)، فاستخدمهم في الجيش وكان عددهم يقدر بنحو أربعة آلاف مقاتل.^(٣)

وفي هذا الوقت الذي كسر فيه السد بين المسلمين والمغول بمقتل جلال الدين وتفرق اتباعه في البلدان أخذت الصراعات تزداد حدة بين ملوك المسلمين، ولم يفكروا في ملء الفراغ الذي حدث بسبب مقتل جلال الدين وتشتت اتباعه، فعظم حينئذ شأن التتر وازداد خوف الناس منهم بأذربيجان وغيرها.^(٤)

ويعصور ابن الاثير^(٥) حال ملوك الإسلام في ذلك الوقت بقوله: "فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٣٤-١٣٥، أبو الفداء، المختصر ج ٣، ص ١٥٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٧٨.

(٢) المستنصر بالله: أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ولد في صفر سنة ٥٨٨هـ، وأمه جارية تركية بويغ بعد موت أبيه في رجب سنة ٦٢٣هـ، فنشر العدل في الرعايا، وبذل الانصاف في القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات، وأقام منار الدين، وقمع المتمردة ونشر السنة وكف الفتن وقام بأمر الجهاد أحسن قيام وجمع الجيوش لنصرة الاسلام، وحفظ الثغور وفتح الحصون، انظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٣٦٨-٣٧١، وانظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٧٤.

(٣) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٦٠.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٤.

(٥) المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٤.

الجهاد ولا فى نصره الدين بل كل منهم يقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾^(١).

ولكى نبين حقيقة هذا الأمر يجب أن نستعرض ما قام به المغول من مآسى فى بلاد المسلمين عقب سقوط الدولة الخوارزمية، حيث فتح الباب أمامهم على مصراعيه لتنفيذ ما يحلوا لهم فى البلدان الإسلامية فقد قاموا بتقسيم قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية تمكن الجيش الأول من الإستيلاء على ديار بكر والجزيرة فدخلوا آمد وأرزن الروم وميفارقين واسعد وطنزة ووادي القرشية وماردين ونصيبين وسنجار والخابور^(٢) وقرية المؤنة قرب الموصل، واشتط جنود المغول فى القتل والنهب والسلب والابادة، حيث أوثر عنهم أنهم قتلوا معظم سكان مدينة اسعد ولم ينج منهم إلا من اختفى وقليل ما هم.^(٣)

كل هذه الأعمال تجرى ولا أحد يجرؤ أن يقف فى طريقهم، واستولى الرعب والخوف على قلوب السكان إلى حد لا يصدق إنسان فقد أورد ابن الأثير مجموعة من القصص الدالة على ذلك لدرجة أن سامعها يكاد يكذب بها لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة فيما روى لنا حول هذه الأحداث حيث يقول: "ولقد

(١) سورة الأنفال، آية ٥.

(٢) اسعد: يقال لها سمرت واسمرت وهى مدينة بالقرب من شط دجلة، انظر أبو الفداء، تقويم البلدان، وطنزة: بفتح أوله وسكون ثانيه وزاى بلفظ الطنز وهو السخرية بلد بجزيرة ابن عمر بديار بكر، ووادي القرشية: قرية فى جزيرة بان عمر من نواحي الجزيرة، ونصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، الخابور: مدينة لطيفة على شاطئ الفرات لها بساتين وحدائق، ومات بها مسلمة بن عبد الملك، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٤-٣٨٥، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٦٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين ص ١٨، أبو الفداء، المختصر ج ٣، ص ١١٧، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٦، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٧٩.

حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغنى أن إنساناً منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى وأحضر سيفاً فقتله به (وحكى) لى رجل قال : كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلاً فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم به فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟! فقالوا: نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا، فوالله ماجسر أحد أن يفعل ذلك فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير^(١) ولعل سائلاً يسأل فيقول لو صدقنا بهذه الأخبار فما الذى جعل المسلمين يصلون إلى هذه الدرجة بحيث لا يستطيع الواحد منهم أن يحمى نفسه فضلاً عن أهله وماله ووطنه نقول أن ذلك يرجع بدرجة كبيرة إلى الانحراف العقدي وتفشى المعاصي والمنكرات فى المجتمعات الإسلامية وإنحرافهم عن المنهج الربانى فافترقت كلمتهم وتشتت قواهم ولم يعدوا القوة لعدو يتربص بهم عند الحدود الشرقية للعالم الاسلامي، فما حصل لهم إذاً إنما هو بما كسبت أيديهم قال تعالى: ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾^(٢).

أما الجيش الثانى فقد توجه إلى مدينة "بدليس"^(٣) فلما سمع بهم أهلها تحصنوا بالقلعة والجبال، فقتلوا كل من صادفهم وأحرقوا المدينة، يقول أحد سكان

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٥.

(٢) سورة الروم، آية ٤١.

(٣) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

المدينة "لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأن الطريق ضيقة والقليل يقدر على منع الكثير"، ثم سار المغول إلى خلاط واستولوا على كل من باكرى^(١) وارجيش من أعمال خلاط وقتلوا كل من بها.^(٢)

وسار الجيش الأخير إلى منطقة أذربيجان فما كان منهم بعد أن سمعوا ما فعله المغول بديار بكر والجزيرة وخلاط وغيرها من القتل والنهب والسلب والإبادة هذا بالإضافة إلى عدم وقوف أحد ملوك الإسلام في وجههم بل كلهم "ينجحرون في الأتقاب" على حد تعبير ابن الاثير كل هذه الأمور مجتمعة دفعتهم إلى المسارعة بتقديم فروض الطاعة للمغول، وقدموا إليهم من الهدايا والتحف والأموال الشيء الكثير، وقبل المغول هذه الهدايا وفرضوا عليهم ضريبة كبيرة من المال كل سنة، فسلمت أذربيجان من التدمير والتخريب الذي نال غيرها من البلاد الأخرى.^(٣)

وعندما تمت السيطرة الكاملة على منطقة أذربيجان سارت طائفة منهم في ذي الحجة سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م إلى إربل^(٤) فقتلوا كل من مر على طريقهم من التركمان والاكراذ وغيرهم إلى أن دخلوا إلى إربل ففعلوا بها ما لم يسمع بمثله من الأعمال الوحشية، فسارع صاحبها مظفر الدين لإعداد عساكره واستدعى عساكر الموصل لتناصره في حماية البلد من التدمير، غير أن المغول رجعوا إلى أذربيجان قبل إجتماع العساكر الإسلامية.^(٥)

(١) باكرى: ويقال لها باركبرى أو بهركرى وهى مدينة على الطريق من ارجيش إلى خوى فى اذربيجان، انظر كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٥، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٨٠.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٦ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٤) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء من الارض واسع بينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للفرافل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٨٦.

كل هذه الأمور تحدث في الوقت الذي كان فيه صاحب آمد أحد ملوك الإسلام مولع بالنساء بل بلغ به الأمر أن تعرض لنساء رعيته بما فيهم الأعيان والأكابر فلم يحتمل أهل تلك البلدة هذا الأمر فرفعت الشكاوى من قبلهم إلى السلطان الكامل، فعرض ذلك على أخيه الأشرف وكان نازلاً عنده بمصر فاتفقا على قصده وأخذ آمد منه^(١)، والسبب الآخر الذي أدى بهما إلى الخروج إليه هو معاضدته لجلال الدين خوارزم شاه عليهما في أثناء الصراع بينهما.^(٢)

سبق الأشرف أخاه الكامل إلى دمشق ليعد العساكر وليكون في استقبال بقية ملوك بني أيوب الذين سيخرجون معهم في هذه المهمة، ومر السلطان الكامل أثناء مسيره إلى دمشق بالكرك والشوبك فاستقبله ابن أخيه الناصر داود بحفاوة بالغة وبالغ في إكرامه، فعقد له الملك الكامل على ابنته عاشوراء خاتون.^(٣)

ولم ينتظر صاحب حماة الملك المظفر تقي الدين عمه الملك الكامل حتى يقدم دمشق وينضم إليه بل سارع بالذهاب إليه في اللجون لتلقيه ومعاضدته ثم توجه الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود بعساكره حيث اجتمعت العساكر الأيوبية بها، ورحلوا عنها إلى الشرق بعساكر كما يقول ابن واصل: "يضيق بها الفضاء"^(٤) ولم يتخلف أحد من ملوك بني أيوب في الخروج مع الملك الكامل.^(٥) واتحاد بني أيوب في هذه الفترة كان يمثل شوكة في نحر كل من يفكر في الإعتداء على ممتلكات هذه الدولة. غير أنهم وللأسف الشديد لم يحاولوا بهذه

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢-١٣، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة

٦٢٩هـ، ابن اييك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٠٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣-١٤.

(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٦.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٦، الاصفهاني، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٠هـ.

القوة المجتمعة التصدى للقوات المغولية التي اكتسحت كثيراً من البلدان الإسلامية القريبة منهم، والتي كانت تتقرب الوقت المناسب للقضاء عليهم، فضلاً عن طرد الصليبيين المقيمين في بلاد الشام.

وعلى أية حال فإن هذه القوات سارت حتى قطعت الفرات واتجهت نحو آمد، فلما وصل إليها الملك الكامل ضيق عليها الحصار ونصب عليها المجانيق، ورغم حصانة المدينة ومنعة أسوارها إلا أن صاحبها سارع بتسليم البلد للسلطان الكامل لتخلي الرعية عنه وذلك لسوء سيرته معهم، فأحسن الكامل إستقباله ووعدته بإعطائه إقطاعاً بمصر.^(١)

وبعد فتح آمد سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٣م جعل الملك الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه في البلاد الشرقية وعهد إلى الأمير شمس الدين صواب العادلي مهمة تدبير شئون البلاد مع ابنه الصالح أيوب، لثقة به حتى أصبح الملك الصالح معه مجرد صورة في حكم البلاد.^(٢)

ومن استقرائنا للحوادث التاريخية نرى أن اعتراف ملوك بني أيوب بسلطة الكامل وخضوعهم لنفوذه، لم يستمر طويلاً بسبب اطماع الكامل في بسط سيطرته المباشرة على بلاد الشام، ويظهر هذا الأمر واضحاً جلياً في حملتهم المشتركة على بلاد الروم، فقد حاول الأيوبيون التحالف مع علاء الدين كيقيباذ لصد الخطر المغولي الذي بات يهددهم في كل لحظة، إلا أن علاء الدين كيقيباذ فاجئهم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٧-١٨، النهمي، تاريخ الإسلام، طبعة ١٩٦٣ ص ٣٨-٣٩، دول الإسلام، ج ٣، ص ١٠٢، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٣٤-١٣٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٣ ابن القوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٧، القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤-٣٥، ابن ايك كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٠٨-٣٠٩، النهمي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٢، العبر، ج ٢، ص ٥٠٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١.

بمحاولة الاستيلاء على خلاط.^(١)

ونتيجة لذلك خرج الملك الكامل بقواته من مصر ليلة السبت خامس شعبان سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م بعد أن استتاب ابنه العادل في مصر لصدد علاء الدين كيقباز وقواته الخوارزمية من الإستيلاء على خلاط وبدأ في تأليب ملوك بني أيوب ضد كيقباز.^(٢)

وصل السلطان الكامل إلى دمشق وكان المؤرخ ابن واصل شاهد عيان لهذا الحدث العظيم الذي اجتمع فيه جمع غفير من ملوك بني أيوب حتى قيل أنه كان في معسكر السلطان الكامل ستة عشر دهليزاً^(٣) ستة عشر ملكاً لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، ثم وصل قاصداً بلاد الروم فنزل شمالى سلمية، ثم رحل منها ونزل بمنبج وهي تابعة لصاحب حلب الملك العزيز الذي بادر بإرسال عسكر حلب نجدة للملك الكامل.^(٤)

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٤٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢١٦، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٠٦، عفاف صبره، التاريخ السياسى للدول الخوارزمية، ص ٢٧١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٣٩، عبدالرحمن الراقعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٦٧.
(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٦، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٤٧، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٤، عفاف صبرة، المرجع السابق، ص ٢٧٢.

ويذكر ابن العميد أن سبب خروج الملك الكامل إلى بلاد الروم يرجع إلى تحريض الأشرف لآخيه الكامل على الإستيلاء على بلاد الروم واطمعه فيها بعد أن اطلعه على أحوالها وعسكرها عندما انضم إلى علاء الدين فى قتال جلال الدين منكبرتى، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٣) دهليز: الدهليز هنا الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب وتختلف عن غيرها من الخيم والدهليز الكبيرة التى تقام للسلطين فى الصيد النزهة بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتى تقام لتجهيز حاجات السلطان فى أيام السلم. انظر المقرئى، المصدر

السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٤٨، حاشية ١.

(٤) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٤٨-٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٧٤-٧٥، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٦-٢١٨، الذهبى، المختار من تاريخ ابن =

وعندما أيقن السلطان علاء الدين كيقباز عزم السلطان الكامل على قصده أرسل إلى صاحب حلب يقول له: " أنا راض بأن تمده بالأجناد والرجال على أن لا تنزل إليه ابداً" فلم يخرج إلى الكامل ورضى كل من السلطانين بفعله، وربما كان قصد صاحب الروم من وراء ذلك هو إيجاد الفتنة بين ملوك بني أيوب.^(١)

اعجب الملك الكامل بكثرة العساكر الموجودة في خدمته، ولم يشك في القضاء على كيقباز والسيطرة على مملكة السلاجقة^(٢)، غير أنه لم يفتن إلى أن الكثرة ليست هي السبب الوحيد في النصر.

أمر الكامل قواته بالمسير إلى بلاد الروم فاتجهت إلى الدربند، وكان السلطان علاء الدين لما بلغه قدوم القوات الأيوبية إلى بلاده أخذ في حفظ المداخل إلى بلده بالرجال والعتاد، وكانت تلك المداخل صعبة وضيقة جداً يصعب على العساكر الدخول منها، فنزل الملك الكامل على النهر الأزرق^(٣)، ولم يستطع الدخول إلى بلد الروم عن طريق الدربند لأن عساكر الروم كانوا قد بنوا على فم الدربند سوراً، استطاعوا بواسطته أن يمنعوا عساكر الملك الكامل من الصعود إليهم.^(٤)

وفي هذه اللحظة بدأت تتغير الموازين لصالح سلطان الروم علاء الدين كيقباز

= الجزري، ص ١٤٨، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣١٤، ويذكر ابن العميد أن عدد

الملوك الذين شاركوا في هذه الحملة كانوا ثلاثة عشر ملكاً، المصدر السابق، ص ١٩.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢١٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٧٤-٧٦.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٤٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩٠.

(٣) النهر الأزرق: أحد نهيرات الفرات الأعلى ويجري بين بهسنا وحصن منصور. انظر ابن العديم،

المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٧، حاشية ٢.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٧، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٤٩.

ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٧٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ج ٢، ص ١٤٨.

أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٤.

إذ قلت الأقوات جداً في معسكر الملك الكامل، إضافة إلى حدوث انقسام خطير، ألا وهو تخاذل مجموعة من ملوك بني أيوب عن نصره الملك الكامل، وذلك نظراً لما بلغهم عنه من طمعه في بلاد الشام فجاء الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى الملك الأشرف واجتمع به وقال: "إعلم أن السلطان الكامل متى أخذ مملكة الروم أخذ جميع ممالكنا التي بأيدينا في الشام لقرب بلاده وعوضنا من بلاد الروم" فأوجس في نفسه خيفة موسى، واستدعى ابن عمه وأقاربه واطلعهم على ما عزم عليه الملك الكامل تجاههم.^(١)

وعندئذ تغيرت نيات بني أيوب واتفقوا على إبطال مخطط الكامل، بل إنهم أرسلوا في سبيل ذلك إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كي قباذ يعدونه "بالميل معه وخذلان الكامل"، فوقعت مجموعة من هذه الكتب في يد الملك الكامل^(٢)، فلما علم بخذلان ملوك بني أيوب له وقلة الأقوات وغلاء الأسعار وحصانة الدربند قرر الرحيل إلى السويداء^(٣) من بلد آمد، وقبل وصوله إليها أمر بهدم حصن منصور فهدموه، كما وصل إليه صاحب خربت معلنًا الدخول في طاعته ووعدته بتسهيل مهمته في الدخول إلى بلاد الروم عن طريق خربت.^(٤)

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٤٨-٢٤٩. ويذكر المقرئى أن الملك الكامل صرح بذلك الأمر لأحد خواصه فقال: "إن صار لنا ملك الروم فإننا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم بدل ما بأيديهم ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر". انظر كذلك ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ص ٦٩٩، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ج ٢، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٤٨-٢٤٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) السويداء: بلد مشهور ببلاد مضر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٧٨-٧٩، التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٣، ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٩، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ج ٣، ص ١٤٩، الذهبي، العبر، ج ٢، ص ٢٠٩، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢١٨، الياقنى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٧٣.

قطع الملك الكامل الفرات ونزل بالسويداء، عازماً على دخول الروم عن طريق خرتبرت فأرسل الملك المظفر وهو الوحيد الذى كان من ملوك بنى أيوب ملازماً للملك الكامل لأنه استرد له حماة، على رأس جيش قوامه الفين وخمسمائة فارس إلى خرتبرت وبعث معه الأمير شمس الدين صواب العادلى، فتوجهوا إلى أرقين^(١) ثم رحلوا إلى البهرمان^(٢) ثم إلى البحيرة الصغيرة واستقر بهم المقام فى خرتبرت.^(٣)

ولما سمع بهم صاحب الروم السلطان علاء الدين أعد جيشاً قوامه اثنى عشر ألف فارس وسيره لملاقاة قوات الكامل المقيمة بخرتبرت، وتقابل الطرفان فى معركة قوية استمرت من أول النهار إلى آخره انتهت بانتصار قوات علاء الدين فتراجع عسكر الكامل بقيادة الملك المظفر ودخل قلعة خرتبرت مع صاحبها ومعها شمس الدين صواب العادلى، أما باقى العسكر الكاملى فقد نزل فى ربض خرتبرت فداهمتهم قوات علاء الدين فى الربض وأسروا من كان فيه من عسكر الكامل^(٤)

ولم يكتف علاء الدين بذلك بل سار بقواته وأحاط بقلعة خرتبرت ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً، وضيقوا الحصار عليها حتى قلت الأقوات ونقص الماء ودام الحصار عليها أربعة عشر يوماً، ونتيجة لإحكام الحصار حول القلعة وما ألم بمن بها من الضائقة سارعوا بطلب الأمان من علاء الدين كيقتلوا وتسليم القلعة إليه، فأمنهم علاء الدين ودخل معهم فى الأمان صاحب خرتبرت وكان ذلك فى ذى القعدة

(١) أرقين: بلد بالروم غزاه سيف الدولة بن حمدان، وذكره أبو فراس فى شعره، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) البهرمان: لم أجد لها تعريفاً فيما بين يدي من كتب.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٧١-٧٩، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٤-٣١٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢١٨.

(٤) ابن واصل، المصلى السابق، ج ٥، ص ٧٩، أبو البركات الحنبلى، المصلى السابق، ص ٣١٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى / ورقة ٢٣٣-٢٣٤، ابن العديم، المصلى السابق، ج ٣، ص ٢١٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ج ٢، ص ١٤٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٧٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.^(١)

وهكذا فشلت حملة الملك الكامل في السيطرة على بلاد الروم وذلك يرجع إلى سوء نيته التي أدت إلى تخلي ملوك بني أيوب عنه بعد أن كان طامعاً في الإستيلاء على بلاد الروم^(٢)، وكان أول من أظهر له الكامل حنقه من ملوك بني أيوب هو ابن أخيه الناصر داود، حيث كان يظن بعد أن عقد له على ابنته عاشوراء أنه لن يتخلى عنه مهما كانت الاوضاع، إلا أنه انضم إلى ملوك بني أيوب ضد عمه الكامل إضافة إلى أشياء باطنة على حد رواية بعض المؤرخين أوغرت صدر الكامل عليه فأجبره على طلاق ابنته التي لم تكن قد زفت إليه بعد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.^(٣)

وفي بداية عام ٦٣٢هـ/١٢٣٤م رجع الملك الكامل إلى مصر كما رجع كل ملك من ملوك بني أيوب إلى بلده^(٤) بما فيهم الملك الناصر داود صاحب الكرك الذي كان خائفاً من عمه الملك الكامل وخشى أن تمتد يده إلى الكرك فينتزعها منه لذلك قرر العزم على قصد الخليفة العباسي المستنصر بالله ليشفع له عند عمه الكامل، وبعد إلحاح شديد من قبل الناصر قبل الخليفة التوسط له عند عمه فبعث معه رسولا إلى السلطان الكامل "يشفع له في إخلاص نيته له وإبقاء بلاده عليه"، وعندما وصلا إلى الملك الكامل قبل شعبة الخليفة فيه وأقبل عليه أقبالا كثيراً.^(٥)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٨٠-٨١، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣١، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢١٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٢، ٨٧، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٦، ابن أيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣١٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٢-٨٣، ابن أيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣١٣.

(٤) أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٦، ابن أيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣١٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٥) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥١، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٧-١٥٨، القلقشندى، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج ٢، ص ٧٩، ناجى معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ج ٢، ص ٤٢٩.

وحاول سلطان سلاجقة الروم علاء الدين أن يستغل فشل الكامل فى مهمته وتفرق بنى أيوب عنه فخرج بقواته إلى الشرق رداً للإعتبار، فهاجم مدينة الرها وشدد الحصار حولها ونصب عليها مجموعة من المجانيق^(١) حتى يحكم السيطرة عليها ولم تمض فترة حتى وقعت المدينة فى يد علاء الدين كيقباز، الذى تطلع إلى بسط نفوذه على أكبر قدر من المدن التابعة لبنى أيوب وخاصة الملك الكامل، فلم تتوقف اطماعه عند حد السيطرة على الرها فواصل سيرة إلى حران ومعه من انضم إليه من الخوارزمية وتمكن من إحكام السيطرة عليها، وتوج انتصاراته تلك بإستيلائه على خلاط وإنتراعها من يدى الملك الأشرف، ثم عين نوابه على تلك المناطق وكر راجعاً إلى بلاده لدخول فصل الشتاء.^(٢)

استاء الملك الكامل من أفعال علاء الدين كيقباز، فخرج من مصر سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م لإعادة ما أخذه من البلدان ورغم النفور والوحشة التى حصلت بين الكامل وملوك الشام فى الحملة السابقة إلا أنهم رافقوه فى حملته الجديدة ضد

(١) المنجنيقات: أعظم آلات الحصار فى العصور الوسطى وقد وصف القلقشندى المنجنيق بأنه " آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل، وزنه خفيف تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع اسافله إلى أعلى أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه. انظر صبح الاعشى ج ٤، ص ١٤٤، وهى أنواع مختلفة وذات تراكيب متباينة، فمنها العربى والفارسى والافرنجى، وتستخدم المنجنيقات لرمى السهام إلى مسافات بعيدة ولرمى الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغير ذلك. انظر عبدالله الغامدى، مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص ٥٨، حاشية رقم ١. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٨٣، حاشية رقم ١.

(٢) ابن واصل مفرج الكروب، ج ٥، ص ٩٨-٩٩، ١٠٩، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٤، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٢هـ، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٣٥، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ٢٥٥، الذهبى، تاريخ الإسلام، طبعة ٦٣، ص ٤٠، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

كيقباز ولم يظهروا امتعاضهم منه ، وقد سارت هذه القوات بقيادة الملك الكامل من دمشق وسار معه كل من الملك الأشرف صاحب دمشق والملك المجاهد صاحب حمص وهما من أبرز ملوك الشام الذين كان يحرص الكامل على استقطابهم إليه، هذا بالإضافة إلى مسير الملك المظفر صاحب حماة معهم، وقطعوا نهر الفرات ووصلوا إلى مدينة الرها التي عجزت عن المقاومة فسلمت إلى الكامل الذي أمر بهدم قلعتها، ثم زحفوا نحو حران وتغلبوا على نواب علاء الدين وقبضوا عليهم وسيرهم الملك الكامل اسارى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م إلى مصر.^(١)

ثم نزل عسكر الكامل على دنيسر^(٢) فدمرها واستباح الأموال والنساء لشدة حقن الكامل على علاء الدين ولكن هل يرر له ذلك هتك الاعراض والاستيلاء على الأموال، ولم يمهل الله الكامل على صنيعه ذلك فقد ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يخبره بقطع التتر دجله في مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس ونزلوا على سنجار فتصدى لهم معين الدين بن كمال الدين بن مهاجر فقتلوه، فأحس الكامل بالخطر فعاد مسرعاً مع أخيه الأشرف، وقطعا الفرات إلى دمشق.^(٣)

عاد التتر بعد أن وصلوا إلى سنجار وكانت أعمالهم تلك بمثابة إستكشاف لقوات المسلمين وفي كل مرة يخربون وينهبون ويدمرون ولا أحد يجروء على التصدى لهم وفي الجانب الآخر نجد ملوك المسلمين يفتك بعضهم ببعض إذا ماسنحت لهم الفرصة المناسبة، فعند عودة الكامل إلى دمشق عادت عساكر الروم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٠٩-١١٠، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٤، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩٣، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٢ هـ، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٢) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم اخر يقال لها توج حصار، انظر ياقوت، معجم البلدان، وانظر كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٦.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٩٥، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥١، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٤.

ومعهم الخوارزمية وانضم إليهم صاحب ماردین، فنزلوا نصيبين فأحرقوها وفعلوا بها
اشنع مما فعله الكامل بدنیسر ثم توجهوا إلى آمد وضيّقوا عليها الخناق حتى
سقطت في أيديهم.^(١)

إن المتتبع لهذه الأحداث يتألم أشد الألم من تمزق وحدة المسلمين وتفرقهم
فما إن اتحد ملوك بني أيوب حتى ظن أن ذلك سيكون سبباً في رأب الصدع ولم
الشمل إلا أن هذا الوفاق المؤقت لم يكتب له الدوام فسرعان ما بدأت الأطماع
الشخصية والأحقاد العائلية تظهر لتبدأ مرحلة جديدة من التنافس والنزاع تستنفذ
قواهم وتمتص حماسهم أمام أعدائهم من المغول والفرنج.

وقد ذكر ابن واصل أسباباً كثيرة لتدهور العلاقات بين الأشرف وأخيه الملك
الكامل، حيث صدرت من الكامل أفعال كثيرة استاء منها الأشرف، منها أنه أخذ منه
بلاد الشرق حين أعطاه مدينة دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود كما أنه استأثر
ببعض المناطق الهامة التابعة لدمشق، وعندما استولى علاء الدين سلطان الروم على
خلاط لم يساعده الكامل في استرجاعها فاقصر الملك الأشرف على دمشق وكان
الكامل في كل مرة يذهب فيها إلى الشرق يقيم بدمشق مما يكلف الأشرف أموالاً
طائلة في ضيافته هو وأصحابه، وحين استولى الكامل على آمد وهي مملكة واسعة
ولها بلاد كثيرة، والأشرف في صحبته لم يعطه شيئاً منها بل استأثر بذلك كله، هذا
بالإضافة إلى ماسبق وأن أشرنا إليه من عزم الكامل على انتزاع الشام من ملوك بني
أيوب "وتعويضهم ما يملكه من بلاد الروم فما كان من الأشرف إلا أن قوى عزمه
على منابذته والممالة عليه"^(٢)

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٩٥-٦٩٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٥٠، ابن
العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٨٢، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،
ج ٦، ص ٢٧٨-٢٩١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢١-١٢٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢٦،

ولعل من أبرز الأسباب التي أثرت على نفسية الأشرف عدم إجابة مطالبه من قبل أخيه الكامل فأحس بنوع من الهيمنة عليه من قبله وظهر ذلك جلياً عندما أرسل إليه بعد أن استخدم الخوارزمية وقويت شوكته يطلب منه الرقة لتكون علفاً لدوابه فرفض الكامل هذا الطلب قائلاً "أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بنى أميه؟" ولم يتسرع الأشرف في مقاطعة أخيه بل أرسل إليه مرة أخرى يشرح له حقيقة الوضع وأن دمشق لا تكفيه لسد حاجاته، فما كان من الكامل إلا أن اغلظ له الجواب، وقال: "أيش يعمل بالملك؟ يكفيه عشرته للمغاني وتعلمه لصناعتهم" فلما بلغ هذا القول الأشرف حنق عليه وقال: "والله لأعرفنه قدره".^(١)

كل هذه الأمور مجتمعة جعلت الأشرف يكون له حلفاً قوياً من ملوك بنى أيوب في الشام وكان على رأس المؤيدين له على هذه الفكرة هو المجاهد صاحب حمص الذي أحس بخطورة موقفهم أمام ازدياد نفوذ الملك الكامل في البلاد^(٢)، فبادروا بضم مملكة حلب إلى تحالفهم الجديد، خاصة أن الكامل قد أغضب ضيفة خاتون ابنة الملك العادل بالتدخل في شؤون مملكة حلب حيث أشار عليهم بتعيين الصالح بن الظاهر قائداً على عسكر حلب بعد وفاة الملك العزيز وقيام ابنه الصغير الناصر بن يوسف مقامه في الملك، فساءت بذلك العلاقة بين الحلبيين والسلطان الكامل نتيجة لذلك لم تتردد ضيفة خاتون في الإستجابة لرسالة الملك الأشرف والتي عرض فيها رغبته بتوحيد الكلمة ضد الملك الكامل ومنعه من القدوم إلى

أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص ١٦٠. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٠-١٤١.

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٩٩-٧٠٠، ابن ابيك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣١٧-

٣١٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٦، أبوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٦،

الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٤٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٩٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢١-١٢٣، ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص

٣١٨، أبوالبركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣١٦، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة

٦٣٤هـ، ابن العميد، أخبار الأيوبيين ص ٢٠. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤١.

الشام وأن يقتصر على الديار المصرية.^(١)

ولما فرغ الأشرف من ضم مملكة حلب إلى تحالفهم الجديد اتجه نظره إلى مملكة حماة والتي كان يحكمها المظفر الذي عرف بميله الشديد لخاله الملك الكامل لأنه هو الذي استرد له حماة من أخيه الناصر وزوجه بابنته وسمح له بانتزاع بعرين^(٢) من أخيه لذلك حرص الأشرف على ضمه إلى قوى التحالف حتى تسد جميع الأبواب في وجه الكامل فلا يفكر في الخروج من مصر فاستماله الأشرف إلى جانبه، بل بلغ به الأمر أنه أرسل إليه يتهدده إن لم ينضم إلى قوى التحالف، وتوسط المجاهد صاحب حمص بينهما في ذلك، فما كان من المظفر إلا أن استجاب لرغباتهم خوفاً على بلاده، ولكنه ظل في الباطن موالياً للكامل، والزمه المجاهد أن يذهب إلى الأشرف في دمشق فيحلف له على اتفائه معهم فسار إلى دمشق وحلف للأشرف مكرهاً ثم عاد إلى مملكته.^(٣)

ولتوسيع دائرة الحلف ضد السلطان الكامل بادروا بإرسال وفد إلى سلطان سلاجقة الروم كي يباذ ينشدونه مساعدتهم ضد الكامل، ولعل هذا الأمر يدل على بعد نظر ملوك الشام مخافة أن يقعوا بين فكي أسد، لاسيما أن سلطان سلاجقة الروم تكررت منه الإعتداءات على أملاك بني أيوب في الجزيرة، فغادر هذا الوفد بلاد الشام متجهاً إلى مملكة السلاجقة غير أنهم لم يتمكنوا من مقابلة السلطان

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢١-١٢٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٢٢٥-٢٢٧، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٢.

(٢) بعرين: يذكر ياقوت أنها بليدة بين حمص والساحل، هكذا تلفظ بها العامة، ويرى أن ذلك خطأ والصواب هو بارين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٣-١٢٤، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٩، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٦. على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٢.

كيقباز إذ توفي قبل وصول الوفد إليه سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م^(١) وخلفه في الحكم ابنه غياث الدين كيخسرو الثاني الذي أحسن استقبالهم واستجاب لطلبهم وحلف على تقديم المساعدة لهم^(٢).

ولم يكتف الأشرف بما حققه من تأليب ملوك الشام وسلطان السلاجقة ضد أخيه الكامل بل سعى حثيثاً لضم ابن أخيه الناصر داود إلى تحالفهم الجديد لإدراكه أهمية موقع إمارته التي تتمتع بموقع هام فهي تمثل حلقة وصل بين طرفي النزاع في الشام ومصر بالإضافة إلى إمكانية إستخدامها لمراقبة التحركات العسكرية، فضلاً عما تتمتع به الكرك من تحصينات قوية يصعب على قاصدها الاستيلاء عليها بسهولة^(٣).

وبذلك أصبح الناصر داود موضع اهتمام كل من عميه الكامل والأشرف، لأن إمارته أصبحت تمثل مركز التوازن القوى بين مصر والشام وأصبحت الكرك مركز نشاط واسع تتردد الرسل على الناصر داود من عميه الكامل والأشرف، فعرض عليه نتيجة لذلك عروض مغرية فالأشرف وعده أنه متى انضم إلى صفوف الحلف الجديد فإنه سوف يقوم بتعيينه ولي عهده ويزوجه ابنته الوحيدة^(٤).

(١) علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن سلجوق. كان ملكاً جليلاً شهماً وافر العقل متسع الممالك. تزوج بابنة الملك العادل وامتدت أيامه. توفي في سابع شوال. وكان فيه عدل وخير في الجملة، انظر الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢٧، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٤هـ، المقریزی، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٤، ابن واصل، التاريخ الصالحی، ورقة ٢٣٥، أبوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٦. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٤١، على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٥، ١٤٦، أبوالفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣١٦، يوسف غوانمه، المرجع السابق، ص ٢٤١.

أما الكامل فقد كان عرضه يتضمن رسالة جاء بها القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني^(١) سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م يحذره من الإغترار بقول الأشرف ويذكره بغدره السابق له حيث قال له: " أنت تعلم غدر الملك الأشرف، وأنه لمآمات أبوك الملك المعظم التجأت إليه وأعرضت عن جانبي، فأدى ذلك إلى أن غدر بك، ومالاً عليك، وأخذ دمشق منك ولو كنت التجأت إلى لم يذهب منك من ملك أبيك شيء، والآن فقد بلغني أنه وعدك أنه يجعلك ولي عهده في دمشق، وأنت تعلم وعد وفائه، وأنا التزم لك إن وافقتني أن اخرج معك بعساكرى وانتزع دمشق منه واسلمها إليك ناجزاً، وترجع إليك مملكة والدك كلها".^(٢)

وأمام هذه العروض تحير الناصر داود في أمره فلجأ إلى أمه يطلبها المشورة فأشارت عليه بأن ينضم إلى عمه الكامل حتى لا يغدر به الأشرف مرة أخرى، فافتتح برأيها وصمم على الإنضمام إلى عمه الكامل ليستعيد له ملك أبيه الذي فقده بسبب أطماع عمه الأشرف.^(٣)

رحل الناصر داود مع رسول الكامل إلى مصر في ذي الحجة سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، وارسل القاضي الأشرف إلى الملك الكامل يخبره بقدوم الناصر داود عليه، فسر بذلك وأمر بإقامة الاحتفالات وترتيب الإقامات الكثيرة وتزيين القاهرة ثم خرج إلى استقباله واحتفل به احتفالاً بالغاً وبالغ في اكرامه مما أدهش الناصر

(١) هو القاضي الأشرف بهاء الدين أبو العباس أحمد بن القاضي الفاضل، وكان القاضي الأشرف كوالده كبير المنزلة عند الملوك، ولد سنة ٥٧٣هـ بالقاهرة ومات سنة ٦٤٣هـ، انظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ترجمة القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢٥-١٢٦، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٦، المقريزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٤-٢٥٥،

أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣١٦.

داود فانخدع بالمظاهر. وأنزله بدار الوزارة وخلع عليه خلع السلطنة وأركبه بالسناجق^(١) السلطانية، وأمر الأمراء بأن يحملوا الغاشية^(٢) بين يديه، فكان أول من حملها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن الملك الكامل، ثم حملها ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، ثم حملها الأمراء حسب مراتبهم، واحد بعد الآخر إلى أن صعدوا بها القلعة ولم يكتف الكامل بذلك بل جدد له العقد على ابنته عاشوراء خاتون^(٣)

اعجب الناصر داود بهذا الاستقبال والحفاوة التي وجدها عند عمه وتمثل في الرسالة: بيت من شعر أبي الطيب المتنبى وهو :

سيعلم قوم خالفوني وشرقوا وغربت أنى قد أصبت وخابوا.

وهذا يدل على أن هناك من عارضه من حاشيته واتباعه ومنهم مملوك والده عز الدين إيبك صاحب صرخد الذي انضم إلى تحالف الشام^(٤) والحقيقة أن الناصر داود أخطأ بالإنضمام إلى الملك الكامل لعدة أمور منها: أن

(١) السناجق: جمع سنجق وهو لفظ تركى كان يطلق على الرمح ثم اطلق على الراية التي تربط به وكانت السناجق تحمل في مواكب السلطان، انظر القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٥، ص ٤٥٦.
(٢) الغاشية: هي السرج أو الغطاء المزركش الذي يوضع على ظهر الفرس فوق البردعة، وكان أمراء الاتابكة ثم سلاطين الأيوبيين والمماليك بعدهم يخرجون في المواكب ويبن أيديهم الغاشية، وقد وصفها (القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٤، ص ٧) بأنها سرج اديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يدي يدي السلطان عند الركوب في المواكب، كالبيادين والاعباد ونحوها يحملها أحد الركاب دراية رافعاً لها على يديه.. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥، حاشية ٢.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٦-١٢٨، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٦، ابن إيبك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣١٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٣٤هـ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٠-٢١، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٧، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق ص ٣١٦-٣١٧.

الكامل هو أول من حاول الاستيلاء على دمشق عند خروجه من مصر ولما علم بإنضمام الأشرف إلى الناصر داود إستماله وأطمعه في ملك دمشق، كما أن الأشرف لم يكن له من الولد سوى بنت واحدة، فلو أطاع عمه الأشرف لكانت دمشق قاب قوسين من الناصر داود لعدم وجود منافس قوى يستأثر بها عند وفاة الأشرف^(١) ولكن الناصر داود لم يوفق في ذلك ويعزو أبو الفدا سبب ذلك " لسوء حظه "^(٢) إلا أنه لا يمكن التسليم بذلك لأن اختياره كان بمحض إرادته وكانت الأمور مكشوفة أمامه^(٣)

ويعود ذلك كله إلى طبيعة نشأة الناصر داود الذي لم يشركه والده في أمور السياسة بل كان جل اهتمامه منصباً على تعلم العلم، فافتقد بذلك الحنكة السياسية والرؤية الصحيحة لطبيعة تكوين الدولة الأيوبية^(٤)، فانطلت عليه أساليب الخداع من قبل عمه الكامل ويعبر ابن دقماق عن ذلك بقوله " وكل ذلك من الكامل خداع ومكر وحيلة عملها على إستمالته "^(٥)

وكان من الطبيعي أن ينزعج الأشرف ويتأثر من تصرف الناصر داود فأراد أن ينتقم منه على تصرفه هذا فأرسل عسكره إلى نابلس^(٦) الخاضعة لحكم الناصر داود واستولى عليها وأخذ كل ما يخص الناصر داود في هذه المدينة^(٧)، ثم أرسل

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٤٦-١٤٧، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٣.

(٢) أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩.

(٣) على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٤) على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٥) يوسف غوانمه، امارة الكرك، ص ٢٤٣، نقلاً عن ابن دقماق، نزهة الانام، حوادث سنة ٦٣٤هـ، مخطوط.

(٦) نابلس: مدينة كنعانية من أقدم مدن العالم ومما قاله محمد بن حوقل في رحلته، والمتوفى سنة

٣٦٧هـ: " ليس بفلسطين بلده فيها ماء جار سواها وباقي ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه وبها

البئر التي حفرها يعقوب " انظر محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين، ص ٦٩٧.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٤-٢٥٥.

الأشرف ومن تبعه من الملوك رسالة إلى السلطان الكامل تتضمن تحذيره وتخويله من الخروج إليهم مرة أخرى وبينوا له إتفاق كلمتهم على ذلك^(١) وطلبوا منه أن يحلف لهم على ذلك، فلما بلغت رسالتهم قال لهم: " أنتم قد اتفقتم فما تطلبون من يميني؟ احلفوا لي أنتم ايضاً أن لا تقصدوا بلادى، ولا تتعرضوا لشيء مما فى يدي، وأنا أوافقكم على ما تطلبون".^(٢) ويبدو أن الكامل من خلال رده على هذه الرسالة خشى من اعتداء الملوك على ما يملكه فى بلاد الجزيرة، فأراد أن تحفظ له أملاكه فى مقابل أن يحلف لهم على عدم الخروج إليهم مرة أخرى.^(٣)

وقيل أن الكامل لم يبلغه الرسول بالرسالة السابقة بكى وضحك، فأما بكاءه فكان نتيجة اختلاف ملوك الإسلام، وأما ضحكه فلأن جميع الملوك فى تلك الفترة كبار فى السن ما بقى لهم فسحة فى الأجل يحتملون القيل والقال وكتب ضمن رسالته إليهم:

تجمعتم من كل ارب ووجهة على واحد لازلتم قرن واحد

ثم لم تلبث أن تطورت الأمور بسرعة، فمرض الأشرف ولحقه ضرب فكان لا يجلس فى بطنه طعام ولما اشتد به المرض عهد بولاية العهد من بعده لأخيه الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى، واستحلف له المجاهد صاحب حمص وعز الدين ايبك صاحب صرخد، وتوفى الأشرف^(٤) فى

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٢٧، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٢٨، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٤هـ، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٤-٢٣٥، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٢.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٧.

(٣) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٥.

(٤) الملك الاشرف موسى بن الملك العادل أبوبكر الأيوبى ولد سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م كان ملكاً حازماً عادلاً حكيماً كريماً محباً للخير ناشراً للعلم والفضل بتقريب ذويه له وبإنشاء الدور والمؤسسات لهم، انظر شرف خان البديس، شرفنامه، ص ٧٢.

المحرم سنة ٦٣٥هـ / سبتمبر ١٢٣٧م وعمره ستون سنة ودفن بدمشق.^(١)

ولقد إستراح الكامل بوفاة الأشرف لأنه كان بمثابة عقبة فى طريقة نحو تحقيق اطماعه إذ لم يكن يجرؤ على مواجهته فى مكان مكشوف فقد كان الأشرف محظوظاً فى ميادين القتال فلم يؤثر عنه أنه هزم فى أى معركة من المعارك التى شارك فيها بنفسه طيلة حياته وكان جواداً مفرطاً فى الكرم إضافة إلى حسن أخلاقه مع أصحابه وغيرهم^(٢)، وكان أخوه الكامل يدرك هذه الحقائق فحينما بلغه نبأ وفاته قال: "والله لولم يمت لراحت البلاد منا، ف قيل له : لك من باب الموصل إلى اليمن، فايش تلتفت إليه، فقال: اسكتوا كان كريماً والكرم مامعه حديث".^(٣) ويبدو أن الكامل كان يقصد بكرمه القدرة على اصطناع الرجال بالمال فلقد كانت العطايا والهبات وسيلة بين الراعى والرعية آنذاك تؤلف قلوب الرجال وتشتري الأعوان والأنصار.

وفى الوقت الذى كان فيه الخلاف على أشده بين ملوك الإسلام كان أعداؤهم من المغول والصليبيين يغيرون على البلدان الإسلامية ويفعلون بها الأفاعيل ومن ذلك نزول المغول على إربل سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م وحصارهم الشديد لها فقد نصبوا عليها المجانيق وهدموا جزءاً من سور المدينة ودخلوها عنوة فتحصن أهل

(١) أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٣٧، ١٤٧، وبصرى: من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران، وصرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، انظر باقوت، معجم البلدان.

(٢) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٥.

(٣) ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣١٨، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧١١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢١، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٧٥. على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

المدينة ومعظم العسكر بالقلعة، وقتلوا كل من ظفروا به^(١)، فخاف خليفة بغداد من أن تمتد هذه الغارة عليهم فأوكل إلى نائب الوزارة مهمة الدفاع عن المدينة، الذى أحضر بدوره المدرسين والفقهاء واستفتاهم إذا اتفق الجهاد والحج أيهما أولى؟ فأفتوا بأن الجهاد أولى فأبطل الحج فى هذه السنة ونصبت المجانيق على سور بغداد وأصلح الخندق حولها، واشتد حصار المغول لقلعة إربل حتى نقص الماء عندهم فمات منهم الوف كثيرة بالعطش ولم يستطيعوا أن يدفئوهم بالقلعة لضيق المكان فعمدوا إلى إحراقهم بالنار وعاث المغول فى البلد فأسروا وقتلوا ونهبوا وسبوا ولما بلغهم وصول عسكر بغداد رجعوا إلى بلادهم فى ذى الحجة سنة ٦٣٤هـ / اغسطس ١٢٣٧م.^(٢)

كما أن الخصم الثانى للأمة الإسلامية وهم الصليبيون لم يكونوا أقل خطورة من المغول بل أن عداوتهم للإسلام والمسلمين أشد من عداوة المغول فهى عداوة نابعة من عقيدتهم الباطلة قال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾^(٣)، فتشاغل ملوك الإسلام فى هذه الفترة بالعداء والبغضاء فيما بينهم وشن الحملات ضد بعضهم البعض مما جعل بعض قلوب الصليبيين فى بلاد الشام تتحرك لتغير على بعض المناطق الإسلامية ومن ذلك ماقامت به الداوية^(٤) التى تحتل

(١) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٥٤، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٦٩٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٩٦، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٦٥، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٨٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٣٧١.

(٢) ابن الفوطى، المصدر السابق، ص ٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٥٦، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجوزى، ص ١٦٢.

(٣) سورة البقرة، آية ١٢٠.

(٤) الداوية: هى طائفة فرسان الهيكل، وتختلف عن الاستبارية فى كونها نشأت أصلاً على أساس حربى سنة ١١١٨م/١١١٨م، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الاقصى مقراً لها، وتعهد اتباعها بحماية الطريق بين يافا وبين المقدس، ثم أسهم فرسان الداوية فى جميع الأعمال العدائية التى قام بها الصليبيون فى بلاد

بغراس من الهجوم على العمق بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب سنة ٦٣٤هـ وأخذوا معهم أغناماً ومواشي كثيرة للتركمان وغيرهم.^(١)

لم تسكت مملكة حلب على ما قام به الداوية في العمق فأعدوا العدة وسيروا لهم عسكر حلب وجعلوا قيادته بيد الملك المعظم فخر الدين تورنشاہ بن صلاح الدين، فسار هذا الجيش حتى نازل بغراس وضرب الحصار حوله وتم ضرب سورہ بالمنجنیق واشتد الكرب على الداوية بعد أن نفذت ذخائرهم وأشرف الحصن أن يقع في أيدي الحلبيين لولا تدخل الابرنس صاحب أنطاكية الذي شفع فيهم فرأى قائد العسكر الحلبي المصلحة في إجابته إلى ذلك وتم عقد الهدنة مع الداوية على بغراس ورحلوا عنه بعد أن أوشكل على السقوط في أيديهم.^(٢)

لم تستمر هذه الهدنة فترة طويلة نظراً لما عرف به الصليبيون من غدر وخيانة ونقض للعهود والمواثيق، فعندما سار العسكر الحلبي عن بغراس ونزلوا بالقرب من دربساك^(٣)، جمعت الداوية قواتها وطلبوا النجدة من صاحب جبيل^(٤) وغيره من الفرنج وساروا من ناحية حجر شغلان^(٥) إلى دربساك ليباغتوا أهله وينزلوا بهم بأسهم الشديد، وكشفت تحركاتهم لأهل الدربساك فاستعدوا للدفاع عن أنفسهم

الشام وأصبحت الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الاستتارية وشكلت مع الاستتارية أقوى دعائتين للوجود الصليبي في بلاد الشام، انظر على عوده، بلاد الشام، قبيل الغزو المغولي، ص ٢١٧، حاشية ٣.

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ١٣٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٠، وبغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس، والعمق: كورة بنواحي حلب بالشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣٢، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٠-٢٣١، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، ابن الوردي تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٦-٢٣٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٣٤هـ. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٣.

(٣) دربساك: من أعمال حلب وهي قلعة مرتفعة لها بستين وشرقها مروج واسعة، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان.

(٤) جبيل: بلد مشهور في شرقي بيروت على ثمانية فرسخ منها، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) حجر شغلان: حصن في جبل اللكام قرب أنطاكية وهو للداوية من الفرنج، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ووصل إليهم الفرنج فقاتلوهم قتالاً شديداً وحموا الربض منهم. وصل خبر هذه الغارة العسكر الحلبى النازل بالقرب منهم، فساروا لتجدة اخوانهم المسلمين، وعند وصولهم وجدوا الفرنج قد تعبوا وكلت خيلهم فأوقعوا بهم وأنزلوا بهم شر هزيمة حيث قتل منهم خلق كثير، وأسروا جماعة كبيرة من فرسانهم وجنودهم ولم ينج منهم إلا القليل " وكان هذا الفتح من الفتوح الجلييلة المشهورة".^(١)

لقد كان هذا العمل الذى قامت به مملكة حلب عملاً مشرفاً يبين للفرنج أن الأمة الإسلامية مهما حدث لها فأنها لن تموت ولن تتخلى عن الدفاع عن أراضيها ومقدساتها ونصرة المسلمين هذا العمل كان من قبل مملكة واحدة من الممالك الإسلامية الموجودة فى تلك الفترة، فكيف لو اجتمعت هذه الممالك تحت قيادة واحدة وهدف واحد ورأى واحد هل يمكن أن يكون للصليبيين وجود فى بلاد الشام؟ وهل يمكن للمغول الذين عاثوا فى بلاد المسلمين الفساد أن يجروا على الغارة على البلدان الإسلامية؟

للأسف الشديد فإن هذا الأمر لم يكن يطرأ على بال أحد من الملوك إلا فى سبيل توسيع مملكته على حساب الممالك الأخرى واتخاذ كافة الاستعدادات العسكرية من أجل ذلك، ولعل ذلك يتضح فيما حصل من حوادث بعد وفاة الأشرف فقد كانت وفاته إيذاناً بفتح مرحلة أخرى من تاريخ بنى أيوب أشد قلقاً واضطراباً من المرحلة السابقة وهى مايسمىها بعض المؤرخين بمرحلة الحرب الأهلية التى استنزفت كثير من طاقات الأمة وقدراتها المادية والبشرية وفتحت المجال أمام القوى المعادية للإستفادة من هذا الصراع.^(٢)

وعلى اية حال فبعد وفاة الأشرف سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م استولى أخوه الصالح

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٣٢-١٣٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣١، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٧، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٤هـ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٧.

عماد الدين إسماعيل على دمشق وبعليك وجميع الأعمال التابعة لدمشق، كما أرسل ابنه نور الدين محمود إلى الشرق ليتسلم من نواب الأشراف، سنجار ونصيبين والخابور ولخوفه الشديد من أخيه الكامل أرسل إلى ملوك الشام يطلب منهم تجديد الحلف السابق الذي قرره الملك الأشراف، فأجابه المجاهد صاحب حمص والحليون وامتنع المظفر صاحب حماة وأبدى ميله إلى خاله الملك الكامل^(١)، وحاول المظفر أن يجد له مبرراً لعمله ذلك فأرسل إلى المجاهد صاحب حمص يقول: "أنى لأجيب إلا بشرط أن تعطيني سلمية وقلعة شميمش"^(٢) وهو يعلم أنه لن يتخلى عنها، ثم أرسل إلى خاله السلطان الكامل يعلمه بانتماؤه إليه وأنه لم يلجأ إلى موافقة ملوك الشام إلا خوفاً منهم على مملكته، وقبل الكامل عذره ووعد أنه يأخذ له سلمية وقلعتها من صاحب حمص وحلف له على ذلك.

حاول الحليون أن يتداركو الأمر فأرسلوا وفداً بزعامة المؤرخ كمال الدين بن العديم إلى حمص وحماة للتوفيق بين المجاهد والمظفر واقناع المظفر بعدم الخروج على حلفهم السابق ولكن المظفر اشتط في مطالبه وفشلت جهود الحليين في ذلك.^(٣) تواترت الأخبار بخروج السلطان الكامل من مصر إلى الشام فأخذ الملك الصالح إسماعيل في تهيئة أسباب الحصار فحصن المدينة وزودها بما تحتاج إليه من السلاح والرجال ووزع الأبراج على الأمراء وخرج من عنده المجاهد صاحب حمص عائداً إلى بلده بعد أن تعهد بإرسال الأموال والعساكر إلى دمشق، كما خرج عز الدين ايبك المعظمي إلى صرخد لتدبير شؤون بلده ثم يعود لمساندة دمشق، ولم يكتف الصالح إسماعيل بذلك بل أرسل رسولاً إلى غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم يطلب منه

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٤٧-١٤٨، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٨-

١٨٠٩، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٦، ابو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٧.

(٢) قلعة شميمش: هي إحدى بلاد كورة حمص، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨٢، حاشية ٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٧-١٤٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو

المغولي، ص ١٤٨.

مساعدته ضد أخيه الكامل^(١) خرج الملك الكامل من مصر ثالث عشر صفر سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م بعد أن استتاب ولده العادل بمصر واصطحب معه الناصر داود "وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان تقرر بينهما" وقبل أن يصل إلى دمشق كاتب الناصر داود نائب الأشرف بقلعة عجلون على أن يسلمه القلعة مقابل مال يدفعه إليه، فوافق على ذلك وتسلمها نواب الناصر داود، ولم ينكر الملك الكامل على الناصر داود هذا التصرف مخافة أن ينشق عنه وينضم لجماعة الصالح إسماعيل فيصعب عليه بعد ذلك السيطرة على دمشق ومن ثم الهيمنة على بلاد الشام.^(٢)

وما إن علم الصالح إسماعيل بنزول أخيه الملك الكامل في غزة^(٣) حتى جد في تحصين البلد وقطع الجسور وعمل الستائر وأمر بأن لا يبقى أحد من العسكر خارج دمشق كما أصدر أوامره بأخذ دور كل من عرف بميله إلى الكامل وأن لا يبقى أحد بالعقبة ومقر حجاج^(٤) وتهدهم بالنهب إن لم ينصاعوا لأوامره فتأذى الناس من ذلك، وأمر بإقامة السدود وحفر الخنادق لتكون حائلاً دون تقدم قوات الكامل إلى البلد ثم فرق السلاح ورتب العساكر والأمرء على الأسوار وقيل وصول القوات المصرية إلى دمشق وصلت إليها نجدة حمص وحلب بقيادة ناصح الدين الفارسي كما وصل إليها عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد الذي لم يستطع الوصول إلى المدينة إلا بشق

(١) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٥-٢٣٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٨.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥١، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٦، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٠، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٨-١٤٩.

(٣) غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهى من نواحي فلسطين غربى عسقلان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) العقبة، أو العقبة: من أحياء دمشق المعروفة اليوم. انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٥٠، حاشية ١. وقصر حجاج: أيضا من أحياء دمشق الواقعة خارج الأسوار. انظر ياقوت، معجم البلدان.

الأنفس نظراً لشدة الزحام في المدينة.^(١)

سار السلطان الكامل ومعه ابن أخيه الناصر داود من غزة إلى دمشق في ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٣٥ هـ / ديسمبر ١٢٣٧ م وضربا الحصار حول دمشق، وعمل الكامل له يزكاً عند مسجد القدم، وكان الصالح إسماعيل حريصاً على أن لا يستفيد جيش الكامل من الأحياء الخارجة عن دمشق فعمد إلى إحراق الخانات والطواحين ونهب الدور وأخربها فتضجر الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك فلاذوا بالدخول إلى دمشق التي اكتظت بهم فآثر ذلك على تنقلات العسكر داخل المدينة.^(٢)

كان عسكر دمشق يخرجون إلى العسكر المصري ويقاثلونهم في حرب أشبه بحرب العصابات فكان أول خروجهم إلى ميدان الحصن حيث تقابلوا مع عسكر الكامل ولم يسفر ذلك عن انتصار أحد منهم فرجع عسكر دمشق إلى داخل المدينة، وأرسل الصالح إسماعيل إلى المجاهد يطلب منه القدوم لمساندته ضد الكامل فاعتذر المجاهد عن ذلك لأنه كان يخشى على بلاده من صاحب حماة الذي يترقب الفرصة المناسبة للانتقام منه ومع ذلك سير إليه نجدة تقدر بحوالى مائتى رجل، تمكن عسكر الكامل من القبض على ما يقرب من خمسين رجلاً من أفرادها وأمر الكامل بشنقهم في البساتين نكاية بصاحب حمص، ووصل بعض أفراد هذه النجدة إلى دمشق وهم في غاية التعب.^(٣)

واستمر القتال بين الطرفين خارج دمشق وكل منهم يسعى إلى خراب الدور والخانات والجواسق^(٤) والقنى وقطع الأشجار " وصار كل من له غرض مع أحد

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٣٦، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨.

(٢) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٦، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥ هـ، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٧.

(٣) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٦، الأصفهاني، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٥ هـ، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٤) الجواسق: جمع جوسق وهو لفظ فارسي معناه القصر، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص

وهو غائب خرج إلى داره فأخربها وربما أحرقها " وبعد أيام ضرب البوق فخرج عسكر دمشق إلى قصر حجاج حيث التقوا مع عسكر الكامل فكان النصر للدمشقيين وأسروا خمسة عشر فارساً وعادوا بهم إلى دمشق. واستمرت الحرب سجلاً بين الطرفين فانزعج الناصر داود من ذلك وأراد أن تسقط المدينة في أسرع وقت حتى يعود إليه ملك أبيه فزحف في جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م من العقبة إلى باب الفراديس كما زحف ركن الدين الهيجارى من جهة باب توما ووصلا إلى قرب الباب حيث كانت سهامهم تصل إلى داخل المدينة واشتد القتال وكادت تسقط دمشق في يد الناصر داود إلا أن عمه الكامل عندما شعر بذلك أرسل إليه أن يكف عن القتال حتى لاتقع في يده فيكون بذلك صاحب حق فيها ومن هنا تظهر سوء نية الملك الكامل تجاه ابن أخيه الناصر داود.^(١)

وفي صباح اليوم التالى لمحاولة الناصر داود خراج الصالح إسماعيل " بالحجارين والزراقين والخراشفة^(٢) فحرقوا ونهبوا وخربوا ودمروا العقبة وقصر الحجاج والشاغور^(٣) وباب توما وباب السلامة" فذعر سكان دمشق وازداد خوفهم وضائق عليهم الأرض بما رحبت وارتفعت الأسعار فأصبح الانسان يشتري غرارة القمح بخمسة عشر درهماً ويطحنها بثلاثين درهماً وخاف الصالح إسماعيل نتيجة لذلك أن يتعاون الأهالى مع السلطان الكامل فتسقط المدينة عنوة في يده، لذلك أرسل إلى أخيه الكامل يقول له " متى فتحتها عنوة وقهراً رميت النار في أربع جوانبها فأحرقتها جميعاً

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥١، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٦، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٠.

(٢) الزراقيين: جمع زراق وهو رامى النفط من الزراقة، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ص ٢١، حاشية ١٠.

(٣) الشاغور: محلة بباب الصغير ظاهر مدينة دمشق، انظر الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٨، حاشية ١٥.

ولالى ولالك " وكان الكامل يدرك حقيقة هذا التهديد من أخيه الصالح إسماعيل فقبل الجميع وساطة رسول الخليفة فى الصلح^(١) بينهما على أن يعطى الصالح إسماعيل بعلبك واعمالها إضافة إلى ماييده من بصرى واعمالها، وتسلم الكامل دمشق فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ / ٢٦ يناير ١٢٣٨م.^(٢)

وبعد أن استقر الكامل بقلعة دمشق أخذ الناصر داود ينتظر الوقت الذى يسلم إليه عمه الكامل مدينة دمشق إلا أن عمه الكامل أخذ يماطل ويسوف فى ذلك ولما أخرج امام ابن أخيه أراد أن يبعده ولولفترة مؤقتة عن دمشق حتى يتفرغ للسيطرة على بلاد الشام ووجد الفرصة مواتية عندما جاء رسول الخليفة يطلب من الكامل تجهيز العساكر إليه ليتمكنوا من صد المغول عن بغداد، فبادر باعداد قوة تقدر بحوالى عشرة آلاف مقاتل جعل قيادتها للناصر داود إلا أن هذه الحملة لم يقدر لها أن تسير بسبب وفاة الملك الكامل بعد شهرين من دخوله دمشق فى يوم الاربعاء ٢١ رجب سنة ٦٣٥هـ / ١٠ مارس ١٢٣٨م.^(٣) ومن ثم تغيرت موازين الأحداث بعد وفاته فقد ازدادت أطماع بعض ملوك بنى أيوب فى السيطرة على دمشق وأمن البعض الآخر على بلاده واستغل الخوارزميون الفرصة للحصول على أكبر قدر من المكاسب المادية.

-
- (١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧١٧، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٧، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجوزى، ص ١٦٨-١٦٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٠.
- (٢) الاصفهاني، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن واصل، المصدر السابق، ورقة ٢٣٧، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٧، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٩، أبوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٠، ابن واصل مفرج الكرب، ج ٥، ص ١٥٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٠.
- (٣) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٥٧-٢٥٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢١، ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٢٦-٣٢٧، يوسف حسن غوانمه، امارة الكرك، ص ٢٤٦-٢٤٧، على عوده، المرجع السابق، ص ٣١٣.

هجوم الخوارزميين على مملكة حمص

(٦٣٦هـ - ١٢٣٩م)

سبق أن اشرنا إلى مسير الكامل إلى الشرق لفتح آمد، وأنه اصطحب معه فى حملته هذه ولده الصالح أيوب ليكون نائبه هناك وولى عهده فيها ولم يكن عمله ذلك إلا مجرد صورة فقد كان الحاكم الفعلى من قبل الكامل على بلاده فى الشرق هو شمس الدين صواب العادلى، ولم يكن الصالح أيوب يتصرف فى شيء من الأمور إلا بعد الرجوع إليه ولم تطل فترة حكمه حيث توفى سنة ٦٣٤هـ، فعهد الكامل بإدارة الحكم فى البلاد الشرقية إلى ابنه الصالح وسلم إليه حصن كيفا، فاصبح الصالح يحكم آمد وبلادها وحران والرقه والرها وسروج ورأس عين ومايتبعها من البلاد.^(١)

حينئذ أراد الصالح أيوب أن يقوى عسكره ليحمى بلاده من أي طارق يطرقها، ووجد الفرصة مواتية له عند خروج الخوارزمية من اسيا الصغرى^(٢) فبعد وفاة السلطان كيقياذ سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م تولى الحكم بعده ابنه غياث الدين كيخسرو الثانى الذى خشى من تمرد الخوارزمية عليه فبادر بالقبض على قائدهم بركة خان، ولما بلغهم هذا الخبر خرجوا مسرعين من بلاد الروم وكانوا اثناء خروجهم يعيشون فى الارض الفساد فينهبون ويسبون ويقتلون فى كل بلد يدخلونه حتى وصلوا إلى ملطية^(٣) ثم عبروا الفرات، ولما وصلوا إلى حدود حصن زياد قابلهم عسكر تلك الأطراف وانكسروا أمامهم بعد أن قتل صاحب حصن زياد^(٤)، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا على

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٣٣-١٣٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٠.

(٢) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٨٣.

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تناخم الشام وهى للمسلمين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) حصن زياد: بأرض ارمينية ويعرف بخرنبرت وهو بين آمد وملطيه، انظر ياقوت، معجم البلدان.

سميساط^(١) ثم ذهبوا إلى سويرك حيث استقر بهم المقام هناك، واتخذوا منها قاعدة للاغارة على الضواحي القريبة منهم.^(٢)

فأرسل إليهم الصالح أيوب يستميلهم إليه، وكتب إلى والده الملك الكامل يستأذنه في استخدامهم في جيشه، فأذن له في ضمهم إلى جيشه، واستجاب له الخوارزمية وأعطاهم مجموعة من الإقطاعات في الجزيرة حتى يضمن ولاءهم له، وتقوى الصالح أيوب بانضمامهم إليه ولحق بهم بعد فترة وجيزة زعيمهم بركة خان الذي تمكن من التخلص من غياث الدين كيخسرو الثاني.^(٣)

ومن تلك اللحظة تبدأ مرحلة جديدة للخوارزميين بالمشاركة في الصراع الدائر في بلاد الشام بين ملوك بني أيوب إذا كان لهم دور كبير في تغيير موازين القوى وكانوا على استعداد للانضمام إلى أي قوى تمنحهم أكبر قدر من المال والإقطاعات الجزيلة فلم تكن لهم أهداف سامية يسعون إلى تحقيقها، وإنما كان جل اهتمامهم السعى من أجل الحصول على ما يعيشون به، وهذا الأمر لا يتنافى مع ما قاموا به من دور فعال في استرداد بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وهزيمة الصليبيين والتي سيأتي الحديث عنها فيما بعد.

ومن الواضح أن وفاة الأشرف كانت إيذاناً بفتح مرحلة أخرى من تاريخ بني أيوب أشد قلقاً واضطراباً من المرحلة السابقة وهي ما يصح لنا أن نطلق عليها فترة

(١) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، ص ٢٥٥، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٨٣، مختصر الدول، ص ٤٣٧-٤٣٨، ويذكر ابن العبري أن الملك الناصر صاحب حلب خاف من الخوارزمية على بلاده فبادر باقطاعهم ما بين النهرين الرها وحران وذكر أنهم كفوا عن الفساد والغارات.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٣٥، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٥٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٢، الخطيب العمري، الدر المكنون، ق ٢٥١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٩٧-٢٩٨، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٦٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٥٦.

الحروب الأهلية التي استنزفت كثيراً من طاقات الأمة وقدراتها المادية والبشرية وبذلك فتحت الفرصة أمام الخوارزميين للمشاركة في هذه الحروب لتحقيق مصالحهم الشخصية.^(١)

وكان أول عمل شارك فيه الخوارزمية والصالح أيوب في هذه الفترة هو المسير معه إلى سنجار حيث أمره والده وكان محاصراً لدمشق بالتوجه إليها وضمها إلى مملكته، فسار الصالح أيوب بقواته الخوارزمية إلى سنجار فحاصرها وضيق الخناق عليها حتى اضطر ابن عمه المنصور بن الصالح إسماعيل إلا أن يسلمها بالاحسان، فتسلمها الصالح مع ما يتبعها من البلاد.^(٢)

كانت حمص من ممالك الشام التي كان الكامل يسعى للسيطرة عليها بعد دمشق إذ أن صاحبها المجاهد كان من أبرز الداعين إلى التصدي لاطماع الكامل التوسعية في بلاد الشام.

لذلك سير أثناء حصاره لدمشق توكيعاً إلى المظفر صاحب حماه بسلمية، فسار إليها المظفر وتسلمها، كما أرسل في نفس الوقت إلى ابنه الصالح أيوب بأن يتوجه من سنجار إلى حمص، فسار الصالح أيوب بقواته من الخوارزمية إلى الرحبة^(٣) وهي للمجاهد فحاصرها وضيق الخناق عليها وبعد سقوط دمشق أمر السلطان الكامل قواته بالتوجه إلى حمص وبعث في نفس الوقت إلى المظفر صاحب حماة يأمره بالتوجه إلى حمص، فسار بقواته ونزل في الرستين^(٤) "واسقط أثناء ذلك في يد المجاهد وخاف من الملك الكامل، وبعث يتضرع إلى الملك

(١) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥٣، عقاف صيرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٣.

(٣) الرحبة: قرية من قرى دمشق، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) الرستين: بليدة قديمة في نصف الطريق بين حماة وحمص، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ويخضع له، فلم يلتفت إليه وأصر على قصده".^(١)

أيقن صاحب حمص بالهلاك وكان يتوقع وصول قوات الكامل إليه في كل لحظة وبينما هو في كربه وخوفه جاءه اليسر بعد العسر إذ وصل إليه الخبر بوفاة الكامل^(٢) فطار فرحاً وسروراً بهذا الخبر وأنه لن يجد بعد ذلك صعوبة في المحافظة على مملكته، ومن شدة فرحه قال لأولاده: " شدوا لي على خيل الكرة لأنزل إلى الميدان والعب بالصوالجة" فاستغرب بنوه من فعله إذ لم يطلعهم على الخبر فقالوا له: " في مثل هذا الوقت الصعب تفعل هذا" فرفع صوته وقال " مات الكامل".^(٣)

ومن الممالك الأخرى التي كانت على خوف شديد من الكامل بعد سيطرته على دمشق مملكة حلب فقد كانت نجدة حلب موجودة داخل دمشق للدفاع عنها مع الصالح إسماعيل إلا أن الكامل لم يتعرض لهم فرجعوا سالمين إلى حلب ومع ذلك لم تطمئن صاحبة جدة الملك الناصر لذلك فقامت باتخاذ الإجراءات اللازمة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٧٨، ١٥٢-١٥٣، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٧، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٠-١٦١، الاصفهاني، البستان لجامع، حوادث سنة ٦٣٥ هـ.

(٢) الملك الكامل ابن العادل ملكاً مهاباً حازماً شجاعاً أديباً محباً للعلم والعلماء ويحضر مجلسه الفقهاء كل ليلة ويتحدث معهم ويشاركونهم في فنونهم، وكان كثير السياسة حسن التدبير غير أنه كان يحب جمع المال ويجهد في تحصيله وكان يحضر أرباب لدواوين أمامه ويحاسبهم بنفسه، انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٣٨، عبد الباسط الملطى، نزعة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، ص ٥٨.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٦، الخطيب العمري، الدر المكنون، ص ٢٥٢، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦١-١٦٢، ابن الوردي، تاريخ ابن السوردي، ج ٢، ص ٢٣٨، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣١٩.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٨٠، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٥.

للمحافظة على هذه المملكة من ذلك أنها حضرت أمراء حلب وعلى رأسهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين وكذلك القواد والرؤساء واستحلفتهم بأن لا يخرجوا على الملك الناصر وينضموا للكامل وأن يشاركوا في الدفاع عن حلب ضد عسكر الكامل.^(١)

ثم استعدت للحصار المرتقب فحشدت حلب بالذخائر والعتاد والاقوات وكل مستلزمات الحصار ولم تكتف بذلك بل سعت إلى الاستعانة بجماعة من الخوازمية الفارين من بلاد الروم كما استخدم قنغر التركمانى ومن فر من عسكر الملك الكامل.، وأرسلت إلى غياث الدين كيخسروا الثاني تطلب منه النجدة فأرسل إليها مجموعة من أجود عساكره ولحرص غياث الدين على مملكة حلب أرسل إلى الملك الكامل يحذره من قصد حلب^(٢)، وسرعان ما تغيرت الأمور في كل من حمص وحلب عندما سمعوا بوفاة الملك الكامل وبدأوا يستعدون للانتقام من صاحب حماه الذى كان مقيماً بالرستين ينتظر وصول خاله الكامل ليحاصر معه حمص، فأرسل المجاهد عسكره فأخذوها وطردوا عسكر المظفر منها ثم قطع القناة التى يصل الماء منها إلى حماة فخربت كثير من بساتينها ولم يكتف بذلك بل عزم على قطع نهر العاصى عن حماة حتى تخرب بساتينها فيسهل عليه بعد ذلك أخذها، فسد النهر وانقطع الماء عن حماه لمدة يومين مما اثر على الحياة داخل المدينة، إلا أن الماء عاد إليها بعد أن انهدم السد الذى اقامه المجاهد ولما فشلت خطته تلك أخذ يغير على مملكة حماه ويدمر وينهب ويفسد في ضواحيها.^(٣)

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٠-١٨١، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٥-

٢٣٦، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٦-١٧٨، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٩، الاصفهاني، البستان الجامع،

حوادث سنة ٦٣٥هـ، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٢، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ١٦٢، ابن الوردي،

تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٨، المقرئى، المصدر السابق، ص ١، ق ٢، ص ٢٩٦.

أما أهل حلب فلم يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه ما قام به المظفر من الانضمام إلى الكامل ضد ممالك الشام بما فيها حلب فأمرت صاحبة ضيفة خاتون عسكر حلب بالهجوم على مملكة حماه، ورأت أن تكون البداية بالاستيلاء على المعرة^(١) وضواحيها ثم التوجه إلى حماه، خرجت العساكر الحلبية بقيادة المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين من حلب ونزلوا المعرة واستولوا عليها ثم حاصروا قلعتها التي بناها المظفر، ولما أدرك صاحب حماه خطورة الموقف أرسل رسولا إلى خالته ضيفة خاتون يستعطفها إلا أنه لم يؤذن له بمقابلتها فرجع إلى حماه، ونصب الحلبيون المنجنيق على قلعة المعرة وواصلوا قذفها بالحجارة حتى استسلمت سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م.^(٢)

ثم سارت القوات الحلبية إلى حماه وضربوا الحصار حولها ونهبوا قراها ومزارعها واستمر الحصار إلى آخر السنة فتضجر الناس من طول الحصار إلا أن صاحبة أوعزت إليهم بعدم تضيق الخناق على حماه ونهتهم عن استخدام المنجنيق في الحصار فلم يكن قصدها الاستيلاء عليها وإزالة ملك ابن أختها وإنما كان هدفها معاقبته على معاضدته للكامل وتحذيره من التعرض للمعرة مرة أخرى.^(٣) ولما تحقق للصاحبة ما أرادته أمرت جيش حلب بالانسحاب من حماه فعاد الجيش إلى حلب سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م وخرجت بذلك المعرة وسلمية لحساب

(١) المعرة: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٨١-١٨٢، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٩، الاصفهاني، البستان لجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ١٦٢، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤٠٩-٤١٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٥.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٨، ٢٤٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٢، ١٩١، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ١٣٩، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٦، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٥٦.

كل من حلب وحمص ولم يبق بيد المظفر خارج حماه سوى بعرين وكانت بها قلعة حصينة فخشي المظفر أن تقع في يد اعدائه فتكون شوكة في نحره فأمر بهدمها.^(١)

أما دمشق فقد اضطربت الأمور فيها بعد موت الكامل فكل أمير من بني أيوب كان يطمع في أن ينصب حاكماً عليها بما فيهم الناصر داود الذي أحس بقرب الفرج فاجتمع كبار القواد في المعسكر المصري لتقرير مصير دمشق، وأول ما قاموا به في هذا الأجتماع هو تحليف العساكر المصرية والشامية للعادل ابن الملك الكامل فحلفوا جميعهم يوم الخميس ٢٠ رجب سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م ولم يتفقوا في اجتماعهم هذا على من يتولى دمشق نيابة عن العادل^(٢)، فخرج أحد الأمراء إلى الناصر داود وكان مقيماً بدار أسامة فقال له " اخرج المال وفرقه في ممالكك ابيك والعوام معك وتملك البلد وابقوا في القلعة محصورين " فلم يفعل الناصر داود شيئاً من ذلك لأنه كان يظن أن الأمور تجري لصالحه وأنه لا يوجد له أي منافس على دمشق كما أن الأمراء على علم بوعد الملك الكامل له بتملك دمشق^(٣)، فاجتمع، الأمراء مرة أخرى بقلعة دمشق وتشاؤروا فيمن ينوب عن العادل في حكم دمشق فوقع اختيارهم على الجواد لأنهم كانوا يخشون إن حكم الناصر داود دمشق أن يستبد بالأمر كما أن عماد الدين بن شيخ الشيوخ كان يكره الناصر داود لأنه كان يخطئه ويستجهله في مجلس الكامل، فكان له دور كبير في تنحية الناصر داود

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٩٨، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٥.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٠٧، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٦١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٣، الخطيب العمري، الدر المكنون، ص ٢٥٢، عبد الملك العصامي، سمط النجوم العوالي، ج ٢، ص ١٤.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٠٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٣٩، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٦٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٣-٣٠٤.

عن حكم دمشق.^(١)

وبعد إختيار الجواد نائباً عن العادل بدمشق أجمع الأمراء على ضرورة اخراج الناصر داود من دمشق فذهب إليه أحد الأمراء وقال له " وايش قعودك فى بلد القوم قم قم " فخرج الناصر داود من داره إلى قصره بالقابون^(٢) و مر بجوار القلعة فما شك أحد من الناس فى حكم الناصر داود للمدينة وعندما تجاوز القلعة ووصل إلى باب الفرج صاحت العامة واعلنوا رفضهم لخروجه وكانوا مائلين إليه ويحبونه ونادوا باسمه ملكاً عليهم إلا أن أحد القادة جاء بعسكره وفرق الناس وضربهم بالدبابيس^(٣) وخرج الناصر داود خائفاً يترقب القبض عليه فسار إلى القابون وأقام بها عدة أيام ثم مضى إلى عجلون بعد أن عزم أمراء دمشق القبض عليه وتحصن بها.^(٤)

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٧٢، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٨، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٣٩، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٩، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٦، النعيمى، المدارس فى تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٠-٢٨١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٤.

(٢) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل وأحد فى طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الدبابيس: مفردا دبوس عبارة عن آلة من حديد فى طرفها كتلة صغيرة يحملها الفرسان فى السروج تحت أرجلهم لاستخدامها فى تهشيم الخوذ المعدنية. انظر عبدالله الغامدي، مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص ٦٠، حاشية ٦.

(٤) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٠٧-٧٠٨، اليونينى، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٩، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٨، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٠٤، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٩-١٧٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٠، النعيمى، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨١. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٢.

ولقد فوت الناصر داود الفرصة عليه مرة أخرى فلو أنه انفق الأموال على الأمراء والقواد والاعيان لتمكن من السيطرة على دمشق بسهولة ويسر إلا أنه وكما سبق أن أشرنا لا يمتلك الحنكة السياسية المطلوبة في مثل هذه المواقف وعلى العكس من ذلك نجد الجواد يقوم بفتح خزائن الكامل وينفق الأموال على كبار القادة والأمراء فقد قيل أنه " فرق ستة آلاف دينار وخلع خمسة آلاف خلعه وابطل المكوس والخمور ونفى الخواطي " فثبت بذلك حكمه لمدينة دمشق، وأعلن أنه نائباً عن ابن عمه العادل فانسحبت عساكر الكامل عائدة إلى مصر، وبقي في دمشق بعض العسكر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ لحماية دمشق من الناصر داود والممالك الأشرفية الذين كانوا يعدون شوكة قوية بقيادة الأمير عز الدين ايبك الأسمر الأشرفي^(١)

خرج الناصر داود بقواته إلى فلسطين للقيام بعمل عسكري يتمكن فيه من توسيع حدود مملكته ومن ثم التوجه إلى دمشق للسيطرة عليها، فاستولى على غزة والساحل الذي كان بيد الملك الكامل وجند أعداداً كبيرة من المرتزقة وأقام بغزة يترقب تطور الأحداث في المنطقة^(٢) فلما سمع بعزم الجواد على الاستبداد بملك دمشق أرسل إلى ابن عمه العادل يطلب منه أن يعطيه دمشق ليكون نائباً عنه بها،

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٠٧-٧٠٨، ابن واصل مفرج الكرب، ج ٥، ص ١٧٣-١٧٥، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٣، ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦١، الذهبي المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٧٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٥، ١٩٢، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٠٧-٧٠٨، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٥، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤٠.

فلم يستجب العادل فأرسل إليه مرة أخرى يقول له " إن إياك السلطان الملك الكامل التزم لى أنه يعيد مملكة والدى، وأنا قد وليت على البلاد الساحلية لأنها من جملتها، فتساعدنى على تسليم دمشق وباقى البلاد، وأكون من قبلك وفى طاعتك كما كنت مع إيبك، واستمرت المراسلات بينهما فى هذا المعنى ولم يتحقق طلب الناصر داود.^(١)

وما إن سمع الجواد باستيلاء الناصر داود على غزة والساحل حتى بادر بتجهيز العساكر للقضاء عليه قبل أن يتسع ملكه ويبقى حكمه لدمشق مهدداً بالخطر، فخرج بمن بقى من عساكر مصر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ وعساكر دمشق والمماليك الأشرفية واتجه نحو فلسطين لملاقاة الناصر داود وقال للأشرفية " كاتبوه وطمعوه " ليستدرجه فكاتبوه فانخدع بهذه الحيلة المدبرة من قبل الجواد فسار من غزة إلى نابلس فى سبعمائة فارس بامتعته وخزائنه وأمواله وجميع مدخراته وكانت تحمل على سبعمائة جمل وترك معظم عساكره خلفه ليلحقوا به فيما بعد، وأقام له دهليزاً على صبسطية^(٢) والجواد على حسين^(٣) ثم تقابل الطرفان فى معركة من جانب واحد انتصر فيها الجواد على الناصر داود فى مكان يسمى بظهر حمار^(٤) بين نابلس وجنين، وتمكن الناصر داود من الفرار من أرض المعركة ووقعت أمواله وخزائنه غنيمة سائغة للجواد وعساكره وكانت هذه الواقعة بالنسبة للناصر داود مثل القشة التى قصمت ظهر البعير، فقد أدت إلى فقره حيث فقد جميع مايملكه من مال ومتاع وبالتالي سيتخلى عنه

(١) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٥، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٩، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٩.

(٢) صبسطية: يقال لها سبطية بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان بها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) حسين: لم اقع لها على ترجمة فى المعاجم المتوفرة.

(٤) ظهر حمار: قرية بين نابلس ويسان بها قبر بنيامين أخى يوسف الصديق، انظر ياقوت، معجم البلدان.

كل من استخدم من العساكر.^(١)

لم يقف الخوارزمية من هذه الحوادث التي جرت بين ملوك بني أيوب بعد وفاة الكامل موقف المتفرج بل حاولوا أن يستثمروها لتحقيق مصالحهم الشخصية، فخرجوا عن طاعة الصالح أيوب وطمعوا فيه وهموا بالقبض عليه، فسارع بالإعتصام بسنجار تاركاً خلفه أمواله واشغاله فوقعت بأيدي الخوارزمية وتحكموا في البلاد الجزرية^(٢)، وأدى ذلك إلى طمع غياث الدين كيخسرو الثاني في أملاك الصالح أيوب وقسم مملكته على الملوك فأعطى صاحب حلب الناصر صلاح الدين الرها وسروج واعطى المنصور ناصر الدين الأرتقى صاحب ماردين سنجار ونصيبين واعطى المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص عانة^(٣) وبعض بلاد الخابور أما هو فقد عزم أن يكون من نصيبه أمد وسميساط.^(٤)

ولما سمع صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ بما يجرى حوله طمع في مملكة الصالح أيوب فسار بعساكره إلى سنجار في ذي القعدة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م

(١) ابن واصل مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٩٢-١٩٣، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٠٨، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٣، ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦١، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٨-١٧٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤١-٢٤٢، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٩-٢٧٠، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٨٦-٨٧، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٥، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٦٧.

(٣) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٥-١٨٦، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٦٩-٢٧٠.

وشدد الحصار عليها وكان يزعم أنه سوف يأخذه في قفص من حديد إلى بغداد لظلمه وتكبره وتجبره على الناس، وعندما أوشكت أن تسقط سنجار في يد بدر الدين لؤلؤ، أرسل الصالح أيوب قاضي سنجار بدر الدين يوسف بن الحسن الرززارى إلى الخوارزمية بعد أن حلق لحيته ودلاه من السور، فسار القاضي خفية إلى أن وصل إلى الخوارزمية واجتمع بهم وطلب منهم نصرة الصالح أيوب مقابل أعطيات وأموال كثيرة يتعهد بانفاذها إليهم^(١) وكانوا قد اتفقوا من قبل مع صاحب ماردين على دخول مملكة الصالح أيوب واستولوا على بعض القرى ووصلت غاراتهم إلى حران^(٢) ولعله يتضح لنا من خلال ماتقدم ذكره أن الخوارزمية لم يكونوا يعرفون الإخلاص في الطاعة والولاء وإنما كان إخلاصهم وولاهم لمن يدفع أكثر^(٣). وهذا الأمر ليس غريباً منهم فلقد صاروا بعد تفرقهم في بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى مجرد حفنة من الجنود المرتقة.

خاف المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب من سيطرة الخوارزمية على حران فهرب منها متخفياً إلا أنهم تبعوه وكادوا يقبضون عليه فنجوا منهم مع شردمة قليلة من اتباعه، وسار إلى منبج فاستجار بعمه أبيه صاحبة ضيفة خاتون جدة الناصر صاحب حلب فلم تجره وردته رداً جميلاً وقالت لرسوله " نخاف أن

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٣١، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٨٧، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٦٢.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٨٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٣) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٣٨.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٨٧-١٨٨، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١.

يطلبك منا غياث الدين سلطان الروم ولا يمكننا منعك منه".^(١)

فرجع إلى حران ووصله كتاب أييه الصالح أيوب يأمره بالذهاب إلى الخوارزمية وموافقتهم على جميع ما يطلبونه ثم يسير بهم إليه ليرفع عنه الحصار، ذهب المغيث عمر إلى الخوارزمية واجتمع بهم مع قاضي سنجار الذي تعهد لهم باقطاعات جزيلة في البلاد الجزرية بما فيها حران والرها فوافقوا على ذلك وحلفوا على نصره الصالح أيوب، سارت القوات الخوارزمية بقيادة حسام الدين بركة خان مع المغيث عمر وقاضي سنجار قاصدين فك الحصار عن الصالح أيوب ولما بلغ بدر الدين لؤلؤ وعسكره قرب القوات الخوارزمية منهم تركوا الحصار وكروا عائدين إلى بلادهم ولحقت بهم الخوارزمية وكسروهم كسرة عظيمة، فهرب بدر الدين لؤلؤ وعسكره إلى الموصل ووقعت أمواله واثقاله بيد الخوارزمية "وقوى الملك الصالح نجم الدين أيوب بهم وبهذا الفتح قوة عظيمة وعظم شأنه".^(٢)

وبعد هذا النصر سير الصالح أيوب قواته من الخوارزمية إلى آمد المحاصرة من قبل قوات صاحب الروم غياث الدين كيخسرو وكان بها ابنه المعظم توران شاه فوصلت الخوارزمية وكسروا بعض عسكر الروم وهرب الباقيون عائدين إلى بلادهم دون تحقيق غرضهم.^(٣)

ولكى يضمن الصالح أيوب ولاءهم له وعدم التخلي عنه في ساعة العسر سلم إليهم ما وقع الاتفاق عليه فاعطاهم حران والرها وزوج زعيمهم بركة خان بأخته

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٨-١٨٩، وانظر ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٢-٢٤٣، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص ٢٤٠، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن ابيك النوادر، كثر الدرر، ج ٧، ص ٣٣١، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٦٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٧، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٢.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٠، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١-٢٧٢، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٣.

لأمه، وبدأ الصالح أيوب يترقب الأحداث في مصر والشام على يستطيع بجنوده الخوارزمية أن يستأثر بحكم مصر والشام لأنه يرى أنه أحق من أخيه العادل باعتباره أكبر سناً منه^(١)، وفعلاً تطورت الأمور لصالح الصالح أيوب، فالناصر داود منى بهزيمة مؤلمة وخسارة فادحة والجواد يتمرد شيئاً فشيئاً من التبعية للعادل فبذل الأموال وألزم خطيب دمشق يذكر اسمه بعد اسم العادل^(٢)، فتوجس العادل خيفة من ذلك وأرسل إلى أبناء شيخ الشيوخ الأربعة وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين وقال لهم: "أنتم ضيعتم على ملك دمشق، فإن أبى الملك الكامل فتحها وتوفى وهو مالکها، فسلمتم دمشق وخزائن أبى إلى الملك الجواد، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن، وما أعرف عود دمشق لى وانتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم" فما كان من عماد الدين بن شيخ الشيوخ إلا أن استجاب لذلك وتعهد بارجاع دمشق إلى العادل لأنه هو المسئول الأول في اختيار الجواد ليكون نائباً على دمشق نيابة عن العادل.^(٣)

سار عماد الدين بن شيخ الشيوخ إلى دمشق واستقبله الجواد وأنزله بالقلعة، فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق إلى العادل وحذره من العصيان لأن ذلك سيؤدي إلى تحرك عسكر مصر نحوه فتتزع منه دمشق بالقوة وتقبض عليه وتقتله، وعرض عليه أن هو استجاب لهم وسلم دمشق أن يعطى اقطاعات جيدة في مصر، فلم يقتنع الجواد بذلك، وعندما عجز عماد الدين في اقناعه حاول زعزعة حكمه عن طريق اجتماعه بكبار المسئولين في دمشق واسقاط شرعية حكمه فقال لهم: "قد عزل

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٦١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٦.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٩٣، ١٩٨-١٩٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص

٢٣، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٦.

السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق فلاتدفعوا إليه مالاً ولا تقبلوا له قولاً".^(١)

و، ما أدرك الجواد تصميم العادل على أخذ دمشق منه، وأنه لا قبل له بمقاومته أرسل إلى الصالح أيوب يعرض عليه أخذ دمشق مقابل أن يعطيه سنجار والرقعة وعانة، فوافق الصالح أيوب على هذا العرض الذي طالما انتظره وزاد الجواد فأعطاه الجديدة^(٢) وجعلها باسم أحد مماليكه، ولما علم المجاهد صاحب حمص بهذا الاتفاق خرج من دمشق وكان مقيماً بها لأنه كان يطمع هو الآخر في ملك دمشق^(٣)، سار الصالح أيوب بقواته من الخوارزمية إلى دمشق^(٤) ولما قاربها خاف الجواد من عماد الدين بن الشيخ أن يتصل بالصالح أيوب ويحرضه ضده فيمتنع عن تسليم ما اتفق عليه، فبادر بالتخلص منه بأن دس عليه رجلاً اعترضه في الطريق وقتله سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م ثم قطع الخطبة للعادل وخطب للصالح أيوب وضرب السكة باسمه.^(٥)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٠٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٣-٢٤، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٦، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٧٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٧.

(٢) الجديدة: اسم لقلعة في كورة بين النهرين التي بين نصيبين والموصل وأعمال متصلة بأعمال حصن كيفا، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧١٨-٧١٩، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٩٣، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٣٢، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٣.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٤-٢٤٥، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٨٤.

(٥) ابن واصل المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٠-٢٠٢، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٣، ويذكر المقرئ، أن الجواد بعث إلى نواب الإسماعيلية في قتل ابن الشيخ ودفع لهم مالاً وقربه، فسير الإسماعيلية فدائنين فقتلاه على باب جامع دمشق سادس عشر جمادى الأول سنة ٦٣٦هـ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٤.

ولقد أقام الصالح أيوب قبل قدومه إلى دمشق ابنه توران شاه على بلاد الشرق يحكمها نيابة عنه، وطلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مساعدته وكانا قد اصطلحا ليرى مدى صدقه، حتى لا يغدر به ويهاجم أملاكه في الشرق اثناء غيابه ولكن يبدو أن صاحب الموصل أدرك أنه لا يستطيع أن يهاجم أملاك الصالح أيوب مرة أخرى مادام الخوارزمية موجودون في المنطقة لذلك سارع بارسال النجدة له، كما أرسل إلى المظفر صاحب حماة يدعوه إلى مقابلته ليدخل معه دمشق، فطار المظفر فرحاً بهذه الدعوة لحرصه الشديد على الانتقام من المجاهد صاحب حمص، فسار على عجل مع وزيره الأمير سيف الدين بن أبي على الهذباني واجتمعا بالصالح أيوب قبل دخوله دمشق.^(١)

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٣٦هـ / فبراير ١٢٣٩م وصل الصالح أيوب إلى دمشق وخرج الجواد لإستقباله وأدخله إلى قلعة دمشق بعد أن حمل الغاشية بين يديه كل من الجواد والمظفر وكان دخوله لدمشق يوماً مشهوداً، وانتقل الجواد إلى دار السعادة وندم على تفريطه في دمشق لأنه كان يخشى أن لا يفي له الصالح أيوب بما وقع الإتفاق عليه، فحاول أن يتدارك الأمر لأن عسكر الصالح أيوب اقبل من عسكر دمشق، فاجتمع بهم وطلب منهم مساعدته لاسترجاع دمشق واستحلفهم على ذلك، " وكادت تقع فتنة عظيمة "، فبادر المظفر لإخماد هذه الفتنة واتصل بالجواد وطيب خاطره وضمن له الوفاء بما شرط له فغادر الجواد دمشق إلى الشرق وتسلم سنجار وغيرها من البلاد التي تم الاتفاق عليها.^(٢)

٢٧٧، بينما يذكر ابن تغرى بردى أن الذى قام بقتله رجل نصراني، انظر النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١٤.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٠٢-٢٠٣، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧٩، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٤٠، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٨، أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص ١٦٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٣-٢٠٥، ابن ايك الدوادار، كنز الدرر، ج٧/ ص

وعندما توطد حكم الصالح أيوب لدمشق خاف المجاهد صاحب حمص من اتفاق الصالح أيوب مع المظفر صاحب حماه فيقومان بهجوم شامل على مملكته فكان أول اجراء قام به المجاهد هو خراب سلمية وهدم قلعتها الداخلية لأنها كانت نقطة النزاع بين حمص وأمر أهلها بالانتقال إليها فلم يبق بها أحد وغدت قاعاً صفصفاً.^(١)

وما إن سمع المظفر بهذا الخبر حتى أعد العدة وجهز نفسه لمحاصرة حمص وأرسل إلى الخوارزمية يطلب منهم مساعدته في حصارها، فتوجهت الخوارزمية إلى حمص وتقابلوا مع المظفر وضربوا الحصار حولها، ولمعرفة المجاهد بطبيعة الخوارزمية وأنهم سرعان ما يتغيرون عندما تعرض عليهم مبالغ مالية كبيرة راسلهم واستمالهم بمال كثير فرضوا بذلك وأخذوه وانصرفوا عن محاصرة المدينة، ولما بلغ المظفر ذلك خاف أن تنقلب عليه الخوارزمية ورحل عائداً إلى حماه، ورجع الخوارزمية إلى إقطاعاتهم التي منحها لهم الصالح أيوب في الشرق.^(٢)

لم يرد المظفر أن يفوت هذه الفرصة على نفسه فأرسل رسله إلى الصالح أيوب يستحثه على المسير إلى حمص ومضايقتها وتواترت رسله في الوقت الذي كان الصالح أيوب منهمكاً في توطيد علاقته مع ملوك بني أيوب الأقوياء في الشام حتى يضمن مساعدتهم له في السيطرة على مصر، فراسل عمه الصالح إسماعيل يطلب منه الاتفاق معه، فوافق الصالح إسماعيل وجاء إلى دمشق وظهر لابن أخيه

٣٣٢، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٦٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٣، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٩-٢٨٠، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٥-٢٠٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ص ٢٥٣، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٦٩.

الصالح أيوب الود والصفاء وحلف له على مساعدته ثم عاد إلى بعلبك^(١) ، كما أرسل الصالح أيوب إلى عمته ضيفة خاتون الوصية على الناصر صاحب حلب معلناً طاعته وخدمته لها مقابل أن تساعد على أخذ مصر من أخيه العادل، فلم توافقه على ما أراد بحجة أنهما ولد أخيهما.^(٢)

انزعج العادل الثاني وأمه وخواصه من سيطرة الصالح أيوب على دمشق لعلمهم أنه لن يتركهم يتمتعون بحكم مصر خاصة وأن أكثر الأمراء بمصر يرغبون فيه لحسن سيرته وكبر سنه وجدارته في تديرشئون الدولة عكس ما كان عليه العادل الثاني من لهو ولعب واشتغال بسفاسف الأمور عن رعاية مصالح الدولة، فأرسل الأمراء في مصر إلى الصالح أيوب يستدعونه حتى يمكنوه من حكم البلاد.^(٣)

وبعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق وصل إليه رسول ابن عمه الناصر داود يعرض عليه مساعدته لأخذ مصر من أخيه العادل مقابل أن يعطيه الصالح أيوب دمشق وجميع البلاد التي كانت تحت حكم أبيه، فوعده الصالح أيوب بأنه سينجز له ذلك بعد أخذ مصر إلا أن الناصر أصر على أن يسلمها له مقدماً، فرفض الصالح أيوب طلبه، فقرر الناصر أن يذهب إلى أخيه العادل ليستفيد من الخلاف الحاصل بينهما لاسيما وأن العادل في قلق شديد من أخيه الصالح أيوب فوصل إلى مصر وأكرمه العادل ووعده باعطائه دمشق وما يتبعها من بلاد.^(٤)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٠٦، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٨.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٥، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٧، المقرئى، الخطط، ج ٣، ص ١٨٩.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٧، ٢١٤، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٦٩، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤١، ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٠، على عوده، المرجع السابق، ص ١٥٩.

خرج الصالح أيوب إلى ثنية العقاب^(١) لمساعدة المظفر في حصار حمص إلا أنه اثناء إقامته في الثنية وصلت إليه رسائل الأمراء في مصر تحثه على سرعة القدوم إليها لتسهيل مهمته في الإستيلاء على مصر فتحير في أمره هل يذهب إلى مصر أم يذهب إلى حمص، وفي نهاية المطاف رأى أن المصلحة البدء بمصر أولاً لأنه إذا ملكها سهل عليه غيرها فرجع إلى دمشق لإعداد جيشه^(٢)

(١) ثنية العقاب: هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق على طريق المسافرين من دمشق إلى حمص، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠-٢٨١، أبو الفداء، المختصر ج ٣، ص ١٦٣، ابن العميد، أخبار الايوبيين، ص ٢٧-٢٨، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٥٩-١٦٠.

احتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه

الصالح إسماعيل ودور الخوارزميين في ذلك

بعد سيطرة الصالح أيوب على دمشق أمر مجموعة من عسكره بقيادة الأمير حسام الدين بن أبي على الهذباني بأن يخرجوا وينزلوا على جنين^(١) قرب الساحل، فخرج حسام الدين ومعه المؤرخ المعاصر ابن واصل وأقاموا على بحيرة طبرية في رمضان سنة ٦٣٦هـ / مايو ١٢٣٩م ووصلت الأخبار بخروج جماعة من أمراء مصر إلى الشام قاصدين الصالح أيوب^(٢)، وبعد أن استكمل الصالح أيوب ترتيب أوضاعه خرج من دمشق في نحو خمسة آلاف فارس ومجموعة من أمراء بني أيوب وقصد خربه اللصوص فاقام بها ينتظر استكمال بقية عساكره كما استقبل أمراء مصر الفارين من أخيه العادل وأكرمهم وأحسن إليهم ثم رحل السلطان بعساكره إلى نابلس وكانت تابعة للناصر داود فاقام بها إلى أن خرجت سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م^(٣) وأخذ أمراء مصر يمنونه ويسهلون عليه الدخول إلى مصر ومن ثم السيطرة عليها وأنه متى مادخلها انحاز إليه جميع عساكرها وتخلوا عن العادل، وارسل إليه جواسيسه في نفس الوقت يستحثونه على القدوم إليها وتواترت رسائلهم إليه في

(١) جنين: بليدة حسنة بين نابلس ويسان من أرض الأردن بها عيون ومياه، انظر ياقوت، معجم البلدان، انظر كذلك محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين ص ٢٧٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢١٠-٢١١، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨١، على غوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٠.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٠-٢١٣، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٢-٢٨٣، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٦، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٥، ٢٧-٢٨، على غوده، المرجع السابق، ١٦٠.

هذا المعنى، إلا أنه تردد في ذلك مخافة أن لا يكون لما قالوه حقيقة خاصة وأن
عسكره لا يقوى على الصمود أمام عسكر مصر، في الوقت الذى اضطربت فيه
عساكرها بقدم الصالح أيوب إلى نابلس، فرأى كبار القادة في جيش العادل
الانضمام إلى الصالح أيوب^(١) بما فيهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذى أرسل إلى
الصالح أيوب يسحته على القدوم إلى مصر فعلم بذلك العادل وألقى القبض عليه،
ومن هنا يتضح لنا مدى التفكك الذى يعانىه عسكر مصر نتيجة لسوء سياسة العادل
التي يנהجها في إدارة شؤون البلاد.^(٢)

استطاع الصالح أيوب أن يستولى على كثير من البلاد التابعة للناصر داود
كنابلس وعمال القدس والأغوار والخليل وبيت جبريل والساحل والعريش وغيرها
من البلاد وولى عليها من قبله، وأمر بعض عسكره أن يتوجه إلى غزة استعداداً
لدخول مصر في الوقت الذى أخذ يعد نفسه للحاق بهم^(٣)، وأرسل إلى عمه
الصالح إسماعيل بيلبك يطلب منه القدوم عليه ليذهب معه إلى مصر فتعلل عمه
واعتذر بحجج واهية وأرسل ابنه المنصور نور الدين لينوب عنه في الخدمة، فوعده
بأنه متى ماسنحت له الفرصة فانه سوف يسارع للحاق به وانطلقت هذه الحيلة على

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢١٣-٢١٥، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٣،
أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، يذكر ابن القوطى أن الصالح أيوب هو الذى قام
بمحاولة افساد الامراء على أخيه فعندما ملك دمشق حدثته "نفسه بأخذ مصر من أخيه العادل محمد
وكان هو الأكبر والانجب واستفسد جماعة من الامراء المصريين ووعدهم الاحسان فأجابوه إلى ما
أراد" فخاف العادل من ذلك وسارع بمراسلة الخليفة العباسى ليتوسط فى منع أخيه من دخول مصر،
الحوادث الجامعة، ص ٦١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٥، يذكر المقرئى، أن الناصر داود عندما كان فى مصر
هو الذى حسن للعادل القبض على فخر الدين بن شيخ الشيوخ حتى يتمكن من ضم الامراء إليه من جهة
ويفرق بقية الامراء من العادل من جهة اخرى. ج ١، ق ٢، ص ٢٨٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٦، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٣.

الصالح أيوب فقد كان الصالح إسماعيل يعد نفسه لانتزاع دمشق منه.^(١)

فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ بنى أيوب وصل مبعوث الخليفة المستنصر بالله إلى الصالح أيوب فى محاولة للإصلاح بينه وبين أخيه العادل، وبعد محاولات ومناقشات وتردد بين نابلس والقاهرة تقرر على يد محى الدين بن الجوزى أن تكون دمشق ومايتبعها من البلاد فى زمن الاشرف موسى للصالح أيوب وتكون مصر للعادل ويرد للناصر داود ما أخذ منه من البلاد وكاد الصلح يتم بعد موافقة جميع الاطراف المعنية لولا ماحدث من الصالح إسماعيل الذى غير موازين الامور.^(٢)

ترددت رسل الصالح أيوب إلى عمه الصالح إسماعيل يستحثه على سرعة القدوم إليه ولكنه تباطأ فى السير إليه^(٣) وأرسل إلى ابن أخيه العادل الثانى يخبره بمخططه الذى يهدف إلى انتزاع دمشق من الصالح أيوب وأنه سوف يحكم دمشق نيابة عنه مع اقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه وارسل ايضاً إلى ألد اعداء الصالح أيوب وهو المجاهد صاحب حمص يطلعه على ما عزم عليه فى الوقت الذى كانت فيه الدسائس تعمل فى دمشق وفى صفوف جيش الصالح أيوب فقد كان ناصر الدين بن يغمور يطوف على الأمراء وكبار الجند يحرضهم على الصالح

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢١٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٦٣-١٦٤، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩-٣٧٠، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٠، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٢٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص ٣٠٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٠.

(٢) السلوك، المقرئى، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٣-٢٨٤، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٦١، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٦٩-٣٧٠، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٤،

على عوده، المرجع السابق، ٣١٣-٣١٤.

(٣) اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٩٣.

أيوب^(١) ولما تأخر الصالح إسماعيل في القدوم على الصالح أيوب ارسل اليه الحكيم سعيد الدين الدمشقي يستحثه على سرعة القدوم إليه، وسير مع سعد الدين قفصاً فيه حمام ليطلعه على تحركات الصالح إسماعيل وعندما وصل سعد الدين إلى بعلبك أحسن الصالح إسماعيل استقباله وأمر بعض خواصه بتغيير الحمام الذي في قفصه بحمام بعلبك دون أن يشعر الحكيم بذلك، وأخذ إسماعيل يعد العدة ويجهز العساكر لانتزاع دمشق، فاستغرب سعد الدين من عمله ذلك وأخذ يرسل إلى الصالح أيوب في البطائق يخبره بغدر الصالح إسماعيل وأنه يسعى للسيطرة على دمشق وكان يعلق هذه البطائق في اجنحة الحمام فينزل في قلعة بعلبك فيأخذها البراج ويعطيها للصالح إسماعيل الذي يقوم بدوره بتزوير بطاقة أخرى على لسان الحكيم ويرسلها عن طريق الحمام الذي كان في قفص سعد الدين، ومما جاء في تلك البطائق المزورة قوله " أن المولى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل مهتم بالسير إلى العسكر المنصور بنابلس بنفسه، وما يتأخر قدومه على السلطان" فتصل إلى الصالح أيوب ويطمئن إلى عمه.^(٢)

وبهذه الطريقة نجح الصالح إسماعيل في تضليل الصالح أيوب وانقطعت بذلك الأخبار عن الصالح أيوب ولم يعد يصل اليه إلا ما يزور على لسان سعد الدين الحكيم وبعد أن استكمل الصالح إسماعيل تجهيز عساكره للتوجه إلى دمشق

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٢٠، ابن ابيك، كثر الدرر، ج ٧، ص ٣٣٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٣-١٦٤، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦١.

(٢) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٢٥، ابن ابيك، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٣٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٥، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٤، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤١، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٧٠-٣٧١، على عوده، المرجع السابق، ١٦١.

أرسل إلى ابنه المنصور استدعية إليه وأوهم الصالح أيوب أنه لا يستطيع أن يترك بعلبك بغير نائب ينوب عنه أثناء سيره إليه فعاد المنصور باتباعه إلى بعلبك، ويبدو أن الصالح أيوب أحس بمؤامرة تحاك ضده فارسل ابنه المغيث فتح الدين عمر إلى دمشق ليتولى أمرها.^(١)

اتضح لدى المظفر صاحب حماه المخطط الذي يسعى إلى تحقيقه كل من الصالح إسماعيل والمجاهد، وكان المظفر من بين ملوك الشام كلهم منتبهاً إلى الصالح أيوب ومن قبله كان موالياً لوالده فعاداه كل ملوك الشام بسبب ذلك وخاصة صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه، وأدرك المظفر أن الحماية الموجودة بدمشق مع المغيث عمر لا تكفى لحفظها، فقرر أن يرسل مجموعة من عسكره لتساند المغيث في الدفاع عنها، وحيث أنه لا يستطيع أن يوجه هذه القوة مباشرة إلى دمشق لعلمه الأكيد بأن صاحب حمص لن يتركهم يمرون بسلام فلجأ إلى حيلة ساذجة دبرها مع وزيره سيف الدين بن أبي على الهذباني ليخدع بها المجاهد صاحب حمص حتى لا يتعرض لعسكره فاتفقا على أن يوهم سيف الدين أهل حماه بأن المظفر مصمم على تسليم حماه إلى الفرنج، فاشاع سيف الدين هذا الخبر بين الناس، واستدعى المظفر مجموعة من الفرنج وأنزلهم بالقلعة ليصدق الناس هذا الخبر، وما أن انتشر هذا الخبر حتى أظهر سيف الدين الجزع والغضب واحتج على فعلته الشنيعة واتصل بجماعة من العسكر واعيان البلد يؤكد لهم هذا الخبر ويحذرهم من البقاء في البلدة لأن الفرنج متى ما استولوا على حماه فلن يرحموا صغيراً ولا كبيراً عندئذ اصاب الناس والعسكر

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٢٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٢٥، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٢.

الخوف والذعر وقرروا الخروج مع سيف الدين بن أبي علي.^(١)

خرج سيف الدين بن أبي علي الهذبانى من حماه بمن معه من العسكر والأعيان وعامة الناس سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وهو يظن أن حيلته تلك ستطلى على المجاهد صاحب حمص الذى عرف بحكنته ودهائه، فوصل إلى بحيرة قدس وعسكر بها، وخرج إليه المجاهد صاحب حمص وطلب مقابلة سيف الدين فاستجاب له وذهب إليه منفرداً فأحسن المجاهد استقباله وسأله عن سبب خروجه على المظفر صاحب حماه فقال له سيف الدين " إني ماسفرت من حماه أنا وهؤلاء الذين معي إلا لعلمنا من ميل الملك المظفر إلى الفرنج واعتضاده بهم، وخفنا من تسليمها إليهم، فأردنا النجاة لأنفسنا والخلاص من مخالطة الكفار أعداء الدين " تظاهر المجاهد بتصديقه فلاطفه وأنسه وطلب منه الدخول إلى حمص ليقوم بواجب الضيافة معه ومع اتباعه ثم يسمح لهم بعد ذلك بالذهاب إلى أى مكان يريدونه، انخدع سيف الدين بطلب المجاهد فوصل معه إلى حمص وبالفى اكرامه والاحسان إليه ليثق فيه فأمر اتباعه فيما بعد بالدخول إلى حمص وفعلاً هذا ما حصل فارسل إلى اتباعه يأمرهم بالدخول فاغتر أكثرهم ودخلوا وأحس بعضهم أن هذه مكيدة فهربوا فقبض عليهم المجاهد واعتقلهم واستحوذ على مامعهم من أموال، وخسر المظفر جزء كبيراً من جيشه نتيجة حيلة مكشوفة ولم يعد فى استطاعته أن يقدم أى مساعدة للصالح أيوب.^(٢)

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٢٢٢-٢٢٤، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٤-١٦٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤١-٢٤٢، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٢٥-٢٢٦، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٧، أبو الفدا، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٤-١٦٥، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ١٦٣.

ونتيجة لضعف المظفر وبعد الصالح أيوب عن دمشق وخلوها ممن يدافع عنها حاول الصالح إسماعيل والمجاهد أن يغتما هذه الفرصة فاتفقا على اقتسام البلاد فيما بينهما، وتحركا بقواتهما إلى دمشق ووصلا إليها في صفر سنة ٦٣٧هـ / سبتمبر ١٢٣٩م ونزل الصالح إسماعيل على عقبة دمر ونزل المجاهد على ثنية العقاب وضربا الحصار حول دمشق وتسلق جماعة من العسكر باب الفراديس وكسروا قفل الباب بمساعدة بعض المؤيدين لهم داخل دمشق فدخلا بجيوشهما إلى المدينة وظهر الصالح إسماعيل لأهلها طاعته للعدل قائلاً لهم " ادعوا للسلطان الملك العادل فأنا نائبه وعلامه "، وحاول المغيث عمر الاعتصام بالقلعة فحاصروا القلعة ونقبوها حتى اضطر إلى تسليمها إليهم، فاستولى عليها الصالح إسماعيل واعتقل المغيث عمر ليبقى كرهينة عنده يساوم به الصالح أيوب.^(١)

أما الصالح أيوب فبعد أن كان واثقاً في أيمان عمه إسماعيل وعهوده ومواريثه جاءه الخبر بمسير عمه إسماعيل والمجاهد صاحب حمص إلى دمشق بقصد انتزاعها والسيطرة عليها فأمر قائده حسام الدين بن أبي علي بالمضي فوراً إلى دمشق لمساندة حاميتها في الدفاع عنها قبل أن يصل إليها الصالح إسماعيل والمجاهد، فخرج حسام الدين بقواته مسرعاً وكان بصحبته المؤرخ ابن واصل وعندما وصل إلى الكسوة^(٢) ورد إليه الخبر بسقوط دمشق فادرك عجزه عن الدخول إليها وعاد إلى الصالح أيوب بعد أن ترك أثقاله وخزائنه في قرية خياره^(٣)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٢٨-٢٣٠، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٩، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٤، أبو القداء، التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك، حوادث سنة ٦٣٧هـ، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٦، ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٣.

(٢) الكسوة: قرية تعتبر أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) خياره: قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين بها قبر شعيب عليه السلام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

مع حامية بسيطة فجاءت جماعة من اتباع الصالح إسماعيل واستولت على الخزائن والأموال وعادوا بها إلى دمشق^(١)

وعندئذ رحل الصالح أيوب بقواته وقطع نهر الأردن وجاءت الأخبار بسقوط قلعة دمشق فتغيرت نيات العسكر لأن اعداء الصالح أيوب يحيطون به من كل مكان ولم يعد بيده شيء من البلاد إضافة إلا أن أهاليهم وأولادهم بدمشق فكانوا يخافون عليهم من تسلط الصالح إسماعيل وكان من بينهم جماعة من أمراء بني أيوب أرسلوا إلى الصالح أيوب يقولون له "لا يمكننا المقام معك هاهنا فإن أهلنا وأولادنا بدمشق فأذن لنا في الرحيل إليها" فلم يكن في استطاعته أن يمنعهم فأذن لهم والتحقت العساكر بالصالح إسماعيل فتقوى بهم في الوقت الذي تدهور فيه نفوذ الصالح أيوب وضعفت قوته إلى درجة أن أحد مماليكه تجرأ على نهب أمتعته وأمواله.^(٢)

ولم يبق مع الصالح أيوب إلا ثلة قليلة من مماليكه اجتمع بهم واستشارهم في أمره فأشار بعضهم بالمضي إلى الشقيف والاعتصام بها، فلم يجز ذلك لأنه خشي أن يلحق به عمه ويضيق الحصار عليه فيقع في قبضته، وأشار البعض الآخر بالمضي إلى أملاكه في الشرق لأن بها عدة حصون منيعة يستطيع أن يحتتمي بها من عمه الصالح إسماعيل، فلم يعجبه هذا الرأي أيضاً لأن المسافة طويلة وربما يقع في قبضته وفي نهاية الاجتماع عرض عليهم رأيه وقال لهم "ما أرى إلا التوجه إلى

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٣٠-٢٣٢، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٧، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٢-٢٣٣، ٢٣٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٢٦، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٧، ابن ابيك، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٣٧، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٦٤.

نابلس والتجىء إلى ابن عمى الناصر" ^(١) وسار بهم إلى نابلس واعترضه اثناء مسيره إليها جماعة من قطاع الطرق لكنه تمكن من الانتصار عليها. ^(٢)

واتفق وصول الناصر داود من مصر بعد أن تدهورت العلاقات بينه وبين العادل فلما وصل إلى الكرك سمع باستيلاء الصالح إسماعيل على دمشق وتشتت قوات الصالح أيوب الذى أرسل إلى الناصر داود يقول له " قد مضى ماضى وما زالت الملوك كذا، وقد جئت الآن مستجيراً بابن عمى " ولما إطلع الناصر على ذلك أرسل إليه يطيب خاطره فاجتمعوا به وقالو له " طيب قلبك فقد بلغ ابن عمك أنك مستجير به، وقد أجارك، ونحن قد سيرنا إلى خدمتك خوفاً عليك من يد الغير" ^(٣)، ثم سار الناصر إلى نابلس وأمر بنقل ابن عمه الصالح أيوب إلى الكرك ولم يصحبه سوى مملوكه ركن الدين بيبرس وجاريتته شجر الدر، وأنزلوه بقلعة الكرك بعد إهانات لحقته من قبل العسكر وأرسل إليه الناصر يقول له " إنما فعلت هذا احتياطاً عليك لكلا يصل إليك مكروه من أخيك ولا من عمك، ولولم اسيرك إلى الكرك لقصدك واهلكك"، وبقي الصالح أيوب معتقلاً بقلعة الكرك ما يقرب من سبعة اشهر من سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م. ^(٤)

-
- (١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٣٥، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧١.
 (٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٦، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٨، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٣٧، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٩، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧١-٣٧٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٤.
 (٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٢٦، وانظر ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٣٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٣٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٧-٣٠٨.
 (٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٤١، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٩، ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٣٧-٣٣٨، أبو القدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٥، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٥، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٠٨.

ولما بلغ العادل استيلاء عمه الصالح إسماعيل على دمشق وسجن أخيه بالكرك سر لذلك سروراً عظيماً وأمر بتزيين القاهرة وإقامة الحفلات والولائم لهذا الأمر، واعتقد العادل أنه قد استقر له الحكم ولم يقتنع بذلك بل أرسل إلى الناصر داود يطلب منه أن يرسل إليه أخاه في قفص من حديد مقابل أن يدفع له أربعمائة ألف دينار^(١) ويسترد له دمشق فرفض الناصر داود ذلك وأرسل إليه يقول: "وصل كتاب السلطان وهو يطلب أخاه إلى عنده في قفص من حديد وإنك تعطيني أربعمائة ألف دينار مصرية وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني أياها فأما الذهب فهو عندك كثير وأما دمشق فإذا أخذتها ممن معه وسلمتها إلى سلمت أخاك اليك وهذا جوابي والسلام" ولما قرأ العادل الرسالة أرسل إلى الناصر يتهدده بالخروج إليه وأخذ بلاده فلم يعر الناصر داود ذلك أى اهتمام.^(٢)

وصلت في هذا الوقت سفارة من مصر إلى دمشق مكونة من محبى الدين بن الجوزى وجمال الدين بن مطروح لتسوية الخلافات بين ملوك بنى أيوب إلا أن جهودهم فشلت في تحقيق مساعيها فرحل ابن مطروح إلى المظفر بحماه الذى قام بإرساله إلى الخوارزمية فى الشرق يطلب منهم سرعة القدوم إلى الشام لنصرة الصالح أيوب وحمل معه رسالة أخرى من الناصر داود إلى الخوارزمية جاء فيها "إنى لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل ومن عمه الملك الصالح عماد الدين وسأخرجه وأملكه البلاد فتحركوا على بلاد حلب وبلاد حمص".^(٣)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٤٤، المقرئى، السلوك، ج ١، ص ٢٩٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٥، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٨٣.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٠، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٢٥، ٢٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٢، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٠.

استمر المظفر صاحب حماه فى مراسلة الخوارزمية يستحثهم على القدوم كما كان على اتصال بالناصر داود يطلب منه الافراج عن الصالح أيوب وتهيئة الامور لمجىء الخوارزمية لمساعدتهم فى القضاء على خصومهم واسترداد بلادهم، عندئذ قرر الناصر داود بعد أن عجز عن الحصول على دمشق عن طريق المساومة أن يخرج الصالح أيوب من الاعتقال عله يستطيع أن يستعيد عن طريقه ملك أبيه.^(١)

فاطلق الناصر سراح الصالح أيوب فى سابع عشر رمضان سنة ٦٣٧هـ / ابريل ١٢٤٠م واستدعاه إليه بنابلس وأمر الخطيب بالدعاء له فى الخطبة ورجع إليه ممالكيه واصحابه الذين تفرقوا عنه، ثم انطلقا إلى القدس وتحالفا على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام والشرق للناصر داود، وأن يعطى الصالح أيوب للناصر داود مائتى الف دينار بعد استرداد مصر، ثم سارا إلى غزة.^(٢)

بلغ العادل نبأ هذا التحالف الجديد فانزعج وخرج بعسكره إلى بلبس فى نصف ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ / يونية ١٢٤٠م وارسل إلى عمه الصالح إسماعيل يطلب منه الخروج من دمشق للقضاء على هذا الحلف الذى يهدد بلادهما.^(٣)

فخرج الصالح إسماعيل بعساكره ونزل بالغوار من أرض السواد وكان يرافقه المنصور إبراهيم بن المجاهد صاحب حمص بعسكره، عندئذ خاف الناصر داود

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٥١-٢٥٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٨-٢٥٩، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٩، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٣٨-٣٣٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٩، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٦، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٦، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٦-١٦٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٩-٢٦٠، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٤، أبو الفدا، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٥، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٦.

والصالح أيوب من اجتماع الجيوش عليهما فيقعا بين شقى رضى، فقررا الرجوع إلى غزة ومن ثم العودة إلى الكرك للاعتصام بها^(١)، إلا أن الأمور تطورت فيما بعد لصالح الصالح أيوب فقد قام المماليك الاشرفيه وغيرهم بإلقاء القبض على العادل الثانى لسوء معاملته معهم وانشغاله باللهو واللعب وعزله لكبار المسئولين فى الدولة مع كفاءتهم وتعيين آخرين فى مكانهم مع عدم صلاحيتهم لكونهم يوافقونه فيما يفعل بل ويشاركونه فى لهوه ولعبه، ومما حمل العادل الثانى على ذلك هو صغر سنه فقد كان عمره عندما ولى السلطة نحو عشرين سنة فكان ذلك سببا لنفور الامراء وكبار المسئولين فى الدولة منه.^(٢)

وبعد أن تم القبض على العادل الثانى وضعوه فى خيمه صغيرة وشددوا الحراسة حوله بحيث لايجرؤ أحد من الموالين له على فك اسره، وهنا انقسم أمراء مصر إلى فريقين فريق كان ميالاً إلى الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق وهم الاشرفية واما الفريق الثانى فكان ميله إلى الصالح نجم الدين أيوب وهم الخدام والمماليك الكاملية وأمراء مصر، ونظراً لأن مؤيدى الصالح أيوب كانوا أكثر عدداً من الاشرفية واقوى شوكة فلم يسع الاشرفية الخروج عليهم خاصة وأن الصالح أيوب والناصر داود بينهم وبين الصالح إسماعيل فاضطروا إلى الموافقة.^(٣)

بادر الجميع بعد ذلك بمراسلة الصالح أيوب يستدعونه ليسلموا إليه مقاليد الحكم فى مصر فوصلت إليه هذه الرسائل بعد أن كان هو والناصر داود فى خوف

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٦٠، ابوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٦٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٢-٢٦٣، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥، ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٤١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١١، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨٠٩، ج ٧، ص ٣٤٥٤، على عوده، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٣-٢٦٤، المقرئى، المصدر السابق ج ١، ق ٢، ص ٢٩٦.

شديد لاتفاق عساكر مصر ودمشق على حربهما فجاءهما الفرج بعد الشدة وما أن تأكد الصالح أيوب والناصر داود من القبض على العادل الثاني حتى سارا مسرعين نحو مصر وكان الأمراء والأعيان يخرجون لاستقبالهما على طول الطريق إلى بليس فلما وصلا إلى بليس تسلم الصالح أيوب أخاه العادل وتوجه بالعساكر إلى القاهرة ودخل قلعتها في ٢٤ ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ / ١٨ يونيو ١٢٤٠م.^(١)

وفي هذا الوقت وصل إلى القاهرة سفراء كل من بغداد وحماء وحلب أما سفير بغداد وهو محيى الدين بن الجوزى فكانت مهمته الاصلاح بين ملوك بنى أيوب إلا أن الصالح أيوب كان موغر الصدر من محيى الدين بن الجوزى لعلمه أنه كان يطلب من الناصر داود أن يسلمه إلى أخيه العادل، فلذلك قصر فى ضيافته، وعلى العكس من ذلك نجد الصالح أيوب يقبل إقبالاً شديداً على سفير حماه ويحسن ضيافته لأن المظفر صاحب حماه من أشد المناصرين له ولايه من قبله وتعرض فى سبيل ذلك إلى كثير من الاذى فاكرمه وسيره إلى حماه.^(٢)

أما سفير حلب وهو المؤرخ المشهور كمال الدين ابن العديم فقد استدعاه الصالح أيوب وقال له " تقبل الارض بين يدي الستر العالى، وتعرفها أننى مملوكها، وأنها عندي بمحل الملك الكامل، وأنا أعرض نفسى لخدمتها، وامثال ماترسم به " وحمله أيضاً مثل هذا القول للناصر صاحب حلب.^(٣)

ويبدو أن الصالح أيوب كان حريصاً على تفتيت الوحدة السابقة بين ملوك بنى أيوب ضد مصر وضم مملكة حلب فضلاً عن حماه إلى صفه خاصة وأن عمه

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٦٤-٢٦٥، الخطيب العمري، الدر المكنون، رقة ٢٥٤، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٦، ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٤١-٢٤٢، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٥-٢٦٦، المقرئى، السلوك، ص ٢٩٨.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٧-٢٦٨.

الصالح إسماعيل الذى غدر به واستولى على دمشق لن يقر له قرار حتى يؤلب جميع ملوك بنى أيوب فى الشام ضده ويسعى للقضاء عليه، كما أن الصالح أيوب إذا فكر فى الخروج من مصر للانتقام من عمه إسماعيل واسترداد دمشق لن يجد الاخير من يقف إلى جواره فيسهل على الصالح أيوب انتزاع دمشق منه وفك اسر ابنه ولقد نجح الصالح أيوب فى تحييد مملكة حلب بهذه الطريقة لفترة من الوقت، ويظهر ذلك واضحاً جلياً عندما خرج ابن العديم من مصر واجتمع بالصالح إسماعيل الذى طلب منه تجديد الحلف السابق وحمله رساله إلى صاحبة ضيفة خاتون " يطلب منها معاضدته ومساعدته على الملك الصالح نجم الدين " فلم تجبه إلى طلبه ذلك.^(١)

وسر المظفر صاحب حماه سروراً عظيماً باستيلاء الصالح أيوب على مصر وأمر بتزوين قلعة حماه ابتهاجاً بهذا النصر الذى تحقق للصالح أيوب لأنه كان على خوف شديد من مجاوريه وازداد هذا الخوف عندما اتفق العادل الثانى مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص على القضاء على الصالح أيوب والناصر داود وكانا فى قلة من العدد والعدة بالنسبة لخصومهم، كما أن انتصار الصالح أيوب يعنى تعزيز موقف المظفر امام خصومة واسترداد ما انتزع منه من البلاد والانتقام فيما بعد من كل من حاول القضاء على هذه المدينة.^(٢)

استوحش الصالح أيوب بعد سيطرته على مصر من ابن عمه الناصر داود ولعل ذلك يرجع إلى عدة أمور منها أنهما عندما وصلا إلى بليس طلب الناصر داود من الصالح أيوب أن يجتمع بالعادل وكان معتقلاً عنده فسمح له بذلك، فمضى إلى مكان الاعتقال ودخل على العادل وقال له " تبصر أى شيء فعلت، وكيف أوقعتك

(١) ابن العديم، زبدة الحلب ج ٣، ص ٢٤٧-٢٤٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٩، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٦، ابن الوردي،

تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٣.

في هذه الحال، وأنا قادر أن أردك إلى ملكك"، فبلغ ذلك الصالح أيوب وتغاضى عنه لعدم استقرار الامور، ومما زاد في غيظه اجتماع الناصر داود بعد ذلك بجماعة من الأمراء سرّاً.^(١)

وربما لجأ الناصر داود إلى هذه الأمور بعد أن تيقن عدم وفاء ابن عمه الصالح أيوب بما وقع الاتفاق عليه من تسيير الجيوش معه ليسترد دمشق وجميع البلاد التي خرجت عنه من مملكة أبيه، خاصة بعد أن طلب الناصر داود من الصالح أيوب بعد دخولهما إلى مصر مباشرة قلعة الشوبك فرفض تسليمها له، وكان الصالح أيوب يرر قسمه للناصر داود عند الصخرة بما اقترحه " انما كان فيه مكرهاً لأنه كان في قبضته".^(٢)

كل هذه الامور جعلت الصالح أيوب يتوجس خيفة من الناصر داود وعلم أنه لن يستقر له قرار مادام الناصر موجوداً بمصر خاصة وأن الصالح أيوب لا يضمن ولاء الأمراء التام له فربما يجرى عليه ماجرى على أخيه من قبل لذلك حرص على إخراج الناصر داود من مصر في اسرع وقت فأرسل بعض اصحابه إليه وقال له " امضى إلى الملك الناصر، وخوفه منى لعله يرحل إلى بلاده، فإنني لا يمكنني القبض عليه، فإن الناس لا يعلمون صورة الحال، وينسبونني إلى الغدر، وعدم المكافأة " فمضى ذلك الرجل واجتمع بالناصر وقال له " إنني قد جئت إليك لحق أنعمك، فاکتم على ما أقوله لك، لئلا يؤذيني ابن عمك الصالح، فإنه قد أمر بالقبض عليك،

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٢٧٠-٢٧٢، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٧-٢٩٨، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٢٩، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٠، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١١.
(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧١، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٩، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٦.

فخذ حذرک منه".^(١)

عندئذ تحقق الناصر داود من غدر ابن عمه به وأن مقامه بمصر أصبح مستحيلاً فخرج مسرعاً بأصحابه منها وهو خائف يترقب، وعمد الصالح أيوب إلى ارسال فرقة عسكرية تلاحق الناصر داود من بعيد بحيث توهمه بانهم يريدون اللحاق به ومن ثم القبض عليه، فانطلت عليه هذه الحيلة وزاد من سرعته هو واصحابه حتى وصل إلى الكرك سنة ٦٣٧هـ.^(٢)

ولكى يتمكن الصالح أيوب من التصدى لكل خطر خارجى يهدد كيان دولته فضلاً عن القيام بحملات خارجية كان لابد له أن ينظر إلى بنية الدولة الاساسية فيقدر ما تكون عليه الجبهة الداخلية من ترابط وتوافق يكون اثر ذلك واضحاً فى الصمود امام كل الاخطار، لذلك لاغربة من أن نجد الصالح أيوب يستشعر الحذر من عز الدين ايبك والمماليك الاشرفية وغيرهم من الجند فالمرء المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين فهؤلاء هم الذين قبضوا على أخيه العادل واستدعوه ليملكوه مصر وهم ايضاً الذين عزموا على تدبير مؤامرة للقبض عليه وانتزاع مصر منه وتسليمها إلى عمه الصالح إسماعيل.^(٣)

عندئذ أخذ الصالح أيوب بعد أن تحقق من غدرهم يعمل على تدبير مخطط يقضى على هؤلاء جميعاً دون أن يتيح لهم أى فرصة للمقاومة وقال " لابد هؤلاء الغدارين أن يفعلوا بى كما فعلوا بأخى الملك العادل"، وعزم على القضاء عليهم قبل أن يقضوا عليه، ونظراً لأن تكتلهم حوله يتيح لهم الفرصة فى تحقيق مآربهم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٧٢.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٢، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٢-٢٧٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٠، ابن

خلدون، تاريخ بن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٦، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧٥،

المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٧-٢٩٩.

فقد لجأ إلى تفريقهم في مملكته، واسند إلى كل من خاف غائلته حكم منطقة من المناطق البعيدة يوهمه أنه يعتمد عليه في ادارة شؤونها، وكان أول من وقع في الفخ عز الدين ايبك الاسمر الذي ارسله الصالح إلى حكم إحدى المناطق البعيدة، وما إن وصل عز الدين إلى تلك المنطقة حتى قبض عليه بأمر من الصالح أيوب، ففترت عزيمة الممالك الاشرفية وأصابهم الخوف فسهل على الصالح أيوب القبض عليهم الواحد تلو الآخر حتى تم القبض عليهم عن بكرة ابيهم وادخلهم السجون.^(١)

كان الصالح أيوب وهو يقبض على هؤلاء الخونة - على حد قوله - يدرك أنه لن يستطيع ادارة شؤون الدولة دون وجود قوة يعتمد عليها تشغل مكان هؤلاء فلجأ إلى شراء الممالك الترك والخطائية، واستخدام الاجناد واعطاهم الإقطاعات الجديدة، فأصبحت قوته بذلك تزداد يوماً بعد يوم.^(٢)

واصل الصالح أيوب سياسته الرامية إلى تطهير البلاد من الخونة الذين يعملون على قلب نظام الحكم فقبض على جواهر النوبى، وشمس الخواص وكانا أصحاب كلمة في الدولة، كما قبض على جماعة من أكابر أمراء الدولة الكاملية كان لهم نفوذ كبير وأرسل بعضهم إلى قلعة صدر^(٣) والبعض الآخر إلى قلعة الجبل حيث تم إلقاء القبض عليهم هناك وأودعوا السجون.^(٤)

وفي ظل هذا الصراع الدائر بين ملوك بنى أيوب ترك بيت المقدس بيد

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٧٤-٢٧٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٠، ابن دقماق، الجواهر الثمين، ص ٢٤٣-٢٤٤، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٥.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٥، السيوطى، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٤، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٦٩، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٢٠.

(٣) قلعة صدر قلعة في البرية، قرية من عقبة أبله. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٧٦.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧٦، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٣، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٢٠.

(٢١٦)

الصليبيين ما يقرب من إحدى عشرة سنة دون أن يفكروا في استعادته إلى أن قبض الله له الناصر داود الذي تمكن من تحريره وهذا ما سنوضحه في المبحث التالي.

هجوم الناصر داود على بيت المقدس

لم يحاول ملوك الأيوبيين خلال السنوات الأولى عشرة بين سنة ٦٢٦هـ وسنة ٦٣٧هـ أن يستردوا بيت المقدس ويخلصوه من الاحتلال الصليبي، على الرغم من بقاء المدينة غير محصنة، واسوارها مهتمة، ولم يكن للصليبيين فيها ملك قوى أو شخصية بارزة ترعى شؤونهم وتدافع عنهم، إضافة إلى عدم وجود جيش كبير للصليبيين في بيت المقدس وهذا هو السر الذي أدى إلى بقاء حكومة مملكة بيت المقدس في عكا ولم تفكر في العودة إلى بيت المقدس في تلك الفترة الحرجة.^(١)

إن تسليم بيت المقدس للصليبيين بمقتضى صلح يافا سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م لم يكن له أهمية بالغة لدى المجتمع الصليبي كما كانت في السابق قبل أن يفتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١٠٩٩م نظراً لبقاء المدينة مفتوحة وغير محصنة^(٢) فكان من حق المسلمين أن يدخلوا المدينة ويشرفوا على مقدساتهم فيها، وبقيت مدينة بيت المقدس نتيجة لذلك قسمة بين النفوذ الإسلامي والصليبي، مما جعل كل فريق منهم يخشى الاستقرار فيها والمتاجرة بها حتى أصبحت المدينة فقيرة تشكو من قلة السكان بها من المسلمين والصليبيين ولم يبق لها غير مكانتها الدينية فقط.^(٣)

حاول الصليبيون أن يعززوا موقفهم في بلاد الشام بإعادة مملكة بيت المقدس

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٨١، عبد الجليل عبد المهدى، بيت المقدس في أدب

الحروب الصليبية، ص ٢٠٥، عبد الرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، ٣٦٦.

(٢) مكسيموس مونرود تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٧٨،

رنيسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٤٠، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧٦.

(٣) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٧٦.

كما كانت عليه فى السابق فارسلوا إلى الامبراطور فردريك الثانى يطلبون منه أن يرسل ابنه كونراد الرابع إلى بلاد الشام لينصب ملكاً على مملكة الصليبيين باعتباره الممثل الوحيد للسلالة الشرعية -بزعمهم- لملوك المملكة، إلا أن الامبراطور فردريك رفض هذا العرض.^(١)

وبالرغم من جمود ملوك الأيوبيين وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى ألت بالصلبيين بعد صلح يافا سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، فإن عامة المسلمين اظهروا حزنهم وأسفهم العميق على ترك مدينة بيت المقدس لقمة سائغة فى ايدى الصليبيين^(٢)، وحاولوا القيام بواجب الجهاد المفروض على المسلمين لتخليص بيت المقدس وغيره من البلاد الاسلامية من ايدى الصليبيين فى الوقت الذى تشاغل فيه ملوك الأيوبيين عن ذلك بحروبهم الاهلية^(٣)، لذلك قام مجموعة من آئمة المسلمين الزهاد فى حبرون ونابلس بشن غارة على الصليبيين فى بيت المقدس، فلاذ الصليبيون بالفرار وتحصنوا فى برج داود، فبادر سيد حيفا بطلب النجدة من عكا لحماية الصليبيين فى بيت المقدس وبما أن هذه الحملة لم تكن قوية فإنها انسحبت على الفور عندما علمت بقدوم جيش صليبي يقوده نائبى الامبراطور الألمانى فى بلاد الشام باليان سيد صيدا وجارنييه، ولإنشغال امراء المسلمين بصراعاتهم الداخلية وخوفهم من الدخول فى حرب عامة مع الصليبيين انكروا صلتهم بهذه الغارة على بيت المقدس، فاكفت الحملة بهذا الانكار وعادت من حيث اتت دون أن تحاول تعزيز الحماية الموجودة فى المدينة.^(٤)

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٧٦.

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٩٨١.

(٣) عبدالحليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٥.

(٤) رئيسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٤٠-٣٤١، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس

تحت الحكم الصليبي، ص ٢٨.

ويبرر البعض تقاعس الأيوبيين عن القيام بواجب الجهاد ضد الصليبيين واسترداد بيت المقدس وغيرها من البلاد الإسلامية بأن ذلك يعود إلى تخوفهم من الخوارزمية وغاراتهم المدمرة التي شنوها على كثير من البلدان الإسلامية وتخوفهم كذلك من المغول الذين تمكنوا فيما بعد من القضاء على الدولة الخوارزمية واستولوا على سائر ما كان بيد الخوارزمي من بلاد، وأصبحوا بذلك على مقربة من أملاك الأيوبيين في الجزيرة.^(١)

ولو سلمنا بهذه المبررات فهل يسوغ لهم ذلك تقسيم الدولة إلى ممالك صغيرة يتربع على عرش كل مملكة من هذه الممالك حاكم من افراد البيت الأيوبي مستقل في حكمه وإدارة شؤون مملكته عن الممالك الأخرى ولم يقتصر الأمر على ذلك بل وقعت بينهم الخصومات والصراعات لدرجة أن استعان بعضهم على بعض بالصليبيين والخوارزميين وسلاجقة الروم فتمزقت بذلك جهود المسلمين وأصبحوا لقمة سائغة للاعداء.

وفي سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م انتهز الصليبيون فرصة الاختلاف بين الملوك وعملوا على تحصين بيت المقدس فعمروا " في غربية قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من أبراجها وكان هذا البرج لم يخرب لما خرب المعظم اسوار القدس"، فخالفوا بذلك نصوص الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك. وكان من شروط ذلك الاتفاق أن يكون الحرم الشريف بما فيه من المقدسات للمسلمين وأن تكون اعمال القدس ماعدا عشر ضياع على طريق الصليبيين من عكا إلى القدس للمسلمين ايضاً وشرط أن يكون بيت المقدس خراباً لا تجدد فيه عمارة.^(٢)

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ١، انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨١-٩٨٣، عبدالرحمن الرفاعي، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٤٦، المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٩١، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٥١، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤١، أبو الفدا،

وبعد انتهاء أمد الهدنة دعا البابا جريجورى التاسع إلى القيام بحملة صليبية خوفاً منه على بيت المقدس، وارسل إلى كل من ملكى فرنسا وانجلترا يدعوهم إلى الاعداد لهذه الحملة وبما أنهما لم يكونا مستعدين للقيام بهذه الحملة فقد بذلا كل دعم وتشجيع للدعوة إليها، فلقيت هذه الدعوة استجابة لدى عدد كبير من الفرسان فى فرنسا بوجه خاص وكان على رأسهم مجموعة من كبار الامراء ثيوت الرابع (Thibautiv) اميرشامبنى وملك نافا، وهيو الرابع (Hugh III) امير برجنديا، وبطرس موكلرك (Peter Mauclark) أميربريتانى وغيرهم.^(١)

وبما أن أغلب فرسان هذه الحملة من فرنسا خشي الامبراطور فردريك على نفوذه فى الشرق إذ أنه يعتبر نفسه حاكماً على مملكة بيت المقدس بالنيابة عن ابنه الصغير كنوراد لذلك كان يرى أن تخضع هذه الحملة لسلطته إضافة إلى أنه كان غير موافق على اشتراك امراء فرنسا فى هذه الحملة لأنه يعلم أن هؤلاء سيقومون بمساندة بارونات الشرق ضده، كما أنه كان يأمل أن يمكن للصليبيين فى الشام عامة وبيت المقدس خاصة عن طريق المفاوضات السياسية نظراً لادراكه لوضع المسلمين فى بلاد الشام ومصر وبما أن الامبراطور لم تكن له القدرة على ضبط هذه الحملة فقد أخذ منهم وعداً بالا يصدر منهم شيء إلا عند انتهاء أجل الهدنة.^(٢)

انطلقت الحملة الصليبية من أوروبا قاصدة بلاد الشام، وتعرضت اثناء سيرها

المختصر فى اخبار البشر، ج٣، ص ١٦٥، مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٨١.

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨٦ - ٩٨٧، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٢، سعيد أحمد برحناوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٢٢، مكسيموس مونروند، المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٧١.

لعواصف عاتية في البحر الأبيض المتوسط فرقت جموعهم حيث ساقى بعض السفن إلى قبرص ودفعت سفناً أخرى إلى جزيرة صقلية، ثم عادت هذه الحملة وجمعت صفوفها ووصلت إلى عكا في أول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م بقيادة ثيوت الرابع ومعه من الجند حوالي ألف وخمسمائة فارس عدا المشاة، ويؤكد بعض المؤرخين أن هذه الحملة الصليبية الفرنسية افتقرت إلى المرونة السياسية التي عرف بها كل من ريتشارد قلب الأسد وفرديريك الثاني، نظراً لأنهم لم يحاولوا الاستفادة من الصراعات العنيفة التي قامت بين ملوك بنى أيوب بعد وفاة السلطان الكامل سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م واتخذوا طابعاً عسكرياً جامداً مما أدى إلى فشل حملتهم في نهاية المطاف.^(١)

وكيفما كان الأمر فإن زعماء الحملة الفرنسية بقيادة الصليبيين في بلاد الشام اجتمعوا للتشاور في هذا الأمر وتحديد الخطوة التي يجب أن يتخذها الصليبيون، ولكنهم انقسموا على أنفسهم، فرأى قسم منهم أن توجه الحملة إلى مصر باعتبارها القلب المحرك في الدولة الأيوبية، فإذا تمكنوا من السيطرة على دمياط والاسكندرية أمكنهم إجراء مقايضة مع الأيوبيين، فيرجع إليهم بيت المقدس بكل سهولة ويسر.

ورأى قسم آخر أن يقصدوا دمشق مباشرة، ورأى قسم ثالث أن يتجهوا إلى صفد لاحتلالها من المسلمين، وتحصينها لتصبح قاعدة حصينة لهم في بلاد الشام، ومركزاً لعملياتهم العسكرية ضد دمشق وبيت المقدس على حد سواء، ورأى قسم رابع أن يتجه الصليبيون مباشرة إلى بيت المقدس ومركز عملياتهم في الاستيلاء عليها، وفي الأخير استقر رأى الصليبيين على أن يقصدوا عسقلان لهدمها واحتلالها، ثم يقصدون دمشق وبتزعونها من المسلمين، ولقد فطن حكام

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧١-٣٧٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨٧، عبدالرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٧١-٣٧٢.

المسلمين لهذا المخطط فسارع الصالح إسماعيل إلى تحصين دمشق بينما يبادر العادل الثانى إلى إرسال فرقة عسكرية من مصر إلى غزة لحماية عسقلان من خطة الصليبيين.^(١)

عندئذ خرجت الحملة الصليبية من عكا سنة ٦٣٧هـ نوفمبر سنة ١٢٣٩م متوجهة إلى الحدود المصرية، وانضم إلى هذه الحملة مجموعة من فرسان الطوائف الدينية الحربية، وعدد كبير من البارونات فى بلاد الشام، وأثناء سير هذه الحملة إلى مصر ورد الخبر إلى بطرس كونت بريتانى أن قافلة للمسلمين وافرة الثروة تسير بمحاذاة نهر الاردن قاصدة دمشق، فلم يرد بطرس كونت بريتانى أن يفوت هذه الفرصة على نفسه فبادر باصطحاب مجموعة من فرسانه ونصبوا كميناً للقافلة الإسلامية، ومع ذلك فإن القافلة الإسلامية لم تكن لتسير هكذا بلا حراسة لأن قطاع الطرق كثيرون وعلى رأس هؤلاء الصليبيين الذين لا يؤمن جانبهم، فقد كانت مزودة بحراس اقوياء مسلمين، وعندما تقابل الطرفان صمد المسلمون فى وجه الصليبيين وكاد بطرس أن يلقي مصرعه، غير أن امكانيات المسلمين لم تكن كافية لمواصلة المقاومة فولوا الأدبار بعد أن تركوا فى ايدى الصليبيين جميع ما فى القافلة من الماشية والاغنام وغيرها وعاد بطرس إلى يافا منتصراً ومحملاً بالغنائم فلحقى بذلك كل حفاوة وتكريم من الصليبيين، نظراً لنقص المؤنة لدى الجيش الصليبي المتجهة إلى مصر.^(٢)

(١) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٨٢-٢٨٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨٧-٩٨٨، عبد الجليل حسن عبد المهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٦، عبد الرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٢، سعيد أحمد برجوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٢٣.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧٣، سعيد أحمد برجوى، المرجع السابق، ص ٥٢٣-٥٢٤.

غادر الجيش المصرى بقيادة الامير المملوكى ركن الدين مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م قاصداً غزة وكانت عدة هذا الجيش تبلغ حوالى الف رجل فقط، فطمع فيهم بعض قادة الصليبيين وقرروا المبادرة بالهجوم عليهم ليتحقق لهم النصر والغنيمة على غرار ماحدث عندما استولى بعض الصليبيين على القافلة الإسلامية، وكان هؤلاء القادة يحيطون اطماعهم تلك بشيء من السرية، حتى لا يسمع بهم قائد الحملة الفرنسية ثيوت الرابع^(١)

استعد هؤلاء القادة للهجوم على غزة فى ١٢ نوفمبر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م على رأس جماعة مؤلفة من خمسمائة فارس، ومايزيد على ألف راجل، إلا أن الأخبار تسربت إلى ثيوت الرابع ومجموعة من الأمراء وزعماء الطوائف الدينية العسكرية، فقدموا عليهم وحاولوا اقناعهم بعدم المسير إلى غزة ولكن دون جدوى فقد أصر أولئك على المسير إلى غزة واتهموا ثيوت الرابع (Thibautiv) ومن معه من الأمراء بالجبن وهذا يدل على فوضى الحملة الفرنسية وضعف قيادتها، فقد عجزت عن أن تشي عزم بعض المنشقين عن تنفيذ مخططهم.^(٢)

عندئذ سار المنشقون من الصليبيين صوب غزة، وحينما اقتربوا منها قيل الفجر، أصدر هنرى (Henry) كونت بار أوامره إلى جنده بالتوقف فى منخفض وسط التلال الرملية على ساحل البحر الابيض المتوسط، حتى يأخذوا قسطاً من الراحة، فعلم به قائد الجيش المصرى وأرسل جواسيسه يتبعون أخبارهم، علماً بأن الجيش المصرى فاق فى الضخامة والقوة ماكان يعلمه الصليبيون ويعقب رنسيमान على جهالة الصليبيين وعدم اتخاذهم الحيطة والحذر بقوله " لم يعتقد الامير ركن الدين أن يكون عدوه على هذه الدرجة من الحماسة، فأرسل رماته، ليزحفوا حول التلال

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٩ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧٣-٣٧٤.

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٧٤.

الرملة، حتى كاد يتم تطويق الفرنج".^(١)

أدرك أحد أمراء الصليبيين خطورة الموقف الذى هم فيه فامر الجند بالتراجع السريع لأن بقاء القوات فى الرمال يعيق تحركها فى صد أى هجوم، فيقعوا بذلك لقمة سائغة للمسلمين، وعندما تراجع مجموعة من أمراء الصليبيين باتجاه الشمال لحق بهم سائر الفرسان، ولم يبق غير هنرى كونت بار الذى لم يشأ أن يترك جنده يقعون فى قبضة المسلمين، وبقي معه أقرب الأصحاب وأخلصهم له، ثم دارت المعركة بين المسلمين والصليبيين يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وانتهت بهزيمة الصليبيين وانتصار المسلمين عليهم نصراً مؤزراً، حيث عجز الصليبيون عن التنقل فى أرض المعركة لثقل الأسلحة التى يحملها الجند^(٢) "وأخذ من الفرنج ملوكهم واكنادهم وثمانون فارساً ومائتان وخمسون راجلاً ووصلوا إلى القاهرة وقتل منهم الف وثمانمائة ولم يقتل من المسلمين غير عشرة".^(٣)

ويتحدث ابن العديم عن ذلك النصر فيقول " وكنت إذ ذاك بالقاهرة رسولاً إلى " الملك العادل " اهنته بكسر عسكر الفرنج على غزة"^(٤) وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى ثيوت الرابع قائد الحملة الصليبية عن طريق القارين من الصليبيين، فحزن لذلك وقرر أن يزحف على الفور إلى غزة للانتقام من المسلمين، غير أن الأمراء الصليبيين حذروه من ذلك واعلنوا تخليهم عنه لأن ذلك سوف يؤدى إلى

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ٢٨٣،

رنسيان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٧٥، سعيد أحمد برجاوى، لحروب الصليبية فى المشرق، ص

٥٢٤، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٨٢.

(٣) المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٩٢.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٧.

قتل الأسرى من الصليبيين على أيدي المسلمين، بالإضافة إلى خوفهم من مطاردة المسلمين لهم عقب الانتصار الذي أحرزوه في غزة.^(١)

ويتبين لنا من خلال ذلك ضعف الصليبيين وجهلهم بأحوال الدولة الأيوبية إذ أن النزاع كان قد استحكم بين ملوك بنى أيوب لدرجة أن استعان بعض حكام المسلمين بالصليبيين أنفسهم، كما حصل عندما طلب المظفر تقي الدين صاحب حماه المساعدة من الصليبيين ضد خصومه، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وشيركوه صاحب حمص والحلبين، غير أنه تراجع في ذلك عندما قدم الصليبيون لمساندته ورفض خدماتهم فرجعوا إلى عكا متذمرين من ذلك.^(٢)

ولقد استثمر الناصر داود هزيمة هذه الحملة وقرر حماية بيت المقدس وتحريره من يد الصليبيين على أن الروايات تختلف حول تحرير بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ على يد الناصر داود، فقد ذكر أن الناصر داود توجه بجيشه ومن معه من اتباع الصالح نجم الدين أيوب إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة التي بناها الفرنج، ونصب عليها المنجنيقات، واستمر محاصراً لها، وذكر أنه حاصرها وأحداً وعشرين يوماً، حتى اضطر العدو إلى طلب الأمان مقابل أن يسمح لهم الناصر داود بالرحيل، فامنهم الناصر داود وخرج من كان في بيت المقدس من الصليبيين ورجعوا إلى بلادهم، ثم دخل الناصر داود القلعة وهدمها وهدم برج داود عليه السلام واستولى على بيت المقدس وطهره من دنس الصليبيين واعاده إلى حظيرة الإسلام.^(٣)

(١) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ص ٢٨٣-٢٨٤، ونسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧٥.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٨٩.

(٣) ابن وصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٤٧، المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٩١، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٥، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤٢، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٥١، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٢، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥، الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

ويذكر رنسيما أن الناصر داود زحف على بيت المقدس، وأنه لم يكن للمدينة أسباب دفاع تحميها من الهجوم، سوى جزء من السور الذي بناه فردريك عند باب اصطفان بالإضافة إلى القلعة التي حصنها الصليبيون بما في ذلك برج داود عليه السلام ويذكر أيضاً أن المدينة المقدسة لم تخضع للحكومة الصليبية بل لرتشارد فلانجيرى فى صور، الذى لم يحاول أن يشحنها بحامية كبيرة تدافع عن المدينة، ولهذا لم يصادف الناصر داود صعوبة فى السيطرة على بيت المقدس وإعادته إلى المسلمين ويضيف بأن " العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً، حتى نفذت مؤنهم، فأذعنوا " فى السابع من كانون الاول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وحصلوا على أمان بالرحيل إلى الساحل، ورجع الناصر داود إلى الكرك بعد أن دمر الاستحكامات بما فيها برج داود، كما تقدم.^(١)

وتذكر رواية أخرى أن الناصر داود قام بتقسيم جيشه إلى فرق وعقد لكل واحدة منها راية، وعين لكل فرقة جانباً من جوانب بيت المقدس، وتبين هذه الرواية أن الناصر داود لم يتسرع فى الهجوم وانتظر حتى كانت ليلة عيد من أعياد الصليبيين، فانشغلوا باحتفالاتهم وكان فى جمادى الاولى سنة ٦٣٧هـ / ديسمبر ١٢٣٩م فشنت القوات الإسلامية هجوماً مفاجئاً، تمكنوا فيه من دك الحصون وتدمير القلاع، ثم رفعوا اعلامهم فوقها.^(٢)

ولعل ارجح رواية وردت فى فتح بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ هى الرواية الأولى، ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي كتبها الناصر داود إلى الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣هـ-٦٣٩هـ / ١٢٢٦م-١٢٤١م) فى بغداد يشره فيها

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ج٢، ص ٢٢٥-٢٢٧، السيوطى،

اتحاف الإحصاء، ص ٢٨٨.

بفتح بيت المقدس، حيث يقول متحدثاً عن نفسه، مخاطباً الخليفة "... فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، وراوحهم وغاداهم بالمناوشة في اصائل الحصار وبكره ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير اراقة دم، أو قتل موحد يفتدى من المشركين بأمم" إلى أن يقول: "ونصب عليهم المجانيق التي تراحم الحصون بمناكبها، وتحرت شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم كواكبها...، وأوجد النقابون في الاسوار نقوباً سفرت نقامها، وولى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت حجابها" ثم يتحدث عن اعتصام الفرنج في برج داود عليه السلام، وأنهم كانوا "قد سيروا رسولاً يطلب لهم الامان على نفوسهم واموالهم، والخروج بما يقدرون عليه من اسلحتهم واثقالهم" فلم يستجب لهم الناصر داود واعرض عنهم وضيق الحصار عليهم، ثم عادوا بعد ذلك سألوا الامان على نفوسهم والخروج بمجرد نفوسهم " فاستجاب لهم بعد أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة.^(١)

وعلى اية حال فإن الناصر داود استطاع أن يعيد بيت المقدس للمسلمين ويظهره من دنس الصليبيين، غير أن هذا الفتح لم يلق اهتماماً من عدد من المؤرخين، فلم يتحدثوا عنه في حوادث سنة ٦٣٧هـ من امثال سبط بن الجوزي، والذهبي، وأبو شامة المقدسي^(٢)، على الرغم من أن الناصر داود "أمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين، والنصر العزيز، فكتب وعادت الاجوبة عنها"^(٣) ولقد اشاد بهذا الفتح الشاعر جمال الدين بن مطروح^(٤) حيث

(١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ج٢، ص ٢٢٨-٢٣١.

(٢) عبد الجليل حسن عبد المهدى، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) السيوطي، اتحاف الاحضا، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

(٤) هو الاديب الشاعر جمال الدين أبو الحسن بن يحيى بن عيسى بن ابراهيم بن مطروح المصري صاحب الشعر الرائق، ولد سنة ٥٩٢هـ بصعيد مصر، برع في الأدب وخدم الملك الصالح أيوب واقام عنده بحصن كيفا وسنجار وتنقل في الوظائف حتى اصبح من أكابر رجال الدولة الأيوبية توفي في شعبان سنة ٦٤٩هـ، انظر ترجمته في ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص ٣٠٢-٣٠٩، ابن العماد

اتفق وصوله ساعة الفتح مع رسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي الذي قدم
للاصلاح بين ملوك بنى أيوب " فقال جمال الدين يمدح الملك الناصر داود،
ويذكر مضاهاته في فتح القدس لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف على
اشتراكهما في اللقب والفعل وهو معنى لطيف مليح"، فيقول:

المسجد الأقصى له عادة	سارت فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا بالكفر مستوطناً	أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهره أولاً	وناصر طهره آخراً ^(١)

كذلك اشاد به ابنه الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن بن الناصر داود،
ويصفه بأنه " السلطان الملك الناصر.. صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام
والمسلمين، منقذ بيت المقدس من ايدي المشركين، ناصر الاسلام وحصنه، ذخيرة
الإمام وركنه مؤيد الملة وعزها، غياث الامة وكثرها، كهف الشريعة وحسامها "
ويطيل الأمجد الإشادة بوالده الناصر داود محرر بيت المقدس، فيصوره موضحاً
للحق وممهداً له ومظهراً للعدل ومحباً للعلوم، وأنه " جامع كلمة الايمان، ورافعها،
مفرق كلمة الكفر وواضعها" ويترسل في الإشادة بوالده فيبين مكارمه ويفضله
على غيره من الملوك الآخرين^(٢)، ويصفه صاحب مواقف مشهودة في الإسلام،
يقول " لاجرم أن له في الإسلام مواقف مشهودة، ومشاهد تعددت فهي غير
معدودة، جعل دأبه المحاماه عن الإسلام وأهله، ولم يتخذ إلا رؤوس المشركين
اغماً لرمحه، ونصله، ونصر دين الله، فارتضاه له ناصراً، وطهر به وبسميه بيته

الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٤٧-٢٤٩، النعمي، العبر، ج ٣، ص ٢٦٤.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٤٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٤٢،
أبوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٥١، مجير الدين الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس
والخليل، ج ٢، ص ٥.

(٢) الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن بن الناصر داود الفوائد الجلية في القرائد الناصرية، حوادث،
سنة ٦٣٧هـ، وانظر عبد الجليل حسن عبد المهدى، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ٢١١.

المقدس أولاً واخراً^(١).

كما أن الناصر داود هو الآخر اشاد بهذا الفتح الذى تم على يده، ويظهر ذلك واضحاً جلياً فى الرسالة التى أرسلها الناصر داود إلى الخليفة العباسى المستنصر بالله فى بغداد، يبشره بهذا الفتح، وهو الفتح الناصرى الدويدارى " كما يسميه مجير الدين العليمى الحنبلى^(٢) ، وكانت هذه الرسالة تتضمن وصفاً دقيقاً لهذا الفتح الذى تم فيه استنقاذ بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين ومن أهم النتائج المترتبة على ذلك مايلى :

- ١ - عودة بيت المقدس للمسلمين.
- ٢ - تطهير بيت المقدس من دنس الصليبيين.
- ٣ - هدم القلاع والحصون التى شيدها الصليبيون.
- ٤ - إظهار قوة المسلمين ومحبتهم لمقدساتهم مهما بلغ بهم الضعف.
- ٥ - فرح المسلمين بعودة ثالث الحرمين إلى حوزة الإسلام.

وهكذا تمكن الناصر داود من استغلال الاوضاع السيئة للصليبيين فى بلاد الشام وأعد العدة للاستيلاء على القدس وقد تحقق له ذلك إلا أن هذا العمل لم يتمتع به المسلمون كثيراً فقد عاد النزاع بين ملوك بنى أيوب الامر الذى أفقدهم القدس مرة أخرى إلا أن الخوارزمية الذين دخلوا بلاد الشام تمكنوا من استعادة القدس من الصليبيين رغم هزائمهم المتلاحقة على يد بعض ملوك بنى أيوب وهذا ماسنراه مفصلاً فى المباحث التالية:

(١) الامجد مجد الدين، الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

(٢) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ٢٣٢.

الفصل الثالث

(٢٣١)

موقف الخوارزميين من

الخلافت

المتجددة بين ملوك بني أيوب

(٦٣٨ - ٦٤١ هـ)

- هزيمة الخوارزميين أمام الأيوبيين عند الرها سنة ٦٣٨ هـ.
- تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين سنة ٦٣٨ هـ.
- تجدد خطر الخوارزميين على بلاد الشام سنة ٦٤٠ هـ.
- تحالف الصالح أيوب مع الخوارزميين سنة ٦٤١ هـ.

هزيمة الخوارزميين أمام الأيوبيين

عند الرها سنة ٦٣٨هـ

بعد استرداد بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ على يد الناصر داود واعتقال الصالح أيوب في قلعة الكرك تطلع الخوارزميون إلى التحكم في بلاد الشرق ونهب خيراتها، وكانت أول ضحية تقع في أيديهم هي قلعة جعبر^(١) التي كان يحكمها الملك الحافظ ارسلان ابن الملك العادل، إذ لم تكن له قوة يحافظ بها على قلعته من اطماع الخوارزمية إلا ما كان يبذله لهم من أموال لكف شرهم عنه، غير أن اطماع الخوارزمية لا تقف عند حد، فخاف الحافظ منهم خاصة وأن ولده الذي خرج عليه قد انضم إليهم، فأرسل إلى أخته صاحبة ضيفة خاتون جدة الملك الناصر الصغير صاحب حلب، يطلب منها أن تأخذ منه قلعة جعبر وبالس^(٢) وتعطيه مقابل ذلك ما يماثلها من أعمال حلب، فرضيت أخته بذلك وتم الاتفاق بينهما في صفر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠ م على أن يأخذ الحافظ عوضاً عنها عزاز^(٣) وغيرها من الأعمال التي تكافئ بلادها^(٤).

(١) قلعة جعبر: تقع على الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف باسم دوسر فتملكها رجل من بنى نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقّة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) عزاز: بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما مسيره يوم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٨-٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٧٩،

وما إن تم الاتفاق بين الطرفين وأرسل كل واحد منهما نوابه لتسلم البلاد التي وقع الاتفاق عليها، حتى خرجت الخوارزمية بمجموعها واغارت على قلعة جعبر، ثم زحفوا إلى بالس وانقضوا عليها ونهبوها ودمروها، ولم يسلم من أهلها إلا من كان قد خرج منها قبل وصولهم إليها إلى حلب وإلى منبج^(١)

انتهر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ما قام به الخوارزمية من الهجوم على ممتلكات الأيوبيين فأغار في سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م على سنجار وأخذها من صاحبها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل الأيوبي، الذي لم يبق بيده بعد سنجار سوى عانه فاضطر إلى بيعها للخليفة المستنصر بالله بجملة من المال، أما سنجار فقد بقيت بيد لؤلؤ حتى توفي في الثالث من شعبان سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م.^(٢)

ثم قصدت الخوارزمية بعد ذلك التوجه إلى حلب، وانضم إليهم جمع غفير منهم الجواد يونس وولد الملك الحافظ والملك الصالح بن الملك المجاهد صاحب حمص حتى أصبح جيشهم يقدر بحوالي إثني عشر ألف فارس^(٣) ويزعم

ابوالفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٧، ابن ايبك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤١، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٧٦.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٨٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٢، ومنبج: بلد قديم بالشام وما أظنه إلا روميا وتبعد عن حلب عشرة فراسخ، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨١، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٧٠، عفاف صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٢، ويذكر سبط ابن الجوزي، وابن ايبك أن عدد قوات الخوارزمية ومن انضم إليهم تقدر بحوالي خمسة آلاف فارس، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٣٥، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤١، وانظر كذلك ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧٥.

البعض أن سبب هذه الحملة على حلب، أن زعيم الخوارزمية محمد تركان خان بن دولة شاه الخوارزمي أرسل إلى زعيم حلب يخطب ابنته، فلم يلبي طلبه، وأمر بإهانته رسوله.^(١) عندئذ خرج إليهم عسكر حلب بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين وعسكروا بالنقرة^(٢)، ثم نقلوا معسكرهم إلى منبج حيث أقاموا بها في انتظار قوات الخوارزمية التي توجهت إليهم في جمع غفير من العرب بقيادة الأمير علي بن حديثة من آل فضل، وكان هذا الأخير في صفوف الحلبيين وتركهم لتقريبهم الأحلاف لأنهم أعداؤه^(٣)

لم يأبه الخوارزميون للجيش الحلبي بل واصلوا مسيرهم إلى الفرات وعبروا من جسر الرقة وساروا حتى وصلوا إلى نهر بوجيار^(٤)، فسمع بهم عسكر حلب وقرروا تغيير معسكرهم، فانتقلوا إلى وادي بزاعا" وأصبح كل من الفريقين يطلب صاحبه"، ولم يكن عسكر حلب في مرحلة تمكنه من الانتصار على القوات الخوارزمية حيث أن عسكرهم لم يتجاوز ألف وخمسمائة فارس، ومع ذلك كانوا متفرقين في الاقطار، فبعضهم كان في نجدة غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم على السر، وبعضهم كان متحصناً في قلعة جعبر لحمايتها من الخوارزمية،

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧٥، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ١٩٣.

(٢) النقرة: بالفتح ثم السكون، جبل بحمي ضربة بإقبال نضاد عند الجشجاة، وقيل ماء لغني، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٤٩-٢٥٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٨٢، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٦.

(٤) نهر بوجيار: لم يعرف مكان هذا النهر في المعاجم المتوفرة، انظر ابن العديم، المصدر

السابق، ج ٣، ص ٢٥٠، حاشية ٢.

والبعض الآخر متفرقون في بقية القلاع التابعة لحلب مثل شيزر وحارم وغيرها.^(١)
استعد كل من الفريقين لقتال خصمه، فاقبلت الخوارزمية مع زعيمهم بركة
خان ومعه من الأمراء كشلوخان، وبردى خان، وغيرهم وكذلك من انضم إليهم
كالجواد يونس وابن الملك الحافظ والصالح ابن المجاهد صاحب حمص بالإضافة
إلى نجدة ماردين وعبروا نهر الذهب^(٢) وتقابل الفريقان في قرية البيرة^(٣) في يوم
الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م "فصدموا عسكر
حلب صدمة ترحزحوا لها"^(٤) والتف على بن حديثة من ورائهم فوقع على الغلمان
والركبدارية^(٥)، فاضطربت صفوف الحلبيين لاحاطة العسكر بهم من جميع
الجهات، وانهزموا اقبح هزيمة ولم ينج منهم إلا القليل بعد القتل والاسر الذي حل
بكثير منهم من قبل القوات الخوارزمية.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٨٢-
٢٨٣، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،
ص ٣٣٩. شيزر: قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر
الأردن، تعد في كورة حمص، وحارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية، وهي من
أعمال حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) نهر الذهب: يزعم أهل حلب أنه نهر وادي بطنان الذي يمر ببزاعة، انظر ياقوت، معجم البلدان.
(٣) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع،
انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٠، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٣،
أبوالفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٤، الخطيب
العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٦، ابن ابيك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٤١، على
عوده، المرجع السابق، ص ٣٣٩.

(٥) الركبدارية: الركبدارية هم الذين يحملون السرج أو الغاشية بين يدي السلطان في المواكب
العامة والاعياد، انظر القلقشندي، صبح الاعشى ج ٤، ص ٧.

وكان من ضمن الذين وقعوا في قبضة الخوارزمية قائد القوات الحلبية المعظم ابن صلاح الدين واخوه واغلب الأمراء، كما قتل الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، ووقعت اثقال العسكر في ايدي الخوارزمية، وتمكن الاعراب من نهب الاموال وغيرها وكانوا " أشد ضرراً على العسكر من اعدائهم".^(١)

تقدمت الخوارزمية بعد ذلك صوب حيلان^(٢)، وساروا على النهر إلى فافين^(٣)، واخذوا أموال العسكر بتلك المناطق، ولحبهم الشديد لجمع الأموال وخوفهم من الأسرى، أخذوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه بماله، فنجوا بعضهم وغدروا بالبعض الآخر بعد أن اخذوا منه المال فلم يطلقوه" وشربوا تلك الليلة وقتلوا جماعة من الاسرى صبراً"^(٤)

اضطرب أهل حلب من جراء هذه النكسة التي وقعت على العسكر وخافوا من تقدم الخوارزمية إلى حلب فتدور الدائرة عليهم إذ أن الخوارزميين متى ماتحكموا فيهم فإنهم لن يرقبوا فيهم إلا ولازمة لذلك أمرت صاحبة ضيفة خاتون المعين في البلد بتحسينها وحفظ الأسوار والأبواب فخاف الأهالي المقيمين خارج السور

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٩-٢٥١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٣-٢٨٤، ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ١٦٨، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٦، الغزى، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٣، ص ١٥٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) حيلان: قرية من قرى حلب تخرج منها عين فواره كثيرة الماء تسيح إلى حلب وتدخل إليها في قناة وتنفرد إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) فافين: قرية معروفة قرب حلب، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥١، حاشية ٤.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥١، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٤،

أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤٤، الغزى،

المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٢.

وسارعوا بالدخول إلى المدينة بعد أن نقلوا معهم ما استطاعوا من الأقمشة والأمتعة، ولم يكن في حلب من الجند سوى اميرين في جماعة قليلة لا تتجاوز مائتي فارس كانوا يخرجون إلى ظاهر حلب في دوريات متتابعة لتستكشف الأخبار حتى لا يأتيهم العدو على حين غرة من أمرهم.^(١)

استمر الخوارزمية في مواصلة مسيرتهم القوضوية فبثوا سراهم في قرى حلب ووصلت غاراتهم إلى بلد عزاز وتل باشر وبرج الرصاص^(٢) وجبل سمعان وطرف العمق وبلد الحوار^(٣) واحاطوا باهل تلك المناطق احاطة السوار بالمعصم فلم يستطيعوا الفرار منهم " واخذوا من الغنائم من المواشي والأمتعة والنساء والصبيان ما لا يعد ولا يحصى، وفعلوا من ارتكاب الفواحش مع حرم المسلمين ما لا يفعله التتر، ولا غيرهم من الكفار إلا ما سمع عن القرامطة"^(٤)، انطلق الخوارزمية بعد ذلك صوب بزاعا والباب^(٥) وعذبوا أهل هذين البلدين واجبروهم على إخراج اموالهم التي أخفوها وقتلوا بعضهم ونهبوا كل ما وقعت ايديهم عليه من الأمتعة والأموال، ثم ساروا إلى منبج فاعتصم أهلها بسور

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٢، ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمال حلب أهلها نصارى أرمن. برج الرصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) بلد الحوار: قرب العمق، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٢، حاشية ١.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٢، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٥، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي ج ٢، ص ٢٤٤، الغزى، نهر الذهب، ج ٣، ص ١٥٢.

(٥) بزاعا: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينهما وبين كل واحدة منها مرحلة وفيها مياه وعيون جارية وأسواق حسنة، انظر ياقوت، معجم البلدان. والباب: يعرف بباب بزاعا بليدة من أعمال حلب، انظر أبو الفداء، تقويم البلدان.

ولكن الخوارزمية تمكنوا من دخولها عن طريق الأماكن التي لاسور لها ووضعوا السيف في أهل البلد وكان ذلك في يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ فقتلوا ونهبوا ودمروا واستباحوا الاعراض بل بلغ بهم الأمر أن جاهروا الله تعالى بالمعاصى فى بيت من بيوته فقد " التجأ جماعة من النساء إلى الجامع فدخلوا عليهن، وارتكبوا الفواحش فى الجامع " وفقدوا كل معنى من معانى الإنسانية والشفقة والرحمة إذ " كان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع فيأخذه ويضرب به الأرض ويأخذها ويمضى " وبعد هذه الأعمال الوحشية الهمجية التى صدرت منهم فى حق اخوانهم المسلمين رجعوا إلى بلادهم^(١).

وبدراستنا التاريخية لاحداث تلك الفترة يعجز الانسان عن مواصلة الكتابة لدهشته الشديدة وحيرته اللامحدودة من هذه الأعمال التى قامت بها الخوارزمية، ويتساءل هل هؤلاء مسلمون ؟ وإذا كانوا مسلمين فما الذى حملهم على ذلك؟ وما مقدار تمسكهم بالاسلام ؟ إن المطلع على هذه الأعمال يكاد يجزم بأنها لايمكن أن تصدر عن مسلم قط... فما هو السبب إذا ؟ كل ذلك يمكن أن يستنبط من قوله تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾^(٣) فالله سبحانه وتعالى سلط هؤلاء الظلمة من الخوارزمية على أهل تلك البلاد بسبب انحرافهم عن شرع الله، كما أن ذلك فى نفس الوقت استدراج من الله سبحانه وتعالى للخوارزمية الذين طغوا وبغوا فى البلاد. إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٢-٢٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٥-٢٨٦، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٣، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٣٤١.

(٢) سورة هود، آية ١١٧.

(٣) سورة الانعام، آية ١٢٩.

يفلته، ومما شجع الخوارزمية كذلك على القيام بأعمالهم تلك هو الصراع الدائر بين ملوك بني أيوب.

وما أن سمع المنصور صاحب حمص بتلك الأعمال الشنيعة التي قام بها الخوارزمية، حتى أخذته الحمية وقرر الدفاع عن حلب والانتقام منهم رغم أنه كان في مقابلة الفرنج، فسار إلى حلب بعسكره ومن كان عنده من عسكر دمشق ووصل إليها يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الآخر وخرج الناصر صاحب حلب وأهل البلد لاستقباله في السعدى^(١) ثم انتقل المنصور صاحب حمص إلى الهزازه^(٢) وعقد اجتماع مع المسؤولين في حلب تقرر فيه أن تجمع العساكر مع بعضها وتكون قيادتها بيد المنصور صاحب حمص^(٣)، وكان للمؤرخ المعاصر ابن العديم دور كبير في تعزيز قوات حلب عندما طلب من الصالح إسماعيل فرقة مساندة للقوات المجتمعة بها وذلك عندما أرسلته صاحبة ضفية خاتون في سفارة إلى أخيها الصالح إسماعيل لتحليفه لها ولابن ابنها السلطان الناصر فحلف له الصالح إسماعيل وأرسل معه فرقة مساندة، وحتى لا تشتت الجهود قامت صاحبة "باطلاق الاسرى الداوية الموجودين بحلب استكفاء لشهرهم" وحين سمع الخوارزمية بتجمع العساكر فيها لقتالهم بقيادة المنصور صاحب حمص أخذوا يتجمعون بحران وعزموا على مهاجمتها ومباغتتهم قبل أن يتم

(١) السعدى: فضاء فياح تجرى فيه أنهر متشعبة من نهر واحد بحاقيها مروج خضراء وبها من الزهور المختلفة ما لا يبلغه الوصف، وقد ذكر ابن الشحنة في الدرر المنتخب ص ٢٥٥، أنها منتزهات حلب، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٤، حاشية ١.

(٢) الهزازه: كانت في ظاهر حلب وهي اليوم من أحياء المدينة وفي قلبها، انظر الدرر المنتخب، ص ١٠٥، وانظر كذلك ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٤، حاشية ٢.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٣-٢٥٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٤١٠، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٨.

استكمال تجمع القوات الأيوبية بحلب وعندئذ يضطرون إلى طلب الصلح منهم إلا أنهم عدلوا عن خطتهم تلك وأثروا عدم الأصطدام بالأيوبيين بعد انفصال علي بن حديثة عنهم وانضمام طاهر بن غنام ومن معه إلى القوات الأيوبية.^(١)

تحركت الخوارزمية من حران في يوم الاثنين سادس عشر من شهر رجب سنة ٦٣٨ هـ وعبروا الفرات إلى الرقة، ونقل المنصور معسكره إلى شرقي حلب على أرض النيرب وجبرين وأخذ الخوارزمية يعيشون الفساد في البلدان التي يمرون عليها ويحرقونها ويأخذون ما يقدرون عليه منها ومن هذه البلاد التي لحقها الضرر من القوات الخوارزمية أفايا ودير حافر والجبول وأرض النقرة^(٢) وكان الملك المنصور صاحب حمص ينقل عسكره من مكان إلى مكان آخر تبعاً لتنقلات الخوارزمية وأقام الخوارزمية لهم يزكاً في تل عرن^(٣) بينما كان يزك المنصور في بوشلا^(٤) ومن أسوأ ما قامت به القوات الخوارزمية احراقها "الاقوات التي في القرى واخذهم ماقدروا عليه".^(٥)

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٤-٢٥٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٤٢.

(٢) أفايا: قرية من عمل المعرة وصفها ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ٣٥ إلى "القانا" انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، حاشية ١. دير حافر: قرية بين حلب وبالس. الجيول: قرية كبيرة إلى جنب ملاحه حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان. النقرة: على بعد مرحلة واحدة من معرة النعمان، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٢، حاشية ٦.

(٣) تل عرن: يقال لها تل أعرن وهي قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) بوشلا: لم يعرف موقعها بالضبط، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، حاشية ٣.

(٥) ابن العديم: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٩، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣ عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٨١.

واصل الخوارزميين التدمير والنهب فى البلدان الاسلامية فدخلوا كل من الصافية وسرمين^(١) ومعرة النعمان وكفرطاب وشيزر^(٢) التى اعتصم أهلها بالربض تحت القلعة فهاجمهم الخوارزمية وأطلق عليهم أهل القلعة الجروح^(٣) والحجارة التى أدت إلى قتل جماعة كثيرة منهم واضطر البقية إلى الخروج من الربض، وحاول المنصور صاحب حمص أن يقطع طريق العودة على الخوارزميين إلا أنهم فطنوا لهذه الخطة فغيروا طريق عودتهم واتجهوا صوب حماه ولم يتعرضوا لهذه المدينة بأذى لأن صاحبها من اتباع الصالح أيوب صاحب مصر الذى يعتبر مسؤولاً عنهم، حتى أنهم كانوا يبررون جميع اعمالهم تلك بأنها انتقام له من خصومة الحلبيين وصاحب حمص وصاحب دمشق.^(٤)

سمح صاحب حماه لبعض الخوارزمية بالدخول اليها والتزود منها نكاية بالقوات الأيوبية التى يقودها المنصور صاحب حمص وخرجوا من حماه وتوجهوا

(١) الصافية: بلدة كانت قرب ديرقنى فى أواخر النهر وان قرب النعمانية. سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) كفرطاب: تقع بين المعرة وحلب، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٦، حاشية ١.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٥-٢٥٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٨٩-٢٩٠، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣ أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٤، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤١٠، الغزى، نهر الذهب، ج ٣، ص ١٥٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٥-٢٥٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٩-٢٩٠، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣ أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٤، أبو البركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٤١٠، الغزى، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٣، على عوده، المرجع السابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.

إلى سلمية التابعة لصاحب حمص، ثم ساروا إلى الرصافة^(١)، في الوقت الذي كانت قوات المنصور تلاحقهم لقطع الطريق عليهم^(٢) وانقض عليهم جمع من العرب قرب الرصافة بعد أن تعبت خيولهم نتيجة لقلة الزاد والعلف ومواصلة السير بدون انقطاع، فعمدوا إلى التخفف من أثقالهم وغنائمهم التي جمعوها من البلدان، وفكوا جمعاً كثيراً من الأسرى وساروا مسرعين إلى الرقة حتى لا يقطع عليهم المنصور الطريق فوصلوا إلى الفرات مقابل الرقة يوم الاثنين خامس شعبان سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م، وفي الوقت نفسه كان المنصور في سباق مع الخوارزمية فوصل بعسكره إلى صفين^(٣) ثم انطلق منها مسرعاً ليسبقهم ويحول بينهم وبين الماء فلا يستطيعوا بذلك العبور إلى الشرق ولكنه وصل بعد فوات الأوان وتقدمت الخوارزمية عليه بساعة واحدة، ووجدوهم قد احتموا في بستان البليل^(٤) واخذوا منها الأبواب وجعلوها ستائر واداروا عليهم خندقاً^(٥). ورغم تحصن الخوارزمية فإن المنصور استطاع أن ينتصر عليهم بعد أن استمر الصراع بينهم إلى العشاء وغنم منهم كثيراً من الغنائم، ولم يستطع المنصور

(١) الرصافة: هي رصافة هشام بن عبد الملك تقع في غربي الرقة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٩١، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨ هـ، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٤، الغزي، نهر الذهب، ج ٣، ص ١٥٣.
(٣) صفين: قرب الرقة وعندها الواقعة المشهورة باسمها، ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٧، حاشية ١.

(٤) بستان البليل: اسم لشريعة صفين في الشعر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٦-٢٥٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩١-٢٩٢، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٤، الغزي، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٣.

مواصلة القتال بسبب نقص الزاد والعلوفة، فرجعوا إلى منزلتهم بصفين بعد أن وضعوا حامية بسيطة في البليل تراقب تحركات الخوارزمية واستطاعت الخوارزمية أن تنقض على هذه الحامية فتقتلهم عن آخرهم، ثم عبروا الفرات إلى الرقة بعد أن وهنت قواتهم وهلك دوابهم ورجالهم، وارسلوا جماعة منهم إلى حران ليحضروا لهم دواباً ليركبوها فاحضروها لهم وتوجهوا إلى حران^(١)

ثم تحرك المنصور بعساكره للحاق بهم وأراد العبور من جسر قلعة جعبر فلم يتمكن من ذلك لقلّة العلوفة فتوجه بالعساكر إلى البيرة وعبر عن طريق جسرّها وعسكر بقواته ما بين سروج والرها، وأخذ يتعقب الخوارزمية في تلك المناطق حتى تراجعوا إلى حران واخذوا يعدون أنفسهم ويجمعون فلولهم المتفرقة في الاطراف إلا أنهم أحسوا بضعفهم أمام قوات المنصور فعمدوا إلى إلزام سكان حران بالخروج معهم حتى يكثروا سوادهم كما أنهم عزموا على تدبير خدعة ضد المنصور " فعملوا الرايات من القصب على الجمال ليلقوا الرعب في قلوب العسكر بتكثير سوادهم " ونقلوا معسكرهم من حران إلى قرب الرها، في الوقت الذي أرسل فيه صاحب الروم غياث الدين كيخسرو نجده للمنصور.^(٢)

لم يعبأ المنصور بما فعله الخوارزمية بل سار إلى أن وصل إليهم وتقابل معهم يوم الاربعاء الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٣٨ هـ فانكسروا، واستيح عسكرهم وهربوا من أرض المعركة فتبعتهم عساكر المنصور حتى حال الليل بينهم ولم تتوقف الخوارزمية إلا في حران حيث اخذوا نساءهم وفروا بعد أن عين

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩٢، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨ هـ.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٧-٢٥٨، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٢-٢٩٣، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣.

زعيمهم بركة خان والياً على القلعة^(١) وتوجهوا حتى وصلوا إلى الخابور والمنصور بعساكره يتعقبونهم فاضطروا إلى إلقاء اطفالهم وبعض أولادهم ونزلوا في واد بالقرب من الفرات فجاءهم السيل ليلاً على حين غرة من أمرهم فغرقت منهم اعداد كبيرة وماذاك إلا جزاء من الله سبحانه وتعالى على فسادهم في المناطق التي آوتهم بعد هزيمتهم امام المغول، ودخلت البقية الباقية منهم إلى بلد عانة واحتموا به لأنه بلد الخليفة المستنصر بالله^(٢)، وتوجه امير الخوارزمية من عانة إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة فخرج إليه موكب الديوان وتلقاه صاحب باب المراتب خارج السور ودخل معه فقبل العتبة ثم دخل دار الوزارة فخلع عليه نائبها، واهدى سيفاً واسكن داراً بدرب دينار الصغير، ووصل بعده ابن كشل خان أحد أمراء الخوارزمية واعتمد معه مثل ما اعتمد مع صاحبه.^(٣)

عمت الفرحة حلب وغيرها من البلاد المتضررة من الخوارزمية وزينت حلب وضربت البشائر ووصلت اعلامهم وأسراهم إلى حلب، وصمدت قلعة حران عدت أيام ثم سلمت إلى الحلبيين وأخرج من كان بها من الأسرى من أمراء حلب وغيرهم، وانتهز بدر الدين لؤلؤ هذه الفرصة فسار بقواته إلى نصيبين وإلى داراً^(٤)

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٥٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٩٣، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٠٩، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٧٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٤٤.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٥٩، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٣، الخطيب العمري، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٨هـ، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٧٥، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ١٩٣.

(٤) دارا: بلدة من بلاد الجزيرة بين نصيبين وماردين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

فاستولى عليها واستخلص من دارا المعظم تورنشاہ بن صلاح الدين واخذه إلى الموصل وقدم له تحفاً وهدايا ومراكب جميلة ثم أرسله معززاً مكرماً إلى حلب.^(١)

وحاول المنصور وعسكر حلب ان يستردوا جميع البلاد التي فقدوها، فاستولى عسكر حلب على حران وسروج والرها ورأس عين وجميلين والموزر والرقه^(٢) وضموها جميعاً إلى مملكتهم أما المنصور إبراهيم صاحب حمص فقد اخذ لنفسه الخابور وقرقيسياً^(٣)، وتسلم نواب صاحب الروم السويداء بعد استيلاء عسكر حلب عليها لأنها من مضافات أمد، وكانت النجدة التي سيرها صاحب الروم وصلت بعد هزيمة الخوارزمية فارس الحليون لافرادها الخلع والنفقات، ثم تقدمت عساكر حلب والتقت بعساكر الروم وتوجهوا إلى أمد وضربوا الحصار حولها وكان بها المعظم غياث الدين بن الصالح أيوب الذي اضطر إلى تسليمها إليهم مقابل أن يبقوا عليه حصن كيفا وقلعة هيثم فتم الاتفاق على ذلك.^(٤)

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥ ص ٢٩٤-٢٩٥، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ، أبو الفداء المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤٥، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٤١١، الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) جميلين والموزر، قلعتان على يوم من حران بين ديار بكر وديار مصر، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٢، حاشية ٢.

(٣) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٠، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٧-٢٥٨، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٥٧، أبو الفداء المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٣٤٥.

تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين

(١٢٤٠م / ٦٣٨هـ)

ورغم فرح الصالح إسماعيل بهزيمة الخوارزميين - حلفاء الصالح أيوب إلا أنه استاء من ذلك الانقلاب الذي حدث في مصر وادى إلى سلطنة الصالح أيوب لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن الصالح أيوب لن يغفر له تلك الضربة التي وجهها إليه من الخلف حيث وعده أنه سيلحق به لانتزاع مصر من أخيه العادل ولكنه غدر به واتجه إلى دمشق وانتزعها من ولده المغيث، إضافة إلى أن الصالح إسماعيل كان يعلم تمام العلم أن ابن أخيه الناصر داود والذي كان له دور كبير في مساندة الصالح أيوب في استرداد مصر لن يقر له قرار حتى يحرض الصالح أيوب على تسير الجيوش معه لاسترداد مملكة أبيه " فخاف منه الصالح إسماعيل خوفاً منعه المنام والطعام والشراب" (١)

وكان أول اجراء قام به الصالح إسماعيل إزاء هذا الأمر الذي أقلقته هو مهاجمة أملاك الناصر داود انتقاماً منه لتحالفه مع الصالح أيوب، فأوعز بذلك إلى الصليبيين المنتظرين لكل فرصة مواتية للاغارة على البلدان الاسلامية وفعلاً تحركت جموع الصليبيين صوب نابلس من أملاك الناصر داود، ومن فضل الله أنهم لم يستطيعوا تحقيق ما يصبون إليه فقد تمكن أهل نابلس من مقاومتهم وكسرتهم، فعادوا إلى ديارهم يجرون اذيال الخيبة والخسران. (٢)

أيقن الصالح إسماعيل بعد ذلك أنه أصبح أمام خطر محقق يتهدد به كما أيقن أن قوته العسكرية لا تستطيع بمفردها الصمود أمام عساكر مصر فقرّر المبادرة

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٣، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، ص ٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٦٩.

(٢) يوسف غوانمه، امارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٣.

بالهجوم على الصالح أيوب في مصر قبل أن يتمكن من توطيد نفوذه بها خاصة وأنه بلغه قبض الصالح أيوب على الممالك الأشرفية والخدام وبعض الأمراء، وأن البقية الباقية من أمراء مصر كل واحد منهم خائف على نفسه من الصالح أيوب^(١)، وقبل أن يتوجه الصالح إسماعيل إلى مصر أراد يستند إلى قوة عسكرية تساعدته في تحقيق ما يصبو إليه، فكاتب الصليبيين واتفق معهم على معاضدته ومساعدته في محاربة الصالح أيوب صاحب مصر، وكان من الطبعي أن يرفض الصليبيون تقديم مساعدتهم له دون مقابل لذلك لجأ إلى إعطائهم قلعة صفد^(٢) وقلعة الشقيف^(٣) وبلادها ومناصفة صيدا^(٤) وطبرية وما يتبعها، وجبل عاملة^(٥) وسائر بلاد الساحل، وأرسل في الوقت نفسه إلى كل من الحلبيين والمنصور صاحب حمص يطلب منهم القدوم لمشاركته في الهجوم على مصر^(٦).

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١.

(٢) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الشقيف: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب نابلس من أرض دمشق بينها وبين الساحل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما فراسخ، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الاسم على جهة جبلين قرب الساحل في إقليم صفد، ويوجد بها حصن الشقيف، انظر المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣، حاشية ٤.

(٦) المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣١، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٣، مجير الدين الحنبلي، الأئمة الجليل، ج ٢، ص ٦، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ص ٢٥٦، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٢١، النجوم الزاهرة ج ٢، ص ٣٣٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٦.

ومن جراء ذلك ارتاع رعايا الصالح إسماعيل من تلك الطامة الكبرى التى حلت بهم فقررت بعض القلاع عدم الإنصياع لأوامر الصالح إسماعيل لأن ذلك يعد فى نظرهم من المولاة للكفار التى نهوا عنها فى قوله تعالى " ﴿لَا تَجِدُوا قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(١)، ومن تلك القلاع التى رفضت الانصياع لأوامر الصالح إسماعيل قلعة الشقيف فى أوائل سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م أمر الصالح إسماعيل نائبه على قلعة شقيف أرنون ويدعى الحاج موسى بتسليمها لفرسان الداوية، فرفض تسليمها ورد على الصالح إسماعيل بعبارة تنم عن حقيقة مشاعره حيث قال: "والله لأجعلته فى صحيفتى"، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن قبض عليه وضربه ضرباً مبرحاً حتى قتله وصادر كل أمواله ومدخراته، ورغم ما فعله الصالح إسماعيل بنائبه على هذه القلعة فإن حاميتها بزعامة رجل يدعى أحمد الشقيف اعتصموا بالقلعة عليه ورفضوا تسليمها للصليبيين، وبادروا بمراسلة الناصر داود صاحب الكرك ودخلوا فى طاعته ^(٢)

خاف الصالح إسماعيل من أن يكون ذلك سبباً لاثارة الرأى العام فى العالم الإسلامى ضده هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خشى أن يكون ذلك مدعاة لتخلي الصليبيين عنه فى الهجوم على مصر، فسارع بالخروج من دمشق بعسكره وحاصر قلعة الشقيف حتى اضطروا إلى تسليمها إليه بعد أن طلبوا منه الأمان على أنفسهم قائلين "أنت أمرتنا أن نسلمه إلى نواب الداوية ونحن فما يحل لنا أن نسلمه

(١) سورة المجادلة، آية، ٢٢.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٧٧.

للفرنج، ونحن نسلمه إليك وأنت تفعل فيه ماتختاره" فسلمه الصالح إسماعيل بعد

ذلك للدأوية وظل بأيديهم حتى تم استرداده على يد الظاهر بيبرس^(١)

وما إن تسلم الصليبيون هذه القلاع حتى شرعوا فى بنائها وتحصينها، ومن تلك القلاع التى حرصوا على بنائها قلعة صفد التى كانت خراباً منذ سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م حين دمرها المعظم عيسى زمن الحملة الصليبية الخامسة، وبما أن البناء يحتاج إلى ايد عاملة كثيرة فقد قرر الصليبيون إحضار جميع الأسرى المسلمين لديهم وكانوا يقدرون بحوالى ألف مسلم وتسخيرهم فى بناء القلعة،

واقام الصليبيون عليهم حوالى مائتى رجل منهم لحراستهم.^(٢)

أحس الأسرى المسلمين بالحرقة والاسى من هذا العمل الذى يخدم مصالح الكفار فى بلاد المسلمين ويقوى عزيمتهم، فاتفقوا فيما بينهم على الانقضاض على حراسهم وتجريدتهم من اسلحتهم والاستيلاء على صفد، وحتى يضمنوا نجاح خطتهم ارسلوا إلى الأمير سيف الدين على بن قلع النورى والى قلعة عجلون من قبل الناصر داود ليرسل إليهم من يتسلم القلعة إذا تخلصوا من حراسهم، فارسل والى قلعة عجلون رسالة الأسرى إلى سيده الناصر داود صاحب الكرك الذى أرسلها بدوره إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وفى الحقيقة أن هذا الأمر مستغرب من الناصر داود إذ كيف يرسل هذه الرسالة إلى عمه الصالح إسماعيل وهو يعلم موقفه من الصليبيين. وكيفما كان الأمر فإن الصالح إسماعيل بعد أن تسلم رسالة الناصر داود بشأن الأسرى المسلمين سارع بتسليمها إلى فرسان الدأوية، وهنا نظرح تساؤلاً آخر أما كان الأجدر بالصالح إسماعيل أن يحذر الأسرى من تنفيذ خطتهم أو على الأقل إهمال شأن الرسالة وعدم الرد عليها وعندما

(١) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٧.

(٢) على عودة، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

إطلع الداوية على تلك الرسالة قبضوا على أولئك الاسرى ودخلوا بهم عكا " فذبحوهم عن آخرهم " ثم واصل الصليبيون بناء قلعة صفد بمساعدة الصالح إسماعيل الذى لم يراع حرمة الدم بارتكابه هذا العمل الشنيع الذى يتنافى مع كل القيم الخلقية^(١)، وبلغت به الجرأة والتواطؤ مع الصليبيين أن يسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فتأثر العز بن عبدالسلام^(٢) من ذلك وتحرج المتدينون من تجار السلاح من مبايعتهم، فاستفتوا الشيخ العز ابن عبدالسلام فى بيع الصليبيين السلاح، فافتاهم بقوله: " يحرم عليكم مبايعتهم، لانكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به اخوانكم المسلمين ".^(٣)

وسرعان ماثار رأى العام الإسلامى على الصالح إسماعيل ويروى أبو الفد أن المسلمين حنقوا على الصالح إسماعيل لتفريطه فى بلادهم وعظم على المسلمين وأكثروا من التشيع عليه^(٤) أما المقرئى فيروى أن اثنين من أئمة الإسلام فى دمشق وهما شيخا الشافعية والمالكية العز بن عبدالسلام وجمال الدين أبو عمر بن

(١) ابن شداد، الأعلام الخطيرة ج ٢، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى بن ابى القاسم أبو محمد الإمام العلامة وحيد عصره سلطان العلماء السلمى الدمشقى ثم المصرى الشافعى، برع فى الفقه والأصول والعربية وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه وبلغ رتبة الاجتهاد رحل إليه الطلبة من سائر البلاد وصنف التصانيف منها قواعد الاحكام فى معالم الانام، ولد سنة ٥٧٧هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ، انظر ترجمته فى السبكى، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٠٩-٢٥٥، محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات بالذيل عليها، ج ٢، ص ٣٥٠-٣٥١، ابن تغرى بردى، الدليل الشافى على المنهل الصافى، ص ٤١٦، ابن حجر، رفع الاصر عن قضاة مصر، ج ٢، ق ١، ص ٣٥٠، ابن منقذ، الوفيات، ص ٣٢٧.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٤، السبكى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٧٨.

(٤) أبو الفد، المختصر، ج ٣، ص ١٦٩، على عوده، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

الحاجب^(١) قد نددوا بعمل الصالح إسماعيل وأكثروا من التشنيع عليه، وعمد الشيخ العز بن عبدالسلام إلى قطع الدعاء للصالح إسماعيل بجامع دمشق واستبدله بدعاء آخر يقول فيه " اللهم ابرم لهذه الامة أمراً رشداً، تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك " وكان الناس يتهلون وراءه بالدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله من الكافرين.^(٢)

وكان الصالح إسماعيل في تلك الفترة غائباً عن دمشق، فكاتبه اعوانه بذلك وحرفوا القول وزخرفوه وهذه عادة اتباع السلاطين في الغالب في كل عصر وزمان - فورد كتاب الصالح إسماعيل إلى نائبه بدمشق بعزل الشيخ العز بن عبدالسلام عن الخطابة واعتقاله هو والشيخ أبي عمرو بن الحاجب فتم اعتقالهما، ولما قدم الصالح إسماعيل إلى دمشق افرج عن الشيخين وفرض على الشيخ العز بن عبدالسلام الإقامة الجبرية في منزله وأمره بان لا يفتي لاحد البتة، ثم سمح لهما بمغادرة دمشق فذهبا إلى بيت المقدس فقابله الناصر

(١) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الرويني ثم المصري الدمشقي ثم الاسكندري يكنى أبا عمرو المعروف بابن الحاجب الملقب بجمال الدين الامام العلامة الفقيه المالكي المتكلم النظار خاتمة الأئمة المبرزين الاخيار امام التحقيق وفارس الاتقان والتدقيق اشتهر بعلوم العربية، ولد سنة ٥٩٠ هـ وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ، انظر ترجمته في ابن فرحون، الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج ٢، ص ٨٦-٨٩، محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ص ١٦٧-١٦٨، النهي، تذكرة الحفاظ، ج ٤، ص ١٤٥٥-١٤٥٧، سير أعلام النبلاء، ج ٢٣، ص ٢٦٤.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٥، ص ٣٠٤، النهي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٤، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٣، ابن شاکر الكبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٥٠-٣٥١، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١١-٣١٢، علي عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٨.

داود صاحب الكرك في الطريق وعرض عليه الإقامة عنده فقبل ذلك فنزل بنابلس فترة قصيرة ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام بها مدة.^(١)

وفي سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م تحرك الصالح إسماعيل بعد أن جمع جموعه من حمص وحلب وغيرها وطلب مساعدة الصليبيين، وسار قاصداً مصر لامتلاكها ونزل بنهر العوجاء، فبلغه أن الناصر داود صاحب الكرك يقيم في حسابان^(٢) من أرض البلقاء، فخشى أن يعقبه على دمشق ويستولي عليها نظراً لما يعرفه عن الناصر داود من حرصه الشديد على استرداد دمشق بأي طريقة ممكنة "فما أمكنه من التوجه إلى مصر وهذا الداهية خلفه"، فقرر أن يتخلص من خطره فتوجه بقواته نحوه وتقابلا في حسابان ودارت بينهما معركة ضارية انتهت بهزيمة الناصر داود واستولى الصالح إسماعيل على أحماله واثقاله وأسر جماعة من أصحابه^(٣)

فر الناصر داود بعد هذه الهزيمة الشنيعة على يد عمه الصالح إسماعيل إلى الكرك وتحصن بها^(٤) بينما واصل الصالح إسماعيل مسيره إلى مصر "بعد أن قوى ساعده واشتدت شوكته" وأقام في العوجاء وأرسل إلى الصليبيين يطلب منهم سرعة القدوم إلى مصر ووعدهم "أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٣٢-٧٣٣، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٠، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٥٦، أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٦-١٦٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٧٦، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٣ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٣٨، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) حسابان: بلدة توجد بمنطقة البلقاء في فلسطين، انظر أبو الفداء، تقويم البلدان.

(٣) المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٠.

(٤) ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣١.

يوسف" ورحل عن العوجاء وعسكر بتل العجول، وفرح الصليبيون بهذا العرض الجديد فساروا بقواتهم إلى الصالح إسماعيل بزعامة ثيوت الرابع ملك نافار وأمير شامبني الذي كان يتطلع منذ وصوله إلى بلاد الشام إلى تقوية نفوذ الصليبيين.^(١)

تقابلت القوات الإسلامية بقيادة الصالح إسماعيل مع عساكر الصليبيين في بيت المقدس وكان الشيخ العز بن عبدالسلام مقيماً به فأرسل الصالح إسماعيل بعض خواصه بمنديله ليسترضيه ليسلم بذلك من إثارة المسلمين ضده وقال لرسوله: "تدفع منديلي إلى الشيخ وتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعهده بالعودة إلى منصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به على، وإن خالفك فاعتقله في خيمه إلى جانب خيمتي" ذهب الرسول إلى الشيخ وأجتمعت به وأخذ في سياسته وملاطفته ثم قال له: "بينك وبين أن تعود إلى منصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لاغير" فكان رد الشيخ مسكتات له وهذه عادة العلماء لا ييغون بعلمهم الدنيا وإنما يطلبون به وجه الله - فقال له: "والله يامسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكُم به"^(٢)، فتهدهد الرسول بأنه إذ لم ينصاع للأوامر فإنه سوف يعتقله فقال له الشيخ "افعلوا ما بذاكم" : فأخذه واعتقله في خيمة بجوار خيمة الصالح إسماعيل.^(٣)

ويدور الحديث بعد ذلك بين الصليبيين والصالح إسماعيل في الخيمة المجاورة لمعتقل العز بن عبدالسلام وينشغل الشيخ يترتيل القرآن، فيؤثر في قلوب الناس وعقولهم بأدائه الحسن، فيقول الصالح إسماعيل مفتخراً: تسمعون هذا

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٣، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٩.

(٢) السبكي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) السبكي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٤.

الشيخ الذى يقرأ القرآن، قالوا: نعم، فقال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمى لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبة، ثم أخرجته حتى جاء القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم! قالوا: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله وشربنا مرقته^(١).

وعلى أية حال فإن قوات الحلفاء من المسلمين والصليبيين تقدمت نحو غزة عازمه على المسير نحو مصر، وحينما بلغ الصالح أيوب تقدم قوات الحلفاء نحو مصر جرد العساكر المصرية إلى لقائهم، وقبل أن يتقابل الطرفان سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م انفصلت العساكر الشامية التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص عن الصليبيين لأنهم لم يقبلوا بفكرة محالفة الصليبيين ضد اخوانهم المسلمين وانضموا إلى القوات المصرية ليشترك الجميع فى محاربة الصليبيين وهكذا " ساقط عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج، فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون" وبهؤلاء الأسرى عمر الصالح أيوب قلعة الروضة والمدارس الصالحية بالقاهرة^(٢).

فرح الصالح أيوب فرحاً شديداً بهذا النصر الذى تهيأ له فيه تحطيم التحالف بين الصالح إسماعيل والصليبيين، وحاول ان يستثمر ذلك لصالحه فعرض على الصليبيين أن يطلق سراح الأسرى الذين وقعوا فى قبضته فى غزة، وان يكون لهم الحق فى السيطرة على عسقلان وتحصينها واشترط عليهم مقابل ذلك أن يلتزموا الحياد فى الصراع بينه وبين الصالح إسماعيل، فوافق الصليبيون على ذلك وتم توقيع الاتفاق مع مقدم الاستتارية فى عسقلان^(٣) ويعلق رنسيमान على ذلك بقوله "

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٨، ص ٢٤٤.

(٢) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٥، السبكي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٤، على عودة بلاد

الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٧٠، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٤.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٥، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٧٩.

والواقع ان ذلك كان يعتبر انتصاراً دبلوماسياً للصالح أيوب الذي استطاع بتضحية بسيطة من جانبه، أن يدمر تحالفاً لم ينجزه الصالح إسماعيل إلا بعد أن أذل نفسه".^(١)

لم تستطع الحملة الفرنسية التي قدمت إلى الشام سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م أن تحقق طموحات الصليبيين بالسيطرة على مصر، وكانت خيبة أملهم كبيرة على اثر الهزيمة الساحقة التي لحقت بهم من قبل عساكر مصر والشام، فاضطرت هذه الحملة ان تغادر الشام، فخرجت من عكا إلى المغرب سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م وبالرغم من ذلك فإن هذه الحملة لم تخل من قيمة واهمية بالنسبة للصليبيين إذ أنه عاد إلى سيطرتهم بيت المقدس وهو نين وصفد وعسقلان.^(٢)

كان الجواد لسوء سيرته قد فقد جميع ممتلكاته في البلاد الشرقية التي اخذها بدلاً من دمشق فالتجأ إلى الخليفة في بغداد^(٣)، ثم قدم إلى الشام وحاول دخول مصر ملتجئاً إلى ابن عمه الصالح أيوب، فلم يأذن له خوفاً من أن يفسد عليه عسكره، وعزم على ان يقبض عليه فرجع والتجأ إلى الناصر داود صاحب الكرك فقبله مع ما كان عليه من السخط والغضب، ومن هنا اراد الصالح أيوب توجيه ضربة قوية للناصر داود لأمرين أولها أنه دخل في تحالف الصالح إسماعيل وحمص وحلب ضده ثانيهما أنه استقبل الجواد يونس ورضى بإقامته عنده، فأرسل قوة عسكرية بقيادة كمال الدين بن شيخ الشيوخ لقتال الناصر داود والقبض على الجواد ونزل ابن الشيخ في غزة وكان الناصر داود بالقدس، فسير قواته مع الجواد

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٩.

(٢) رنسيان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٨٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٢.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٣٦-٧٣٧، الذهبي، دول الاسلام، ج٢،

ص ١٤٤، ابن كثير، البداية والنهاية ج١٣، ١٦٨.

وتقابل الفريقان سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م في مكان يقال له بيت فورلك بالقرب من القدس، وانتهت المعركة بانتصار قوات الناصر داود، ووقع الكمال بن الشيخ مع مجموعة من اصحابه في الاسر وجيء به إلى الناصر داود الذي اكتفى بتوبيخه وحجزه لعدة ايام ثم من عليه واطلقه مع اصحابه المأسورين فرجعوا إلى الديار المصرية.^(١)

تأثر الصالح أيوب من تلك الهزيمة التي منيت بها قواته فأراد أن يعاود الكرة مرة أخرى لغزو بلاد الشام لرد الاعتبار فخرج في السنة التالية سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م بنفسه إلا أنه تراجع عن ذلك وعهد بقيادة الجيش إلى كمال الدين ابن الشيخ، فسار ابن الشيخ بتلك الحملة ووصل إلى غزة إلا أن الحملة لم تحقق غرضها بسبب وفاة كمال الدين ابن الشيخ عند وصوله إليها^(٢)

وفي تلك الاثناء وصل إلى عكا الأمير الشاب ريتشارد شقيق هنري الثالث ملك انجلترا في صحبة جيش صليبي جديد وارتاع عند وصوله من النزاع بين الصليبيين ورفض الاشتراك في ذلك النزاع القائم بين الاستتارية الذين ايدوا مبدأ التعاون مع مصر والداوية الذين يرون ضرورة تحالف الصليبيين مع دمشق ضد مصر، واختار ريتشارد أن يوجه جهود الصليبيين نحو تحصين عسقلان حتى يأمن الصليبيون في الشام أي هجوم مباغت من جانب القوات المصرية، وما أن سمع بهم الصالح أيوب حتى سارع بارسال سفارة إلى عسقلان للتصديق على المعاهدة التي عقدها الإستتارية فوافق ريتشارد على ذلك بشرط أن يقر الصالح أيوب ماتنازل عنه الصالح إسماعيل صاحب دمشق من البلاد، وأن يضيفوا إليها ماتبقى من الجليل

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٢٩٧، ٣٠١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٣٦، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٥، ٣٠٩، ابن ايك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٧، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٠.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٤٥، على عودة، المرجع السابق، ص ١٧١.

ويدخل فى ذلك شقيف أرنون وجبل الطور وطبرية فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل ويافا وعسقلان، فوافق الصالح أيوب على تلك الشروط وتم توقيع الاتفاق بين الطرفين على ذلك، ويقول رنسيما أن الامبراطور فردريك أرسل بناء على هذا الاتفاق الجديد سفارة لتهنئة الصالح أيوب، وأنه جرى استقبال هذه السفارة بالقاهرة بكل مظاهر الحفاوة والإكرام.^(١)

وأخيراً غادر ريتشارد عكا سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م بعد أن نجح بحكمته وكياسته وحسن سياسته اتمام العمل الذى قام به ثبوت الرابع.^(٢)

ويكفى أن نعلق على هذه الحوادث السابقة فى هذه الفترة العجيبة من الحروب الصليبية ذات الاحداث السريعة المتلاحقة بما قاله أحد المؤرخين حيث يقول " وكان المسلمون منهمكين انهماكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأى عمل موحد ضد اللاتين حتى أن افراد الطوائف العسكرية الكبيرة، وهم أعداء الاسلام، نسوا الموائيق التى قطعوها على انفسهم، وحالفوا، ودون خجل، المسلمين ضد النصارى، وخاصة ضد الطوائف العسكرية الاخرى فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتارية ومصر، وكانت المعارك التى وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من أشد المعارك ضراوة والتى حدثت فى هذه الفترة".^(٣)

لم تلبث أن تجددت النزاعات بين الصليبيين فى بلاد الشام، فرفضت الداوية الالتزام بالاتفاقية التى عقدت مع الصالح أيوب، وحملهم ذلك على الاغارة على

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٨١-٣٨٢، عاشور، الحركة الصليبية، ص

٩٩٢-٩٩٣، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٤.

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٩٩٣.

(٣) قدرى قلعجى، صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص ٥١٨.

مدينة حبرون الإسلامية فتأثر الناصر داود صاحب الكرك من ذلك ورد على هذا الهجوم بقطع الطريق المؤدى إلى بيت المقدس على الصليبيين لجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يسلكونه.^(١)

انزعجت الداوية من هذا الإجراء الذى أقدم عليه الناصر داود فقرروا الخروج إلى نابلس التابعة للناصر داود، فخرجوا فى جمادى الأولى سنة ٦٤٠ هـ / ديسمبر ١٢٤٢ م وهجموا على المدينة ونهبوا وأسروا ودخلوا إلى المسجد وقتلوا المصلين وأحرقوه بعد أن أخذوا منبر الخطيب، وافسدوا فى البلد ونهبوا الأموال^(٢) وذكر سبط ابن الجوزى أن الجواد يونس بن مودود حضر معهم عندما هاجموا قلنسوة - ضيعة من أعمال نابلس - " وقتلوا فيها ألف مسلم وهو قائم لم يتكلم كلمة " ونتيجة لذلك خاف الصالح إسماعيل على مكانته ونفوذه عند الصليبيين فاحتال على الجواد حتى حضر فقبض عليه وأودعه السجن^(٣)

وكتب الناصر داود صاحب الكرك إلى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام بعد هذه الحادثة يشكو إليه " مالقى الإسلام من إهلاك النسل والحرث....، ويحثه على أن يوضح للسلطان الملك الصالح ماتعين عليه من فرض الجهاد، ويرغبه فى إعلاء دين الله وإعزازة، ويحرضه على تعجيل النصر الذى تكفل الله بانجازه " ويبين الناصر داود فى رسالته، ان مصيبة حلت بالمسلمين فى مدينة نابلس، راح ضحيتها عدد من العلماء وسييت الحلائل والصبيان وكان ذلك اليوم يوماً " ضرب فيه الكفر

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٠-٣١١، رنسيما، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٨٤، على عودة، بلاد الشام، قبيل الغزو المغولى، ص ٢٨٠.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤٣-٧٤٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١، على عودة، المرجع السابق، ص ٢٨٠.

بجيرانه، وتبخر تيهاً بين انصاره واعوانه"، ويصور ماحل من فجاعة "هجمت على القلوب من اسماعها، فودت لو أنها سبقت بالمنون" ثم يقول شعراً

ألا ليت امي ايم طول عمرها فلم يقيضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاه لسيد لييب اريب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللائي خلقن عواقراً فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملاً اصييت بما اجتنت عليه من الحمل
ويختم رسالته بقوله " ألا وان الإسلام بدأ غريباً وسيرجع غريباً كما بدأ،
وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مسعداً ".^(١)

ويبدو أن تلك الرسالة اثرت في الصالح أيوب، في الوقت الذي لم يكن مستعداً للقتال فاكثفى بتسيير جيش يبلغ تعدادة حوالى الفى فارس اتجهوا نحو غزة وانضموا إلى قوات الناصر داود ثم تحركوا من هناك للإنتقام من الصليبيين فى يافا، فأدرك الصليبيون حينئذ خطورة الموقف وأرسلوا إلى الصالح أيوب يسترضونه ويعتذرون عما بدر منهم، فعفى عنهم وفك الحصار وسحب جيشه إلى مصر.^(٢) كل ذلك يحدث والخوارزميون في ضعف شديد بعد هزيمتهم الأولى عند الرها سنة ٦٣٨ هـ.

(١) مجير الدين أبو محمد، الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية، ورقة ٩٤-٩٧، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ١٥٨، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٩٦، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٥٨، القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٧٥، عبد الجليل حسن عبد المهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٤.

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٨٤، عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٣-٩٩٤.

تجدد خطر الخوارزمية وهزيمتهم سنة ٦٤٠هـ

أصبح الخوارزمية فى عزلة عن القوى السياسية من حولهم بعد أن سلبت منهم جميع المناطق التى كانوا يسيطرون عليها مثل دارا ونصيبين وغيرهما وبقوا بعد هزيمتهم تلك لايجرؤن على دخول الشام، وضائق عليهم الأرض بما رحبت وانعدمت الاقوات فلم يجدوا إلا ما يحصلون عليه من السلب والنهب، ولشدة الكربة التى امت بهم حاولوا ان يجدوا لهم متفساً فساروا إلى الموصل وضربوا الحصار حولها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بقصد الاستيلاء عليها، نظراً لما تتمتع به هذه المملكة من مدخرات مالية وثروات طائلة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بطلب النصرة من الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاستجاب له وأرسل إليه فرقة عسكرية بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص والامير شمس الدين لؤلؤ الامينى، وقد استطاعت هذه الجيوش أن تبعد الخوارزمية عن المدينة وتحافظ على مدخراتها^(١)، غير أن الخوارزميين لايمكن أن يستسلموا لضيق العيش الذى حل بها فعاودوا هجومهم على الموصل سنة ٦٣٩/ ١٢٤١م الأمر الذى اضطر صاحب الموصل إلى مسالمتهم وسلم إليهم نصيبين حفاظاً على مملكته من غاراتهم المدمرة وضمناً لاستمرار حكمه على الموصل.^(٢)

وبعد أن هادئهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل توجهوا إلى ميافارقين فهادئهم صاحبها المظفر شهاب الدين غازى وأرسل إلى حلب يخبرهم بذلك ويطلب منهم أن يقفوا معه إذا ما قصد غياث الدين صاحب الروم ويدافعوا عنه فلم

(١) نافع العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ١٧٦.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٠٤-٣٠٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٦٠.

يوافق الحليون على ذلك نظراً لصلتهم القوية بصاحب بلاد الروم، فاستاء من ذلك واتفق مع الخوارزمية على الخروج إلى آمد.^(١)

سار المظفر مع الخوارزمية قاصدين آمد فخرجت إليهم عساكر حلب بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين، ووصلوا إلى حران في صفر سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م وتقابل الجمعان بالقرب من آمد وتمكن العسكر الحلبى من طرد الخوارزمية والمحافظة على آمد من اعتداءتهم ثم قرر الحليون ملاحقة المظفر واتباعه من الخوارزمية والحاق الهزيمة بهم فى عقر دارهم فتوجهوا إلى ميفارقين " وأغاروا على رستاقها ^(٢)، ونهبوا بلدها، فاعتصمت الخوارزمية بحاضرها خارج البلد".^(٣)

وصلت نجدة صاحب الروم غياث الدين كيخسرو إلى حلب فضيقوا الخناق على ميفارقين وجرت بينهم عدة وقعات وعجز المعظم توران شاة عن دفع الخوارزميين وخشي ان تدور الدائرة عليه فارسل إلى حلب فى هذا المعنى وطلب منهم أن يرضونهم بما يقع الاتفاق عليه، فبادرت حلب بمراسلة صاحب الروم تشرح له حقيقة الوضع، واستقر الامر بعد تردد الرسل بين الطرفين على أن يهادنوا المظفر ومن معه من الخوارزمية بحيث يعطى السلطان غياث الدين للخوارزمية الاقطاع السابق لهم فى بلاده وأن يسمح لهم فى الإقامة فى أطراف بلاد الروم فى المقابل تقوم صاحبة ضيفة خاتون باعطاء أخاها المظفر شهاب الدين غازي

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٠٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٦٠ - ٢٦١، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٩، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٢٨٦، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٢) رستاقها: الرستاق كلمة فارسية ومعناها القرية أو البلد التجارى أو محله العسكر، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٢، حاشية ١.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦١، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٠٥.

مايختاره من غير اشتراط عليها وعلى أن يكونوا جميعاً سلماً لمن هو داخل في هدينتهم، وبعدها تم اطلاق اسرى الخوارزمية الموجودين في حلب، لم يقتنع المظفر شهاب الدين والخوارزمية بما وقع الاتفاق عليه فارسلوا رسلهم إلى صاحب حلب يلتمسون منه أن يعطيهم اقطاعاً آخر زيادة على ماوقع عليه الشرط فرفض طلبهم ذلك فخرجوا إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها وانضم إليهم صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين غازي بعد أن حلف لصاحب حلب، ونزلوا على الموصل ونهبوا رستاقها ولماعجزوا عن دخول المدينة استاقوا مواشيها وتوجهوا إلى ناحية الخابور وكانوا يريدون التوجه إلى رأس عين.^(١)

تقدم المظفر شهاب الدين غازي ومعه الخوارزمية إلى رأس عين فخاف الأهالي من البطش بهم فتحصنوا في العسكر الموجود بها وكان يوجد بها جماعة من الرماة الجرخية من الفرنج وطلب الأهالي الأمان فامتنهم الخوارزمية ودخلوا البلد واسروا كل من بها من العسكر.^(٢)

ولما كانت مملكة حمص قد ذابت الامرين من الخوارزمية فقد تقدم المنصور إبراهيم صاحبها إلى حلب وكان في استقباله بالوضيحي^(٣) الناصر صاحب حلب وكبار المسؤولين فيها واعدت له دار علم الدين قيصر لينزل بها وأمر بجمع العساكر ثم توجه بهم إلى الشرق فوصل إلى حران وعبر إلى رأس عين، فلما علم المظفر شهاب الدين غازي بملاحقته لهم عاد ومعه الخوارزميين إلى ميافارقين واطلقوا الأسرى الذين قبضوا عليهم من عسكر رأس عين عندئذ توجه المنصور

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦١-٢٦٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢.

(٣) الوضيحي، قرية قرب حلب، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢، حاشية ٢.

وجيشه إلى آمد واجتمعوا بمن كان مقيماً بها من عسكر سلاجقة الروم^(١) واقاموا بها ينتظرون وصول امدادات اخرى من عسكر سلاجقة الروم لمنازلة ميافارقين، إلا أن الظروف لم تسعف المنصور فقد كان السلاجقة في وضع سياسي حرج لايسمح لهم بتقديم المساعدة العسكرية للمنصور واتباعه الحلبيين فقد هاجم المغول مدينة ارزن الروم فاشتغلوا بقتالهم عن تقديم المساعدة وواصل المغول غاراتهم على بلاد الروم حتى وصلوا إلى خرتبرت فانزعج المنصور من ذلك وخشي من أقامته في آمد خوفاً على بلاده فراجع المنصور بعسكره إلى رأس عين.^(٢)

انتهاز الخوارزمية ومعهم المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين هذه الفرصة وساروا إلى دنيسر^(٣) وهي لصاحب ماردين فتبعهم المنصور بعساكره وسار إلى جهتهم ثم سار الخوارزمية ومعهم المظفر وعسكروا في الخابور بينما عسكر المنصور بجيشه في المجلد^(٤)، وانضم إلى الخوارزمية والمظفر جمع غفير من التركمان على رأسهم أمير يقال له ابن دودي، فازدادت بذلك قوة المظفر شهاب الدين حتى أنه قيل أن أمير التركمان قال له " أنا أكسر عسكر حلب بالجوابنة"^(٥)

-
- (١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٩.
 (٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٣-٢٦٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٠٩-٣١٠، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٨٦، عماد الدين خليل، مقال بعنوان " مسعى التتر لاختضاع ديار بكر" مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادى عشر، ص ١٦٤.
 (٣) دنيسر: بلدة كبيرة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ميافارقين، انظر ياقوت، معجم البلدان.
 (٤) المجلد: أحسن مدينة في الخابور من نواحي الجزيرة، انظر أبو القدا، تقويم البلدان، ص ٢٧٤.
 (٥) الجوابنة: يبدو أن الجوابنة إما نسبة إلى جوبى وهي قبيلة من قبائل الأكراد، السلوك، المقرئى، ج ١، ص ٤، وإما نسبة إلى جوبان من قرى مرو، (ياقوت، معجم البلدان)، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١٠، حاشية ٨.

الذين معي" وكان عددهم يقدر بحوالى سبعين ألف جوبان فضلاً عن الخيالة من التركمان^(١)

سار المظفر شهاب الدين غازى بقواته من الخوارزمية من الخابور ونزل بالقرب من المجدل فعلم بهم المنصور وأشار عليه أحد الأمراء بمباغتتهم فساق إليهم المنصور بعساكره سوقاً حثيثاً ووصل إليهم يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م ووقف الخوارزمية فى الميمنة والميسرة والمظفر غازى فى القلب وتقابل الجمعان والتحم الصفان وحمى الوطيس وماهى إلا لحظات حتى انتصر المنصور وولى المظفر واتباعه من الخوارزمية الادبار منهزمين ولولا وجود الخيم التى حالت بين الفريقين لتمكن المنصور من الفتك بهم، ومع ذلك قتل منهم جماعة " ووقع العسكر فى الخيم والخركات وبها الأقمشة والنساء، فنهبوا جميع ما فى العسكر، وأخذوا النساء وجميع ما كان معهن من الأموال والحلى والذهب، ولم يفلت من النساء واحدة"^(٢)

لم يقف المنصور عند هذا الحد بل واصل فى جمع الغنائم فنزل على خيمة المظفر شهاب الدين غازي واخذ خزائنه وجميع ما كان معه فى تلك الخيمة وغنم العسكر مغانم كثيرة من الخيل والبغال والجمال والالات، والاغنام ما لا يعد ولا يحصى^(٣)، ومن كثرة الغنائم التى حصلوا عليها وصلت إلى كل من الموصل

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣١٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١٠-٣١١، وانظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٤-٢٦٥، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ج٣، ص ١٥٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٨، ابن القوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٢، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ١٩٣.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٥، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١١، أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٠-١٧١، الخطيب العمري، المصدر السابق، ورقة ٢٥٨، ابن

وحلب وحمص وبيعت فيها بابخس الاثمان، واقيمت الاحتفالات في حلب وضربت البشائر بهذا النصر الذي تحقق لهم على عدو لا يبقى ولا يذر وعاد المنصور بجيشه إلى حلب حيث استقبل من قبل الناصر في منبج ودخل حلب يوم الاربعاء مستهل جمادي الاولى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.^(١)

ومما يثير الاستغراب هنا مشاركة المظفر شهاب الدين غازي للخوارزمية في أعمالهم العدوانية ضد الممالك الأيوبية وغيرها علماً بأن المظفر كان قد شهد أوائل الزحف المغولي بالقرب من بلاده وذلك عندما تتبع المغول جلال الدين للقضاء عليه^(٢) بل ومما زاد الأمر سوء أن جرس الانذار قد طرق مسامعه عندما أرسل امبراطور التار تولى بن جنكيز خان رسالة إلى الملك المظفر وغيره من ملوك الإسلام "يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب اسوار بلدانهم" وكان عنوان الكتاب الذي أرسله إليهم "من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب خاقان"، ورد شهاب الدين غازي على رسول القان بقوله "أنا من جملة الملوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر فتوجه إليهم وما فعلوه فعلته".^(٣)

ومن هنا يمكن القول أنه كان الاجدر بشهاب الدين غازي أن يعد العدة ويجهز الجيوش استعداداً للقاء هذا العدو المنتظر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان الاجدر به أن يبذل قصارى جهده في التوفيق بين ملوك بني أيوب ويحذرهم من الشتات والفرقة.. كما أنه كان من الأولى به أن يجمع الخوارزمية ويدعوهم للأخذ

الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٧، الغزى، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٤.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٦٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣١١، ابن

الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٧، الغزى، نهر الذهب، ج ٣، ص ١٥٤.

(٢) انظر المبحث الرابع فى الفصل الأول.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٧-٣٠٨، ابن ابيك اللوادار، كثر الدرر، ج ٧، ص ٣٤٢،

الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٧٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٧.

بثأرهم من عدوهم الذى مزقهم كل ممزق.

لم تؤد هزيمة الخوارزمية على يد المنصور صاحب حمص في اخماد فتنتهم بل تمكنوا من جمع شتاتهم، مع جمع من التركمان وعاثوا الفساد في بلاد الجزيرة، إلا أن صاحب حلب كان لهم بالمرصاد حيث جهز لهم قوة بقيادة الأمير جمال الدولة اقبال الخاتوني في جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وعسكر لهم في رأس عين فانضم الخوارزمية إلى الملك السعيد نجم الدين غازى صاحب ماردين وأحتموا بالجبل وطوق عليهم عسكر حلب وجرت بينهم مناوشات وكادت تستمر^(١) لولا تدخل رسول غياث الدين كيخسرو الذى عرض توسطه للصلح بين الأطراف المتنازعة فوافق الجميع على ذلك، على أن يعطى الملك السعيد رأس عين ويأخذ الخوارزمية خربتوت وشيء من البلاد، أما المظفر غازى فإنه يأخذ خلاط ومايتبعها من البلاد، ورجعت العساكر الحلبية مع رسول الروم إلى حلب.^(٢)

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال عن سبب وساطة صاحب الروم " غياث الدين كيخسرو" فى القتال بين الخوارزميين والحليين وللإجابة على ذلك نقول أن صاحب الروم كان قد تعرض لتهديد المغول فرغب فى تحسين علاقاته بالقوى الإسلامية والسعى إلى حل خلافاتهم ولم يقف عند هذا الحد بل أرسل "الأموال العظيمة إلى زعماء القوى المتصارعة بما فيهم الخوارزمية بقصد استمالتهم للقاء التار" وكان صاحب حلب أول المنجدين لصاحب الروم " غياث الدين كيخسرو" فقد جهز حملة عسكرية جعل على قيادتها الأمير ناصح الدين الفارسي فى ذى الحجة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.^(٣)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢٦-٣٢٧، ابن إيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥١.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٨٠.

ورغم الاقطاعات التي منحت للخوارزمية إلا أنهم لم يكفوا عن مهاجمة املاك
 الأيوبيين فعبّر أكثر من عشرة الاف مقاتل منهم نهر الفرات سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م
 بقيادة حسام الدين بركة خان ومعه من زعمائهم امثال خان بردى وصاروخان
 وكشلوخان وانقسموا إلى مجموعتين ذهبت طائفة منهم إلى بقاع بعلبك، بينما
 سارت الطائفة الاخرى إلى غوطة دمشق، واخذوا يقتلون ويسبون وينهبون فجفل
 الناس من بين ايديهم وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق.^(١) وسارع الصالح أيوب
 عندئذ إلى تجديد علاقته مع الخوارزمية.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٧،
 أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٧٢.

تحالف الصالح أيوب مع الخوارزمية

(٦٤١هـ - ١٢٤٣م)

ترجع علاقة الصالح أيوب بالخوارزمية منذ أن كان نائباً عن أبيه الكامل في حكم البلاد الشرقية حيث طلب منهم بعد خروجهم من آسيا الصغرى سنة ٦٣٤هـ أن ينضموا إليه مقابل أن يعطيهم مجموعة من الإقطاعات في الجزيرة حتى يضمن ولاءهم له فانضموا إليه واشتركوا معه في الهجوم على سنجار إلا أنهم سرعان ما خرجوا عليه وطمعوا فيه بعد وفاة أبيه الكامل سنة ٦٣٥هـ فاعتصم الصالح أيوب بسنجار خوفاً على نفسه منهم تاركاً خلفه أمواله وأثقاله ف وقعت بأيدي الخوارزمية وتحكموا في البلاد الجزرية.^(١)

وطمع في الصالح أيوب كل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وغيث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم ووقع الصالح أيوب في حرج شديد لولا أن الأمور تطورت فيما بعد فجاء الفرج بعد الشدة عندما عرض الصالح أيوب عن طريق أحد القضاة على الخوارزمية أن يدافعوا عنه مقابل أعطيات وأموال كثيرة يتعهد بانفاذها إليهم فوافقوا على ذلك وانضموا إليه وساعدوه في التخلص من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومن غياث الدين صاحب الروم.^(٢)

استمر ولاء الخوارزمين للصالح أيوب بعد ذلك فدخل بعضهم معه إلى دمشق عندما قاىض الجواد يونس عليها وبقي البعض الآخر في بلاد الجزيرة يعيشون في الأرض الفساد ويغيرون على البلدان بحجة أنهم يفعلون ذلك انتقاماً لسيدهم الصالح أيوب من صاحب دمشق وصاحب حمص والحلبين.^(٣)

(١) انظر ماسبق ص ١٨٩ - ٢٠٠.

(٢) انظر ماسبق، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٣) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٣.

ولم تنقطع علاقة الخوارزمين بالصالح أيوب بعد سيطرته على مصر، ويدل على ذلك ما قاله ابن واصل سنة ٦٤١هـ " ثم سرنا إلى نصيبين ووجدنا الخوارزمية، وهى بأيديهم مقيمين بها، وهم يظهرون طاعة السلطان الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر".^(١)

كما أن المظفر صاحب حماة كان حريصاً على تقوية الصلات بين الصالح أيوب والخوارزمين لأن ذلك يدعم موقفه أمام خصومه في دمشق وحمص وحلب، فأوفد في سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م سفارة إلى الخوارزمية كان من بينهم المؤرخ المعاصر ابن واصل واجتمعت هذه السفارة بالامير حسام الدين بركة خان زعيم الخوارزمية وتحدثوا معه في "معنى القيام بنصرة السلطان الملك الصالح نجم الدين، والمضى بالخوارزمية إلى خدمته ومعاذته على أعدائه " فوعدهم بركة خان بتلبية طلبهم وعادت هذه السفارة إلى حماه في نفس السنة.^(٢)

أدرك الصالح أيوب عجزه عن غزو بلاد الشام دون مساعدة الخوارزمية خاصة بعد تحالف ملوك الشام كلهم ضده ماعدا المظفر صاحب حماه الذي أصيب بالفالج واشتد به المرض، ولم يكن باستطاعته أيضاً أن يستدعى الخوارزمية ويوجه ضربه قوية للصالح إسماعيل في دمشق لأن ابنه المغيث عمر مازال معتقلاً بقلعة دمشق فأثر الصالح أيوب أن يلجأ إلى الطرق السلمية مع عمه الصالح إسماعيل عله ينجح في فك أسر ابنه من قبضته.^(٣)

ترددت الرسل بين مصر ودمشق سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م في شأن تقرير

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢٥.

(٣) ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٤٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧١.

قواعد الصلح بين الصالح إسماعيل والصالح أيوب وقد انتهت هذه المحاولات باتفاق الطرفين على إنهاء الخلافات بينهما ونصت هذه الاتفاقية على النقاط التالية:-

- ١- أن تكون دمشق والبلاد التابعة لها تحت سيطرة الصالح إسماعيل.
 - ٢- أن تكون مصر ومايتبعها من البلاد تحت سيادة الصالح أيوب.
 - ٣- أما حمص وحلب وحماه وغيرها من البلاد الشامية فتبقى كما هي تحت يد أصحابها ماعدا الكرك فينتزع من صاحبه الناصر داود ويعطى قسم منه للصالح أيوب والقسم الآخر للصالح إسماعيل.
 - ٤- أن تكون الخطبة والسكة في حمص وحلب ودمشق باسم الصالح نجم الدين أيوب.
 - ٥- يطلق سراح كل من حسام الدين بن أبي على الهذباني والمغيث عمر ولد الصالح أيوب حيث كان الأول معتقلاً في بعلبك والثاني في قلعة دمشق.^(١)
- ولو قدر لهذا الاتفاق ان يستمر بين الطرفين لأدى ذلك لاستقرار سياسي للممالك الأيوبية للأسباب التالية :-

- ١- أنه سوف يعيد الوحدة للدولة الأيوبية.
- ٢- أنه بموجبه تم اعتراف الأيوبيين بسيادة سلطان مصر عليهم.
- ٣- أصبح الصالح أيوب زعيماً للبيت الأيوبي بمحض هذا الاتفاق.^(٢)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٧-٣٢٨، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٤، الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٤٦، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧١.

(٢) فتحى السيد عيد عرفات، مصر فى عهد الصالح نجم الدين أيوب، ص ٢١٦.

ولحرص الصالح إسماعيل على هذا الاتفاق سارع بإرسال عساكره إلى عجلون لانتزاعها من صاحبها وحطت عساكره حول عجلون^(١) وحاصرتها بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص، ولم تستطع هذه العساكر دخول مدينة عجلون بسبب حصانتها القوية وبسالة القوات المحاصرة في عجلون واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، وتمكنت حامية عجلون من أن تقضى على أكثر من مائة جندي من عساكر دمشق، وخسر الصالح إسماعيل على هذه الحملة مبالغ طائلة تقدر بما يزيد على إلاربعمائة ألف دينار ورغم ذلك لم يوفق في الاستيلاء عليها.^(٢)

ولإثبات حسن النوايا بين الطرفين فقد اقيمت الخطبة للصالح أيوب في كل من دمشق وحمص، وأطلق سراح الأمير حسام الدين بن أبي علي بن محمد بن أبي علي الهذبانى الذى كان معتقلاً بيبليك وحمل إلى دمشق، كما أفرج عن المغيـث عمر بن الصالح أيوب وأذن له فى الركوب مع وجود الحراسة المشددة حوله، ثم أذن للأمير حسام فى الانتقال من القلعة وأن يعد نفسه للمسير إلى مصر، فخرج من القلعة، وذهب إلى مدرسة عز الدين إيبك المعظمي حيث أطلق له ما كان أخذ منه وخلع عليه وأعطى ماله، وغلمانـه وأطلق سراح جماعة من أصحاب الصالح أيوب كانوا فى السجن منهم مجير الدين بن أبي زكري.^(٣)

تم اختيار مجموعة من الأمراء والقضاة ليقروا قواعد الصلح بين ملوك بنى أيوب ويحلفونهم على ذلك، فاختار صاحب حمص القاضي عماد الدين ابن أبي القطب الذى كان قاضياً فى حماه واختار صاحب حلب الأمير ناصح الدين الفارسي

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١، يوسف غونـم، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٥.

(٢) النهي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٤٧، يوسف حسن درويش غوانم، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٢٨-٣٢٩، المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٤، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢١.

واختار الصالح إسماعيل جلال الدين الخلاطى بينما كان مندوب الصالح أيوب فى هذه المفاوضات هو الامير معين الدين بن شيخ الشيوخ، سار هذا الوفد من بلاد الشام إلى مصر ليحلفوا الصالح أيوب على قواعد الصلح كل واحد منهم يحلف لصاحبه، وسير مع هذا الوفد الامير حسام الدين بن أبى على الهذبانى وكان قد اطلق سراحه مع المسجونين من اصحاب الصالح أيوب وتم حجز المغيث عمر ريثما يتم توقيع الصلح رسمياً وأخذ اليمين من ابيه الصالح أيوب.^(١)

وثناء اجراء المفاوضات بين الجانبين وقع بيد الصالح إسماعيل صاحب دمشق رسالة سرية ارسلها ابن اخيه الصالح أيوب إلى الخوارزمية يطلب منهم القدوم لنصرته فارسلها الصالح إسماعيل بدوره إلى مندوبه فى المفاوضات جلال الدين الخلاطى وهو الذى وضع لنا ذلك حيث قال " كنت بمصر رسولاً من جهة مخدومى الملك الصالح عماد الدين، وقد تقرررت القواعد ولم يبق إلا الايمان، فورد على كتاب من مخدومى الملك الصالح وفى طيه كتاب من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية، يحثهم على الحركة، ويذكر لهم أنه إنما أظهر الصلح مع عمه ليخلص ابنه الملك المغيث من يده، وأنه باق على عداوة عمه، ولا بد له من قصده وأخذ دمشق منه"، وأخذ جلال الدين الخلاطى هذا الكتاب ومضى به إلى مندوب الصالح أيوب فى المفاوضات معين الدين بن شيخ الشيوخ واطلعه على مافيه فما استطاع أن يرد على ذلك بعذر يمكن قبوله.^(٢)

ولذلك انتقض الصلح بين الطرفين ورد الصالح إسماعيل المغيث عمر إلى الاعتقال وأبطل الخطبة للصالح أيوب، ورجع الأمر كما كان عليه من الاختلاف والفرقة وأرسل إلى العساكر المحاصرة لعجلون يأمرهم بالعودة إلى دمشق وراسل

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٣٣٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص

٣٢٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٢.

الناصر داود بعد أن اعتذر له واتفق معه على حرب الصالح أيوب، ورجع عن الصالح أيوب كل من صاحبي حلب وحمص وانضموا إلى الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك وأصبحت كلمة الجميع واحدة، فقبض الصالح أيوب بعد ذلك على نجم الدين الخلاطي واعتقله ومنع القاضي بن القطب عن الخروج من مصر.^(١)

ويذكر الذهبي أن هناك سبب آخر لانتقاض الصلح بين الطرفين يرجع إلى وزير الصالح إسماعيل السامري أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني الذي زين له سوء فعله بعدم باطلاقه سراح المغيث عمر قائلاً " هذا خاتم سليمان لا تخرجه من يدك"، فعند ذلك أبطل ماوقع من الصلح.^(٢)

وهكذا يتضح لنا جلياً أن زعماء بني أيوب في مصر والشام قد تناسوا المصلحة العامة للمسلمين واهتموا بالمصالح والمطامع الاقليمية والشخصية، فلو قدر لهذا الاتفاق ان يتم لعادت الوحدة للدولة الأيوبية من جديد ومن ثم تفرغت لمواصلة مسيرة الجهاد التي بدأها صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين الذين كانوا يعانون في تلك الفترة من شدة التطاحن بين مختلف الطوائف كالداوية والاسبتارية وغيرهما، إذ لم يكن لهم سلطة عليا تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم لتحقيق مطامعهم في بلاد الشام.^(٣)

ونتيجة لتلك الفرقة التي حلت بملوك الإسلام والصراع المرير الذي دمر وحدة الأمة الإسلامية سارع المغول باستغلال فرصة النزاع بين سلاجقة الروم في اسيا الصغرى من جهة وبين الحكام في الشام ومصر من جهة اخرى، فتقدم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٢.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٤٦.

(٣) رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٨٤.

بايجونويان سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م على رأس جيش كبير تعدادده ٣٠,٠٠٠ الف مقاتل مزودون بالات الحرب، واتجهوا نحو " أرزن الروم " وتقابلوا مع عساكر السلطان غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم فلم تستطع قوات السلاجقة الصمود أمام قوات المغول فانهزموا وسقطت مدينة أرزن الروم في ايديهم، ودخلوا المدينة وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها ووقع كثير منهم في الاسر.^(١)

وبالرغم من هذا الحدث العظيم فإن ملوك مصر والشام استمروا في نزاعاتهم المقيمة ولم يلقوا بالاً لهذا الخطر العظيم الذى بات يهدد كيانهم جميعاً، وترك غياث الدين كيخسرو بمفرده يجابه هذا الخطر الجاثم، فحشد قواته واستعد للقاء المغول وكون جيشاً عظيماً من الخوارزمية والارمن والكرج واليونانيين والفرنجة وسار هذا الجيش شرقاً لصد المغول، فتقابل الجيشان بمكان يسمى " كوسة طاع " (الجبل الاقرع) من نواحي أرزنجان، ودارت هناك رحي معركة عنيفة سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م وانتهت بانتصار القوات المغولية وهزيمة الجيش السلجوقي غير المتجانس، وفر السلطان غياث الدين إلى مدينة انقوره^(٢) (انكورية) وتحصن بها، بينما واصل المغول سياستهم التوسعية فاستولوا على سيواس وقيسارية^(٣) (قيصرية) وخربوها^(٤)، ووقعت بذلك مملكة السلاجقة في قبضة المغول، وعندما ادرك غياث الدين عجزه عن مقاومة المغول ارسل اليهم رسـولاً يعلن خضوعه ويتعهد بدفع

(١) الذهبى، المختار في تاريخ ابن الجزرى، ص ١٧٩، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٨٢.
 (٢) انقوره: أو أنقرة هى اسم للمدينة المسماة انكورية وهى بليدة لها قلعة على تل عال وليس لها بساتين ولا ماء سارح وهى فيما بين الجبال، انظر ياقوت، معجم البلدان.
 (٣) قيسارية: ويقال لها قيصرية، مدينة كبيرة فى بلاد الروم كانت كرسى ملك بنى سلجوق، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٢، حاشية ٣.
 (٤) ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٢-٣٥٣، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٨٢-١٨٣.

أتاوة سنوية لهم وبذلك أصبحت قوات المغول على مقربة من بلاد الشام ولم يحرك ملوك الشام ومصر بذلك ساكناً^(١) وتتابع النذر ولكنهم في غفلة معرضون، ففي سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٤ م تحركت فرقة من المغول بقيادة " يساورنوين " وقصدوا الشام ووصلوا إلى موضع يسمى حيلان على باب حلب ولكنه لم يقدر لهم أن يدخلوها وعادوا منها بحفاً أصاب خيولهم، وأغاروا على ملطية وخربوا بلدها واخذوا منها امولاً عظيمة^(٢) وعلى الرغم من ذلك ازدادت حدة الصراع بين ملوك المسلمين بل أدى بهم الامر إلى تسليم بيت المقدس للصليبيين وهذا ماسنوضحه في الفصل الرابع.

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٣، وانظر عماد الدين خليل مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادى عشر، مقال بعنوان " صفحات مجهولة من تاريخ الغزو التترى " ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٤٦، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ص ١٥٤-١٥٥.

الفصل الرابع

الخوارزميون واسترداد بيت المقدس

(٦٤١-٦٤٢هـ)

- الصالح إسماعيل يسلم بيت المقدس للصليبيين وأثر ذلك على الأوساط الإسلامية سنة ٦٤١هـ.
- دخول الخوارزميين بلاد الشام واستعادة بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ.
- معركة غزة (حطين الثانية) سنة ٦٤٢هـ.

الصالح إسماعيل يسلم بيت المقدس وغيرها للمسيحيين

(١٢٤٣هـ/١٢٤٣م)

احتدم النزاع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق بعد فشل محاولات الصلح التي جرت بين الطرفين وأخذ كل واحد منهم يعمل على الانتقام من خصمه بغض النظر عما يترتب على ذلك من إهدار لكرامة المسلمين وإضاعة لحقوقهم ومقدساتهم فضلاً عن توقف حركة الجهاد ضد الصليبيين وغيرهم من أعداء الإسلام، إذ لو قدر لحركة الجهاد أن تستمر كما كانت من قبل في عهد نور الدين زنكي وصالح الدين الأيوبي لما طال أمر العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، "ولا اخترلت أيام المحنة والإستنزاف يقيناً"^(١)

انضم إلى الصالح إسماعيل في هذا النزاع ضد الصالح أيوب كل من المنصور صاحب حمص والحليون والناصر داود صاحب الكرك، واتفقت كلمة هؤلاء على حرب الصالح نجم الدين أيوب ومنابدته لما علموا أنه أرسل إلى الخوارزمية يستحثهم على القدوم لمساعدته ضد عمه إسماعيل^(٢)، ونظراً لما عرف به الخوارزمية من جشع وظلم وسعى وراء العطايا فانهم لن يترددوا في الإستجابة لحليفهم السابق نجم الدين أيوب، لذلك خاف الصالح إسماعيل ومن معه من الحلفاء من اجتماع الخوارزمية مع عساكر مصر على حربهم فلا يستطيعون عندئذ الوقوف امامهم، فراسلوا الصليبيين وصالحوهم وجرت بينهم مفاوضات حول تقديم

(١) عماد الدين خليل، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢١.

المساعدة لملوك الشام ضد الصالح أيوب صاحب مصر^(١) ، فوافق الصليبيون على ذلك بشروط هي :-

- ١- أن يسلم بيت المقدس إليهم بما في ذلك الحرم ومافيه من المزارات.
- ٢ - أن تسلم إليهم طبرية وعسقلان وكوكب.
- ٣ - أن يسمح لهم الحلفاء في عمارة بيت المقدس وغيرها مثل طبرية وعسقلان وكوكب.^(٢)
- ٤ - أن الصالح إسماعيل ضمن للفرنج أنهم إذا ملكوا مصر أن يكون لهم فيها نصيب.^(٣)

وافق الحلفاء على هذه الشروط المهينة، وتسلم الصليبيون على الفور مواقع الاتفاق عليه، وشرعوا في بناء قلعة طبرية واحكموا تحصيناتهم وأخذت فرقة الاستتارية^(٤) كوكبا وعزموا على عمارتها، ثم دخل الصليبيون بيت المقدس وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى وما في الحرم الشريف من المزارات، ولم يكتف الحلفاء بذلك بل تعهدوا للصليبيين أنهم إذا ملكوا مصر اعطوهم نصيباً منها، ولقد طار الصليبيون فرحاً بذلك وجمعوا الفارس والراجل لمساندة الحلفاء

(١) انظر ماسبق عرضه في المبحث الثاني في الفصل الثالث.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٣.

(٤) الإستتارية: طائفة من فرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين، وإيواء الحجاج ورعايتهم وطبقت مبادئ الديرية البندكتية في فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعتها للبندكتية واتممت للبابوية مباشرة ثم تطورت واكتسبت صفة حرية وارتندي اصحابها زى الرهبان، وأخذوا يقاتلون من على ظهور الخيل كالفارسان تماماً، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، واسهمت مع طائفة الداوية في حماية كيان الصليبيين في الشام طوال أكثر من قرن من الزمان، انظر على عوده، المرجع السابق، ص ٢١٧ حاشية ٤.

ضد الصالح أيوب صاحب مصر^(١)

ويورد بعض المستشرقين روايات أخرى تفيد بأن الصالح أيوب قد عرض على الصليبيين نفس العرض الذى قدمه الحلفاء ضده إلا أننا لا يمكن أن نسلم لهذه الروايات لعدة اسباب هي : -

١- أن المصادر الإسلامية المعاصرة للحوادث لم تورد أى اشارة على الاطلاق تفيد بوقوع شيء من ذلك ولو حدث فعلاً لذكر ذلك ابن واصل صديق حسام الدين الهذبانى قائد الصالح أيوب ووزيره.

٢ - أن الصالح أيوب لم يلجأ إلى الاستعانة بالصليبيين فى أسوأ الظروف التى مرت به عندما كان أخوه العادل يحكم مصر ولم يكن بيده سوى دمشق التى انتزعت منه فيما بعد واعتقل بالكرك فلم يفكر فى طلب العون منهم فكيف فى ذلك بعد أن اصبح الحاكم على مصر بامكاناتها ومواردها الضخمة؟.

٣ - ومما يدحض هذه المزاعم أن بيت المقدس وطبرية وكوكب وعسقلان وغيرها من البلاد التى سلمها الحلفاء للصليبيين لم تكن فى ذلك الوقت تحت سيطرة الصالح أيوب حتى يعرضها عليهم مقابل التحالف ضد الصالح إسماعيل ومن معه من ملوك الشام وهل يعقل أن يعرض عليهم بلاداً لا يملكها؟^(٢).

٤ - الحق الصليبيى على مصر نظراً لكونها المخزن الذى يمد المجاهدين فى بلاد الشام بالرجال والسلاح بالإضافة إلى أن معظم الوقائع الكبرى التى كسر فيها الصليبيون كانت على ايدى قادة إسلاميين قدموا من مصر.^(٣)

(١) ابن ابيك، كنز الدرر، ج٧، ص ٦٤٤-٦٤٥، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبيى، ص ٨٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨١.

(٢) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨٢.

(٣) جوزيف نسيم، العدوان الصليبيى على مصر، ص ٢٧، العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية الاولى، ص ٢٧٩، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الإسلامية، ص ٢٤٥، محمد المنسى عاصى، تاريخ الحروب الصليبية وغارات المغول فى العالم الاسلامي، ص ٦٢.

٥ - حرص الصليبيون على التحالف مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق لقربه منهم واحساسهم بمدى العداوة بينه وبين الصالح أيوب صاحب مصر فضلاً عن أن التحالف مع الصالح إسماعيل يعنى كسب كل من الناصر داود صاحب الكرك والمنصور إبراهيم صاحب حمص.^(١)

وكيفما كان الأمر فإن الصالح إسماعيل ومن معه من ملوك بنى أيوب تخلوا عن مقدسات المسلمين فى بيت المقدس وغيرها دون أن يعيروا ذلك أى اهتمام، ولقد علق أحد الباحثين^(٢) على هذا الجرم الذى أقدم عليه الصالح إسماعيل وأتباعه بآية من كتاب الله العزيز، حيث يقول الله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾.^(٣)

وهكذا فقد نجحت سياسة الداوية التى تولت امر المفاوضات فى الإيقاع بين ملوك المسلمين واستطاعوا أن يحصلوا منهم على بيت المقدس وغيرها من القلاع الحصينة، وكتب مقدم الداوية ارمان بريجورد رسالة مثيرة إلى أوربا سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م يبشرهم فيها بما حصل لهم من نتيجة سعيدة أعادت لهم مقدساتهم دون عناء واخبرهم أن فرقة الاستتارية تعكف على إعادة بناء أسوار المدينة المقدسة ويعلق المؤرخ الغربى رنسيماى على ذلك بأنه آخر انتصار دبلوماسي للصليبيين فى الشرق الأدنى.^(٤)

وفى الحقيقة أن ذلك التنازل عن بيت المقدس وغيره من بلدان المسلمين يعد وصمة عار فى تاريخ أولئك الملوك، فلقد حكى المؤرخ المعاصر ابن واصل كيف انتهك الصليبيون حرمة المقدسات الإسلامية فى بيت المقدس عندما مر بها فى

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٦.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٨٢.

(٣) سورة الكهف، آية (١٠٣-١٠٤).

(٤) رنسيماى، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٨٩-٣٩٠.

أواخر سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م وهو في طريقه إلى مصر حيث قال: "ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة. وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى، وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأعلن فيه بالكفر" وفي نفس الوقت وصل إلى بيت القدس الناصر داود ونزل غربي القدس فخاف منه ابن واصل ولم يجتمع به لكي لا يصده عن الذهاب إلى مصر.^(١)

ويعقب مجير الدين العليمي الحنبلي على ما فعله الناصر داود، وكان قد حرر بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ثم كان ممن تنازلوا عنه، وفرطوا به يقول " وكان الناصر داود فتح بيت المقدس في سنة ٦٣٧هـ، ثم فعل هذه الفعلة القبيحة، وقد انتقم الله منه فيما بعد فنعوذ بالله من سوء الخاتمة، والضلال بعد الهداية".^(٢)

ونحن نعجب هنا من ثقة بعض ملوك المسلمين بالصليبيين، إذ كيف يجهل هؤلاء عدااء الصليبيين الشديد للإسلام والمسلمين، وكيف يأمنون غدرهم ومكرهم وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز حيث قال ﴿ولا يزالون يقتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾.^(٣)

ورغم ذلك فإن الصالح إسماعيل ومن وافقه من ملوك المسلمين لم ينجسوا من عملهم ذلك بل بلغت بهم الجرأة أنهم أرسلوا المنصور إبراهيم صاحب حمص إلى الصليبيين في عكا للتوقيع على تلك الاتفاقية، وليعرض على الصليبيين بالنيابة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٣. ١٠٩، عبد الجليل حسن عبد المهدى، بيت المقدس في ادب الحروب الصليبية، ص ٢١٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨٢.

(٢) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، ص ٩٠-١٠٠.

(٣) سورة البقرة، آية ٢١٧.

عن الحلفاء نصيبهم في مصر عندما تحل الهزيمة بالصالح أيوب، ولما وصل المنصور إبراهيم إلى الصليبيين في عكا جرى إستقباله بكل مظاهر التشريف والحفاوة وتكفلت فرقة الداوية بمعظم نفقات الضيافة.^(١)

وبذلك يكون أولئك الحكام من المسلمين قد أوقفوا حركة المقاومة والجهاد ضد الصليبيين ومكنوا لهم في بلاد المسلمين مما كان له أكبر الأثر في تأخر جلاء الصليبيين عن البلاد الإسلامية، ويعلق عماد الدين خليل على ذلك بقوله "هذا إلى أن عدداً غير قليل من الأمراء المحسوبين على عالم الإسلام مارسوا انمطاً من الخيانة وصنوفاً من الغدر من أجل منافعهم الشخصية ومصالحهم العاجلة لعبت دورها في عرقلة حركة المقاومة ووضع العقابيل والحواجز في طريقها وكثيراً ما كان هؤلاء يوجهون طعناتهم القاضية في أشد المراحل حساسية وخطورة فجلبوا بذلك على حركة المقاومة الكوارث والويلات، ورغم أن الجهاد كان يستأنف المسير بعد كل كبوة، ورغم أن قيادات المجاهدين ما كانت تأبه للغدر فإنها تحتاج دوماً لزمناً إضافي كي تجدد القدرة على مواصلة الطريق"^(٢) ثم يعقب الكاتب على تلك الخيانات التي أخرت زمن المقاومة بتساؤل يقول فيه " ترى كم من الاوقات المستقطعة كما يعبر الرياضيون في ساحات الالعاب، اقتضتها تلك الخيانات فحسبت على زمن الصراع المرير؟"^(٣) وأنت حين تستعين بعدوك التاريخي وتفقد القدرة على الرؤية الصحيحة.. فلا ضير في أن تموت.. فأنت - في البدء - إنسان متحرر....!!^(٤)

وعلى اية حال فإن الصالح إسماعيل أعد قواته وسيرها إلى غزة " فنزلوا بها وعزموا على قصد الديار المصرية " وفي نفس الوقت كانت بعض العساكر المصرية قد تقدمت إلى العباسية لدحر العدوان على مصر يما كان دهليز السلطان الصالح نجم الدين أيوب

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٩٠.

(٢) عماد الدين خليل، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٤-٣٥.

(٣) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤) عبدالحليم عويس، دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية، ص ١١١.

مضروباً على بركة الحب^(١) ومعه بقية العساكر مستعدة للخروج إلى الشام سنة ٦٤١هـ /
 ١٢٤٣م وكان حريضاً على اكرام قواده لضمان ولائهم له ومن أولئك القواد الذين
 اكرمهم الامير حسام الدين بن ابي على الهذباني حيث اعطاه إقطاعاً جليلاً واسكنه في الدار
 المعروفة بدار الملك على شاطئ نيل مصر في مدينة مصر ليكون قريباً منه^(٢)

(١) بركة الحب: كانت بركة الحب منتزها بظاهر مدينة القاهرة من بحريها للخلفاء الفاطميين
 وسلاطين بني أيوب ثم سميت في عصر سلاطين المماليك باسم بركة الحاج لتزول الحجاج
 المسافرين براً بها عند سيرهم من القاهرة وإليها في موسم الحج، انظر ابن واصل، مفرج
 الكروب، ج ٥، ص ٣٣٤، حاشية ١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٣-٣٣٤.

دخول الخوارزميين بلاد الشام واستردادهم لبيت المقدس

(٦٤٢هـ)

وكما سبق أن ذكرنا لم يتمكن المسلمون من المحافظة على بيت المقدس الذي تمكن الناصر داود من الاستيلاء عليه فقد تجدد الصراع مرة أخرى بين بني أيوب وخالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الصالح أيوب صاحب مصر فاستجد بالصليبيين وعرض عليهم مقابل مساعدته أن يتنازل لهم عن بيت المقدس بما فيه من الحرم والمزارات.^(١)

ونتيجة لذلك بدأ يبرز دور الخوارزمية كقوة تشارك في الصراع الإسلامي الصليبي، إذ أن الصالح أيوب أرسل إلى حلفائه من الخوارزمية " يستدعيهم إلى ديار مصر، لمحاربة أهل الشام، فخرجوا من بلاد الشرق وعسكر الصالح أيوب في العباسية ينتظر وصول الخوارزميه ليلقى بهم عمه الصالح إسماعيل وابن عمه الناصر داود اللذين جهزا عسكرهما وتوجها بصحبة المنصور صاحب حمص ونزلوا على غزة عازمين على قصد الديار المصرية.^(٢)

وما إن وصلت دعوة الصالح أيوب إلى الخوارزمية حتى وجدوها فرصة سانحة للخروج من عزلتهم السياسية وتعويض ما فقدوه من أراضي الجزيرة فقد سبق وأن أشرنا إلى كسرتهم على يد الحلبيين^(٣) سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م لذلك ساروا مباشرة من الشرق في أوائل سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م وقطعوا الفرات، تحت قيادة مقدمهم حسام الدين بركة خان وجان بردى، وصاروخان، وكشلوخان^(٤) في قوة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٢، المقریزی، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٥.

(٢) المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٥ وانظر ابن واصل، المصدر السابق ج ٥، ص ٣٣٦، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٢، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥.

(٣) انظر الفصل الثالث المبحث الثالث.

(٤) بركة خان: قائد الخوارزمية ومقدمهم الكبير، انظر الذهبي، تاريخ الاسلام، طبعة ٦٤، ص ٣٢.

تريد على عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليهم مجموعة القيمرية^(١) على رأسهم الأمير ناصر الدين وضياء الدين واعداد كثيرة من اصحابهم واتباعهم.^(٢)

ولم يتخل الخوارزمية عن اساليبهم الوحشية السابقة، فقد مارسوا اثناء مرورهم في البلدان الاسلامية منذ عبورهم الفرات الوائاً من الهمجية والشراسة ضد الاهالي في تلك البلدان وافاضت المصادر الإسلامية في ذكر تلك الاساليب التي مارسها الخوارزمية فبين المقریزی بأنهم كانوا " ينهبون ويقتلون ويسبون"^(٣) ويوضح ابن واصل رد الفعل لدى سكان البلاد التي يمرون بها بقوله " فأجفل الناس بين ايديهم وما مروا بموضع إلا نهبوه وعاثوا فيه"^(٤)

خان بردی: هو اختيار الدين خان بردی دون بركة خان فى الرتبة وقد كان أمير صاحب السلطان جلال الدين وهو شيخ داهية له رأى ورواء، انظر الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٤، ص ٣٣. صاروخان: يعتبر شحنة الجمال التى لجلال الدين خوارزم شاه وهو شيخ بطين أبله، انظر الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٤، ص ٣٣. كشلوخان: تربية جلال الدين وهو شاب عاقل وابن اخت جلال الدين، انظر الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٤، ص ٣٣.

(١) القيمرية نسبة إلى قيصر، وكانت قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط، ذكر ياقوت فى معجم البلدان، أنه نسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط وكان أهلها من الأكراد، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٦، حاشية ٣، انظر أيضاً المقریزی، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، حاشية ٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٦، المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، ابن تغرى بردی، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٣، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٢-٣٣، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥، الذهبى، العبر، ج ٣، ص ٢٤٢، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٧٢، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٩٠.

(٣) المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦ وانظر كذلك سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٤١، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٣، ابن تغرى بردی، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٢٣.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٦، وانظر أيضاً المقریزی، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦.

وقد قامت الخوارزمية بتقسيم قواتهم إلى قسمين، قسم توجه نحو بقاع بعلبك^(١)، وقسم آخر نحو غوطة^(٢) دمشق التي كانت حصينة، ثم انحرفوا صوب الجليل^(٣) حيث تمكنوا من الاستيلاء على طبرية ثم نابلس^(٤) وتوجهوا بعد ذلك صوب الجنوب نحو بيت المقدس^(٥)

ولما سمعت قوات الحلفاء المقيمة بغزة بتحركات الخوارزمية أصابها الخوف والذعر فسارعوا بالعودة إلى ممالكهم فرجع الصالح إسماعيل إلى دمشق ورحل الناصر داود إلى الكرك وتحصن به وفر الصليبيون الذين كانوا ببيت المقدس بعد استيلائهم عليه، واضطربت الأوضاع في بلاد الشام وأصبحت الفرصة سانحة للخوارزمية للهجوم على بيت المقدس والاستيلاء عليه وطرد العدو الصليبي منه واعادته مرة أخرى إلى المسلمين^(٦)

علماً بأن بيت المقدس في ذلك الوقت كانت اشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، ولا يوجد بها ملك أو قائد صليبي يدافع عنها، وعندما علم من فيها من

(١) بعلبك مدينة قديمة، فيها أبنية عجيبة وأثار عظيمة وقصور على اساطين الرخام لانظير لها في الدينا بينها وبين دمشق مسيرة ثلاثة أيام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) غوطة دمشق: الغوطة هي الكورة التي منها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلاً يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها يقول ياقوت أنها من أحسن بلاد الله منظراً، معجم البلدان.

(٣) الجليل : يقع في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص، ياقوت، معجم البلدان.

(٤) طبرية ونابلس: طبرية بلدة مظلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي من أعمال الأردن، ونابلس مدينة مشهورة بأرض فلسطين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤١، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٩١، عبدالرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى ص ٣٧٦.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٧، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥٣.

الصليبيين بقدم الخوارزميين استغاثوا بكل من بوهمند الخامس امير انطاكية ويوحنا أمير طرابلس وملك قبرص هنرى الأول، فضلاً عن جموع الصليبيين فى عكا وحلفائهم المسلمين ملوك دمشق وحمص والكرك، ولكن هذا النداء لم يجد استجابة من هذه الأطراف على الرغم من أهمية بيت المقدس للصليبيين وحرصهم الشديد على أن تعود له مكانته السابقة قبل موقعة حطين، ولعل إنشغالهم بمشاكلهم الخاصة فى الشام وقبرص أدى إلى عدم مبالاتهم بهذا الأمر^(١). وفي رأى أن هذا ابلغ دليل على تضارب مصالح الصليبيين وحلفائهم المسلمين فى بلاد الشام.

كما أن الصالح إسماعيل ملك دمشق والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص حلفاء الصليبيين - لم يجسروا على التدخل فى ذلك الأمر لحماية مصالح الصليبيين فى بيت المقدس من هجوم الخوارزمية لأن ذلك يعرضهم لنقمة الرأى العام فى البلدان الإسلامية.^(٢)

وبالرغم من ذلك فإن بعض فلول الصليبيين فى بلاد الشام حاولوا تدارك الامر قبل فوات الأوان، فسار البطريك روبرت وبصحته زعيما الداوية والإسبتارية إلى بيت المقدس بقصد تعزيز الحماية المرابطة فى الإستحكامات التى بناها الداوية بعد الصلح مع الصالح إسماعيل، وفعلاً استطاعوا تعزيز الحماية، غير أنهم لم يجروا على البقاء بها خوفاً من أن يقعوا لقمة سائغة بيد الخوارزمية.^(٣)

اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م " وبذلوا السيف بمن كان فيه من النصارى ولم يقو على أحد منهم، وسبوا ذراريهم

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٧، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٩١، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٦.

(٢) عفاف صبرة، المرجع السابق، ص ٢٩١، سعيد عاشور المرجع السابق، ص ٩٩٧.

(٣) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٩٢.

ونساءهم"^(١) ويفصل رنسيما في ذلك الهجوم فيذكر أن بداية القتال وقع في شوارع المدينة ثم تقدمت الخوارزمية وشقوا طريقهم نحو دير الارمن المعروف بدير القديس يعقوب وقضوا على من به من الرهبان والراهبات، عندئذ قرر أحد المسئولين عن القلاع الخروج لايقاف الخوارزمية عند حدهم لكنه لم يتمكن من ذلك حيث لقي مصرعه على ايديهم كما هلك معه مقدم الاستتارية.^(٢)

عجزت الحامية الصليبية عن الإستمرار في مقاومة الهجوم الخوارزمي، خاصة بعد أن فقدوا الأمل في قدوم نجدات الصليبيين في بلاد الشام وقبرص، فأرسلوا يستغيثون بالناصر داود صاحب الكرك لتأمين خروجهم باعتباره أحد حلفاء الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، وكره الناصر داود الوقوف إلى جانبهم لأنه لم يكن يميل إليهم، إلا أنه توسط لهم عند الخوارزمية بشرط أن يقوموا بتسليم القلعة، فوافقت الحامية الصليبية على ذلك وسلمت القلعة سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م وغادروا بيت المقدس قاصدين يافا.^(٣)

وهكذا خرج من بيت المقدس حوالي ستة الاف من الصليبيين من الرجال والنساء والاطفال وعليهم الذلة والصغار، وتركوا المدينة للخوارزمية، الذين حز في نفوسهم أن يسلم هؤلاء الصليبيون - وهم الذين فعلوا بالمسلمين الأفاعيل عند استيلائهم على بيت المقدس في المرة الأولى سنة ٤٩٢هـ - فدبروا لهم خدعة حربية ليقتلوهم عن آخرهم، وفعلاً انطلت هذه الخدعة على الصليبيين فينما هم يسيرون باتجاه الساحل إلى يافا نظر جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الصليبيين ترفرف على أبراج المدينة حيث اعتقدوا أن نجدة قد وصلت لحماية بيت

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص

٣٢٣، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٣.

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٩٢.

(٣) رنسيما، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٢، عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٧.

المقدس من الخوارزمية^(١)

عندئذ اصر عدد كبير منهم على العودة إلى المدينة، فلما رجعوا وقعوا في كمين تحت اسوار المدينة وقتل منهم اكثر من الفين، في حين تعرضت البقية الباقية منهم للمطاردة طوال طريقهم إلى يافا من قبل المجاهدين، ولم يسلم منهم سوى ثلثمائة رجل فقط^(٢)

وما فعله الخوارزميون بحسب لهم فلقد عاد بيت المقدس نهائياً إلى المسلمين، ولم يستطع أى جيش صليبي أن يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى بعد حوالى سبعة قرون^(٣)؛ ولم يظهر الخوارزمية شيئاً من الرأفة بالصلبيين وبمقدساتهم الموجودة في بيت المقدس، فدخلوا "كنيستهم المعروفة بالقيامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التي بالقيامة، واحرقوا عظام الموتى"^(٤)، وكان من ضمن الذين لقوا مصرعهم في كنيسة القيامة مجموعة من القسس اللاتين المتقدمين في العمر حيث رفضوا مغادرة المدينة وانشغلوا بإقامة القداس، واحرق الخوارزميين جميع الكنائس الموجودة في بيت المقدس بما فيها كنيسة القيامة، ونهبوا الدور والدكاكين الموجودة في انحاء المدينة ولما اضحت المدينة خاوية على عروشها

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٧-٩٩٨.

(٢) رنسيما، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٢، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٩٩٨.

(٣) عبدالرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٧٧، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها، ص ٨٩، رنسيما، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٣، عاشور، المرجع السابق، ص ٩٩٨.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٧، السلوك، المقرئى، ج١، ق٢، ص ٣١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٣.

خرج منها الخوارزمية ولحقوا بالجيش المصرى المعسكر فى غزة.^(١)
وهذا الأمر لم يكن مستغرباً من الخوارزمية وهم بذلك يحاكون الصليبيين عندما
دخلوا إلى بيت المقدس أول مرة حيث فعلوا من الإجرام مالا مزيد عليه.
وهكذا هيا الله عز وجل للمسلمين فى الشام من اعداء لهم أولى القبلتين وثالث
الحرمين الشريفين وطهره من دنس النصارى ولم تقف قوة الخوارزمية الزاحفة إلى
بلاد الشام صوب مصر من استرداد القدس بل تمكنوا من تلقين الصليبيين وحلفائهم
من المسلمين درساً فى حطين الثانية وهذا ماسنراه فى المبحث التالى.

(١) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٣.

معركة غزة (حطين الثانية) ٦٤٢هـ

بعد أن قام الخوارزمية باسترداد بيت المقدس اتجهوا صوب غزة وعسكروا بها، وأرسلوا إلى الصالح أيوب صاحب مصر في صفر سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م يخبرونه بقدومهم لنصرته، ويطلبون منه ارسال العساكر إليهم لقتال عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص والناصر داود صاحب الكرك والحلبين، وخاف الصالح أيوب من دخول الخوارزمية إلى مصر فيعشوا بها كما هي عادتهم، فأمرهم بالإقامة في غزة ريثما تصلهم عساكره، ووعدهم أن يعطيهم بلاد الشام مقابل ما يقدمونه له من خدمات، وخلع الصالح أيوب على رسلهم وبعث معهم الهدايا والتحف والخيول والاموال إلى المقدمين منهم وتوجه في الرسالة إليهم جمال الدين اقوش النجيني وجمال الدين بن مطروح، كما حرص الصالح أيوب على سرعة انفاذ العساكر إليهم.^(١)

تقدمت العساكر المصرية إلى غزة للانضمام إلى الخوارزمية وقد عين الصالح أيوب الامير ركن الدين بيبرس قائداً عاماً لهذا الجيش، وكان من أفضل مماليكه وأخصهم به، وهو الذي أشرنا إلى أنه كان معتقلاً معه بالكرك، ثم أمر الأمير حسام الدين الهذباني في أن يمضى بفرقة اخرى من الجيش ليرابطوا بنابلس.^(٢)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٧٧، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥، ابن ايسك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٧، الذهبى، دول الاسلام، ج ٢، ص ١١٢، المختار من تاريخ ابن الجزرى ص ١٨٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٣.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٧، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٢-١٧٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج ٢، ص ٢٤٩، الخطيب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢هـ، مجير الدين الحنبلى، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧.

عندئذ أخذ الصالح إسماعيل يعمل على الاعداد لمجابهة الخوارزمية وعساكر مصر وأرسل يستدعى حليفه المنصور صاحب حمص ليسند إليه مهمة قيادة عسكره، لما اشتهر به المنصور من الشجاعة والإقدام في قتال الخوارزمية، حيث تمكن من الانتصار عليهم مرتين، فتطلع الصالح إسماعيل أن يتحقق على يده هذه المرة النصر على الخوارزمية ومن معهم من العساكر المصرية^(١) وحينما وصل المنصور إلى الصالح إسماعيل بدمشق " اقتضى رأيهما أن يقصدا الديار المصرية وأرسلوا إلى الفرنج وبذلا لهم جميع الأعمال الساحلية إذا ملكو مصر، واشترطوا عليهم أن يخرجوا ويمضوا معهما إلى مصر بجموعهم، فارسهم وراجلهم، فأجابوا إلى ذلك وتحالفوا عليه"^(٢)

وصل المنصور وعسكر دمشق وقدمت عليه نجدة من حلب، وتم الاتفاق على أن يكون المنصور قائداً عاماً على القوات المشتركة الشامية والصليبية على حد سواء وأن يقيم الصالح إسماعيل في دمشق، واثناء سير المنصور بالعساكر الشامية من دمشق إلى غزة عرج على رأس فرقة عسكرية صغيرة إلى عكا فدخلها ليطلع الصليبيين على ماتم الاتفاق عليه، ونزل في دار فرسان الداوية، واجتمع بقيادة الصليبيين وتشاور معهم في الترتيبات اللازمة للوقوف في وجه الخوارزميين وعساكر مصر وبعد مداولات طويلة جرى الاتفاق على خروج الصليبيين جميعاً بما فيهم فرقتا الداوية والاستبارية وجميع أمراء الصليبيين وفرسانهم، " واستعدوا وحشدوا وخرجوا معهم بالفارس والراجل ولم يتأخر منهم أحد"^(٣)

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٣، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨٣.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، وانظر على عودة، المرجع السابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٨، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٣، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٧٢، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٩، الخطيب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢، معجيز الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٧، على عودة، المرجع السابق، ص ٢٨٤.

ومما يلفت الانتباه أن الجيش الصليبي يعتبر أضخم جيش تقدم للقتال منذ موقعة حطين التي قررت مصير الفرنج^(١)، ويبدو أن السبب الذي اغراهم على الخروج بهذه الكثرة هو طمعهم في ملك الديار المصرية، حيث أن المنصور إبراهيم والصالح إسماعيل وعداهم " أن يكون لهم جزء من الديار المصرية"^(٢)، ولقد تألف الجيش الصليبي من ستمائة فارس علماني بقيادة فيليب مونتفورت صاحب تبين وصور، ووالتربرين صاحب يافا، وأرسل الداوية والاستتارية من رجالهم ما يناهز الثلاثمائة فارس، بقيادة زعماء الفرقين ارمان بريحورد ووليم شاتونيف وانضم إليهم كتيبة من الفرسان التوتون^(٣) وأرسل بوهمند الخامس امير انطاكية مجموعة من الامراء والقادة لينضموا إلى جيش الحلفاء، وصحب القوات البطريك دوبرت ومعه رئيس أساقفة صور والرملة، وغيرهم من طوائف الصليبيين.^(٤)

وسارت جميع القوات إلى غزة ولم يتأخر عنهم إلا الناصر داود، فبعث إليه المنصور يطلب منه الحضور لخوض المعركة، ولكن الناصر داود لم يحضر بنفسه واكتفى بإرسال مجموعة من عسكره إلى الحلفاء بقيادة اثنين من أكبر قواده وهما الظهير بن سنقر الحلبي، والوزير^(٥)، وكان سبط ابن الجوزي شاهد عيان

(١) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٩.

(٣) هم اتباع المستشفى الألماني بيت المقدس الذين تحولوا إلى جماعة رهبانية عسكرية، وللمزيد من التفصيل عن طائفة التوتون انظر حسن عبدالوهاب حسنين، تاريخ جماعة الفرسان التوتون في الأراضي المقدسة.

(٤) رنسيما، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٤.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٨، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٧، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٥، الذهبى، المختار تاريخ ابن الجوزى، ص ١٩٠، ابن تغرى =

لتحركات الجيوش في بلاد الشام فيقول " وكنت يومئذ بالقدس ولما وصلت نجدة الناصر داود إلى الحلفاء تحركوا جميعاً نحو الخوارزمية وعسكر مصر، وكانت اعلام الصليبيين مرفوعة فوق رؤوس العسكر الإسلامي وفي أعلى هذه الاعلام اشارات الصليب وبصحبته المربان والقسيسين يدورون على فرسان المسلمين يصلبون عليهم، وبأيديهم أواني الخمر يسقونهم^(١)

وكيف ظن هؤلاء المسلمين الذين ساروا تحت الصليبان أن النصر سوف يتحقق لهم لكثرة عددهم ولم يدركوا أن الله لا ينصر إلا من ينصره، فمن المعلوم أن الجيش الإسلامي قد هزم في غزوة أحد بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ فكيف بهؤلاء الذين تحالفوا مع أعداء المسلمين ضد اخوانهم المسلمين وساروا تحت أعلامهم وصلبانهم وشربوا الخمر، هل يمكن أن يتحقق لهم النصر؟

وعلى اية حالة فلقد التقى الجمعان في آربيا على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة يوم الاثنين ١٢ جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ / ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م وقبل خوض المعركة بادر الحلفاء إلى عقد مجلس حربى، وبما أن المنصور صاحب حمص تقابل مع الخوارزمية وانتصر عليهم فإنه كان على علم بنقاط الضعف عندهم وحاول أن يستغل ذلك، فأشار على الحلفاء بالبقاء فى اماكنهم وتحصين معسكرهم امام كل هجوم من قبل الخوارزمية لأنهم يكرهون الهجوم على الاماكن الحصينة فيزداد حينئذ قلقهم وربما ينفصلون عن الجيش المصرى الذى لا يستطيع أن يستغنى عنهم فى مواجهة الحلفاء، وأقره على هذا رأى عدد كبير من الصليبيين إلا والتبرير فانه رفض هذا الاقتراح واصر على القيام بهجوم شامل ومباشر على الخوارزمية والقوات المصرية لأن قواته تفوق فى العدد الجيش المقابل لهم، ورأى أن هذه فرصة لا يمكن اهدارها للقضاء على خطر الخوارزمية ولإذلال

= بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الحليل، ج٢، ص٧.

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٤٦، وانظر كذلك المقرئى، السلوك، ج١، ق٢،

ص٣١٧، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١١٢، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجوزى، ص١٩٠.

الصالح أيوب صاحب مصر، ولكي يحقق والتر هدفه ويجبر الحلفاء على تنفيذه تحرك باتجاه القوات الخوارزمية المصرية.^(١)

عندئذ تحركت جيوش الحلفاء لخوض القتال، وكان الصليبيون يكونون ميمنة الجيش بينما المنصور هو القائد العام للقوات المشتركة بعساكره وعساكر دمشق وكتيبة حلب في القلب أما عسكر الناصر داود صاحب الكرك فقد كانوا في الميسرة ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس أدت إلى انهزام العساكر المصرية إلى قرب العريش بعد أن رموا امتعتهم واثقالهم، غير أن الخوارزمية ثبتوا أمام هذا الهجوم الكاسح حتى حلت الهزيمة بالقوات الشامية^(٢) وكان أول من انهزم عساكر دمشق التي لم تستطع الصمود فولت الأدبار^(٣) ثم حملت الخوارزمية على ميسرة الجيش المكون من عساكر الناصر داود وكسرتهم وهرب الوزير وأسروا القائد الآخر الظهير سنقر الحلبي وجرح في عينه وأخذ جميع ماله وعاقبه الله بأن عاش بقية عمره فقيراً معدماً، ولم يكن باستطاعة المنصور أن يواصل القتال بعد تخاذل عسكر الناصر داود والدمشقيين وفرارهم من أرض المعركة فحذا حذوهم وانهزم من الميدان عندئذ احاطت الخوارزمية بالصليبيين وكان عددهم " ألف وخمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل" وماهى إلا لحظات حتى حصدتهم الخوارزمية بسيفهم حصداً جيداً^(٤) " فافنؤهم قتلاً وسبياً، ولم يفلت منهم إلا

(١) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦، المقرئزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٧، ابن الجزري، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٩٠، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨١٠.

(٣) الذهبي، المصدر السابق، ص ١٩٠، رنسيان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٥.

(٤) سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٤٦، المقرئزي، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣١٧، الذهبي، المصدر السابق، ص ١٩٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣.

الشارد والنادر"^(١) ووقع في الأسر منهم ثمانمائة أسير، أما العدد الإجمالي للقتلى من الصليبيين والشاميين فقد ذكر المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزي أنه شاهدهم بنفسه قائلاً " ولقد أصبحت ثانی يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفاً" وقد ذكر هذا التقدير عدد كبير من المؤرخين.^(٢)

وحاز الخوارزمية وعسكر مصر في هذه الموقعة من أموال الشاميين واسلحتهم مايجل وصفه وأموال وخزائن واسلحة المنصور صاحب حمص حتى أنه طلب شاشاً يتعمم به فما وجده وجعل ييكي ويقول " قد علمت أنا لماسرنا تحت صلبان الفرنج أنا لانفلاح"^(٣) ولقي عسكر المنصور وعسكر دمشق من الضيق والمشقة فلم يصلوا إلى دمشق إلا في أسوء حال ودخل المنصور إلى دمشق وهو لا يصدق النجاة وتأسف على ما بدر منه بتحالفه مع الصليبيين ضد اخوانه المسلمين وأخذ يقول " والله لقد حضرت الحرب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى في قلبي إنا لانتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين".^(٤)

على أن ابن تغرى بردى غاظه ذلك وقال: " عليه من الله ما يستحق من الخزي

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤٦، المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٧، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٢، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٩٠.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٤٧ المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٧، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٤٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨٥.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٣-٣٢٤، الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١١٢، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٩١.

وايش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً وأحدة على المسلمين.^(١)

وفي خامس عشر جماد الأولى سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م وردت بشارة النصر إلى الصالح أيوب فأمر بإقامة الاحتفالات، وزينت القاهرة ومصر وضواحيها وقلعتى الجبل والروضة وبالع الناس فى ذلك حتى ذكر أنها زينت زينة لم يجز مثلها من قبل، وضربت بشائر النصر فى البلد عدة أيام، ووصل إلى القاهرة اسارى الصليبيين ورؤس القتلى، معهم جماعة من القادة والاعيان من المسلمين الذين كانوا فى صفوف الحلفاء من اتباع الناصر داود والصالح إسماعيل، ولكى يظهر المصريون مزيداً من الفرحة قاموا بركاب الصليبيين على الجمال اما القادة فقد أركبهم على الخيل وشقوا بهم شوارع القاهرة فكان ذلك يوماً مشهوداً وعلقت الرؤوس على مداخل القاهرة وملئت السجون بالأسرى.^(٢)

وهكذا تمكن الخوارزمية من إنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين " ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين "^(٣) فكانت بذلك أعظم كارثة تحل بهم منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م حتى أن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يجز مثلها " لافى زمان نور الدين الدين ولا صلاح الدين "^(٤) وأطلق البعض الآخر على هذه الموقعة إسم " حطين الثانية"، ويورد بعض المؤرخين احصائية عامة عن المعركة تبين مدى خسارة الصليبيين فيذكرون أنه اشترك فى موقعة غزة الثانية من فرسان الداوية ثلثمائة فارس لم يسلم منهم سوى ثلاثة وثلاثون واشترك

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٩، المقرئى، السلوك، ج١، ق ٢، ص ٣١٧، أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص ١٧٢، ابن ابيك الدوادا، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٤، ابن تغرى بردى، المصلى السابق، ج٦، ص ٣٢٤ أبو الفدا، التبر المسبوك، حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٣) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، ص ١٧٤.

(٤) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦.

فيها من فرسان الاستتارية ما يقرب من مائتي فارس ولم ينج منهم سوى ستة وعشرون فقط أما البقية الباقية منهم فقد فقدوا بين القتلى والاسرى، واسر مقدم الاستتارية بينما قتل مقدم الداوية، كما اشترك فيها أربعمئة من الفرسان التوتون ولم ينج منهم إلا ثلاثة.^(١)

نتيجة لذلك فإن الخسارة العظيمة التي لحقت بالصليبيين كانت نهاية المطاف لوجودهم في بلاد الشام، فقد عجزوا عن الدفاع عن البلدان التي استولوا عليها في بلاد الشام ماعدا المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية الحصينة، وفقدوا بذلك كل ما احرزته الدبلوماسية أو العسكرية من مكاسب هامة خلال العشر السنوات الاخيرة، ويذكر أحد المؤرخين الغربيين عند مقارنته بين حطين وغزة الثانية أن صلاح الدين عندما تم له النصر على الصليبيين كان سلطاناً على مصر والشام أما الصالح أيوب في انتصاره هذا لم يكن سلطاناً إلا على مصر فقط ولكي يتحقق للصالح أيوب توحيد الشام وليتسنى له بذلك طرد الصليبيين نهائياً من الشرق ومصر كان لابد له من أن يقضى على خصمه الصالح إسماعيل في دمشق.^(٢)

على أن الخوارزمية الذين تحقق على أيديهم هذا النصر العظيم كانوا يتوقعون أن يكافئهم الصالح أيوب بأن يسمح لهم بالإقامة في مصر، ولكنه خاف من سوء العاقبة فهم كما عهد عنهم لن يتورعوا عن ممارسة أعمالهم الاجرامية مما يؤدي إلى الأضرار بالبلاد والعباد وإباح لهم الاستقرار في بلاد الشام على حساب الصليبيين، ولم تلبث الخوارزمية أن قامت بشن الغارات على ممتلكات الصليبيين وقراهم

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٩، وانظر كذلك على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص ٢٨٦، عبدالرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٧٧، سعيد أحمد برجوى، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٥٣٣.

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٣٩٧.

حتى وصلوا إلى اطراف مدينة عكا^(١)، ويدوا أن من أهداف الصالح أيوب الأخرى في بقاء الخوارزمية في بلاد الشام هو اشغال الصليبيين عن التفكير في الانتقام لما حل بهم في موقعة غزة الثانية وحتى يكونوا شوكة في جنب اعدائه من أمراء البيت الأيوبي حتى يتفرغ هو الآخر للقضاء على خصومه في بلاد الشام، ولتعزيز هذا الأمر نجده يرسل اثنين من قواده وهما الأمير ركن الدين بيبرس والأمير حسام الدين الهذباني ويأمرهما بمنازلة عسقلان وانتزاعها من يد الصليبيين وكان الصليبيون قد بنوا اسوارها وحصنها بعد تسلمهم لها من قبل الصالح إسماعيل. سارت القوات المصرية إلى عسقلان سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٦م وحاصرتها وضايقتها وتابعوا الزحف عليها بالجروح والزنبورك^(٢) إلا أن ذلك لم يجد بسبب حصانه المدينة، ثم ورد أمر الصالح أيوب إلى حسام الدين بالمضي إلى نابلس والإقامة بها، فامثل للأمر وبقي ركن الدين بيبرس محاصراً لعسقلان.^(٣)

وفي الوقت نفسه اتجه الصالح أيوب إلى معاقبة الناصر داود لتحالفه مع الصليبيين فاستولى جيشه على جزء كبير من املاكه في غزة والساحل وبيت المقدس والخليل وبيت جبرين والأغوار، ولم يبق بيد الناصر داود إلا الكرك والبلقاء وعجلون والصلت وهي بيد سيف الدين بن قلج.^(٤)

وبعد معركة غزة ومانتج عنها تفرغ الصالح أيوب لتوحيد بلاد الشام مع مصر

(١) رنسيان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٩.

(٢) الجروح جمع جرخ وهو نوع من القوس الرامي الذي ترمى عنه النشاب أو النفط، والزنبورك والجمع زنبوركات تعني نوعاً من القسي التي ترمى عنها السهام وقد تعني نوعاً من السهام ذاتها، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ١٥٠، حاشية ٣، ص ٢٤٤، حاشية ١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤٠، المقريزي، السلوك، ج١، ق ٢، ص ٣١٨، العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٢هـ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤٠، المقريزي، المصدر السابق، ج١، ق ٢، ص ٣١٨.

(٣٠١)

ومن ثم الاستعداد لطرده الصليبيين من بلاد الشام معتمداً في ذلك على الخوارزميين،
إلا أن الخوارزمية سرعان ما انقلبوا عليه بسبب جشعهم وهذا ما سيتواصل عنه
الحديث في الفصل الخامس.

الفصل الخامس

العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزميين

(٦٤٣-٦٤٥ هـ)

- الصالح أيوب واسترداد دمشق سنة ٦٤٣ هـ.
- خروج الخوارزميين عن طاعة الصالح أيوب وتحالفهم مع أعدائه.
- انتصار قوات الصالح أيوب على الخوارزميين سنة ٦٤٤ هـ.
- طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الحملة الصليبية السابعة.

الصالح أيوب واسترداد دمشق

تطلع الصالح أيوب بعد انتصار قواته في موقعة غزة إلى استغلال ذلك النصر لتحقيق أهدافه الرامية إلى إعادة الوحدة للدولة الأيوبية من جديد ورأى أن العقبة الكبرى التي تعترض طريقه في سبيل ذلك هو عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق فعزم على الانتقام منه جزاء خيائته واستعائته بالصليبيين، ثم الاستيلاء على دمشق باعتبارها المفتاح لبلاد الشام ولكي يمهد الصالح أيوب لهذه العملية بادر بإرسال نوابه للاستيلاء على أملاك الناصر داود صاحب الكرك.^(١)

ومما زاد في حرص الصالح أيوب على الانتقام من عمه الصالح إسماعيل هو ما بلغه عن موت ابنه المغيث فتح الدين عمر^(٢) بقلعة دمشق وهو محبوس في برج من أبراجها سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م " فاشتد جزع الملك الصالح أيوب عليه، وحنق على عمه الملك الصالح إسماعيل حقاً شديداً واتهمه في قتله وجد في حربه^(٣)، أما الصالح إسماعيل فقد توقع أن يقوم ابن أخيه الصالح أيوب بالانتقام لابنه ولذلك أعد العدة واستعد للموقف الذي سيحل به " عندئذ وقع في قلب الصالح إسماعيل " فتهياً للحصار وخرب رباعاً كثيرة حول البلد وغرقت المساكن التي على حافة بردى بين جسري بابي توما والسلامة وبسبب خراب جسر باب توما وسده رجع الماء وارتفع وصار بحراً فوق ما كان

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٠، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٥.

(٢) هو المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب، كان ولداً حسناً عاقلاً ديناً أسرة الصالح إسماعيل في سنة ٦٣٨ هـ وحبسه في بعض أبراج قلعة دمشق، وكان عاقلاً لم يحفظ عنه كلمة فحش ولا كسر قلب أحد وكان جواداً، انظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٦.

على حافته والله المستعان".^(١)

أعد الصالح أيوب قواته وأسند قيادتها إلى وزيره صاحب معين الدين أبي محمد الحسن بن شيخ الشيوخ^(٢) وأمره بالمشير إلى الشام، ومنحه جميع الصلاحيات الخاصة بالسلطان فبعث معه الدهليز السلطاني، وحكمه في الجيوش، وأقامه مقام نفسه" أعطاه تفويضاً مطلقاً في تدير الخزائن والأموال والبلاد^(٣) ولم يكتف بذلك بل أذن له في أن يجلس على رأس السماط^(٤) ويركب كما هي عادة السلاطين، وأمر الأستاذار شهاب الدين الطوشي أن يقوم على خدمته، وأن يقف أمير جاندار^(٥) والحجاب بين يديه كعمادتهم في خدمة الملوك ويبدو أن الصالح أيوب قصد من ذلك تعزيز ولاء معين الدين له حتى لا يفكر في الانقلاب عليه بتحالفه مع أعدائه^(٦)

لم يقف الصالح أيوب عند حد الاعتماد على قواته التي أرسلها من مصر بل

(١) أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٧٤.

(٢) معين الدين صاحب الكبير الحسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجويني توفي في رمضان سنة ٦٤٣هـ وقد قارب الستين، ولي عدة مناصب وتقدم عند صاحب مصر فأمره على جيشه الذي حاصر دمشق فأخذها وولى وعزل وعمل نيابة السلطنة فبغته الاجل بعد أربعة أشهر ووجد ماعمل، انظر الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٥.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٨-٣١٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤.

(٤) السماط: السماط هنا المائدة السلطانية، أو مايسط على الأرض لوضع الاطعمة وجلس الاكلين، المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٥) الجاندار: كلمة مركبة من لفطين فارسين أحدهما جان ومعناه سلاح، والثاني دار ومعناه ممسك، وموضوع وظيفة الجاندارية أن متوليها يستأذن للسلطان قبل دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، انظر القلقشندي، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٢٠.

(٦) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٨-٣١٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٣.

أرسل إلى الخوارزمية وطلب منهم الانضمام إلى قواته المتجهة إلى دمشق، وبالرغم من الإعداد الجيد للقوات المصرية، والصلاحيات التي تمت لقائد هذه القوات، فإن الصالح أيوب قد فوجئ بنأ وفاة حليفه وصديقه المظفر تقي الدين محمود^(١) صاحب حماه الذي وافته منيته في جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م والذي " كانت مملكته ملجأً لأنصار الصالح أيوب" وعلى ما يبدو فإن هذا الخبر قد أخرج خروج القوات المصرية حتى نهاية العام.^(٢)

خرجت القوات المصرية بقيادة معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ من القاهرة ووصلت إلى غزة حيث انضمت إليهم الخوارزمية ومن بغزة من القوات المصرية ولم يستقروا بها بل واصلوا مسيرهم إلى بيسان^(٣) فعسكروا بها وأقاموا بها فترة للترتيب والإعداد للحصار، ثم سار معين الدين بقواته إلى دمشق التي تحصن بها الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وضربت قوات الصالح أيوب الحصار حول دمشق في أواخر سنة ٦٤٢هـ أوائل سنة ١٢٤٥م.^(٤)

(١) الملك المظفر هذا هو جد المؤرخ أبي الفدا إسماعيل، صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، وقد ترجم له أبو الفدا في كتابه هذا وذكر ما حدث في حماه بعده ونصه: " وفي هذه السنة توفي جدي الملك المظفر تقي الدين محمود... وكانت مدة ملكه بحماه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام... وكان شهماً شجاعاً، فطناً ذكياً، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، انظر ترجمته في أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٢، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٨-٣١٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٥.

(٣) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال هي لسان الأ، وهي بين حوران وفلسطين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤١، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣١٩، ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢هـ، أبو الفدا، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٢-١٧٣، النعيمي، اللارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٢، على عوده، المرجع السابق، ص ٣٢٩.

واصل الجيش المصري حصاره لدمشق " وعاشت الخوارزمية في أعمال دمشق" ^(١)، وقطعوا على الناس الطرق المؤدية إليها وزحفوا على المدينة من كل ناحية وضويقت المدينة مضايقة شديدة حتى احرق قصر الحجاج والشاعور وحكر السماق ^(٢) وشمل الحريق مساجد وخانات ودور عظيمة بما في ذلك مسجد جراح الواقع خارج باب الصغير وكان جامعاً تقام فيه الجمعيات، وحمية المعركة ونصب منجنيق عند باب الصغير وآخر عند باب الجابية كما نصب من داخل البلد منجنيق إضافي وتراعى الفريقان. ^(٣)

وفي يوم الاثنين ثامن محرم سنة ٦٤٣هـ / ٥ يولية ١٢٤٥م أراد الصالح إسماعيل أن يستفز معين الدين بن شيخ الشيوخ فبعث إليه بسجادة وإبريق وعكاز ^(٤)، وقال له: " اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك ". فلما وصل ذلك إلى معين الدين رد على الصالح إسماعيل بجواب مفحم بعد أن جهز له جنكا وزمرا وغلالة حرير ^(٥)، وقال: " السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي،

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٩.

(٢) من أحياء دمشق الخارجية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٢، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٧٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٧، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥ النعيمى، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٤) السجاد والابريق والعكاز هي ادوات الانقطاع للعبادة والزهد والتصوف، انظر ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٧، حاشية ٥.

(٥) الجنك: بكسر أوله وسكون ثانيه المشتغل بالرقص والغناء والطرب، أو هي من أدوات الغناء والطرب، والغلالة: قميص يرتديه الرجال والنساء، ابن ابيك، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٥٥، حاشية ٤.

وأنت أولى بالجنك والزمز والغلالة"^(١) وكان قد عرف عن الصالح إسماعيل ميله إلى مجالس الطرب والشراب.

استمر معين الدين ومعه الخوارزمية في محاصرة دمشق فخاف الصالح إسماعيل من تدهور الوضع وانقلاب الموازين وفي المقابل نجد الخليفة المستعصم يبعث رسوله محي الدين بن الجوزي^(٢) إلى الصالح أيوب ومعه خلعة "وهي عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان وطوق ذهب وعلمان حرير وحصان وترس ذهب" ولبس الصالح أيوب الخلعة كما هي العادة، وكان الخليفة يقره على أخذ دمشق من الصالح إسماعيل^(٣). ويتضح لنا من خلال ذلك إطلاع الخليفة على بواطن الأمور إذ كان يدرك غيرة الصالح أيوب وأنه الشخص المناسب في المكان المناسب. بالإضافة إلى إدراكه للخطر المغولي، وفي المقابل لم يجاهر بمعاداة الصالح إسماعيل منعاً لتوسيع دائرة الصراع.

على أن الوضع في دمشق كان ينذر بزوال ملك الصالح إسماعيل على اثر الإنشطار والانشقاق الذي حدث بين حاشيته، فقد فسدت النية بين قاضي دمشق رفيع الدين^(٤)

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٥٢ المقرئ، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٩، ابن ابيك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص١٩٧، النعمي، المدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) محي الدين بن الجوزي صاحب العلامة سفير الخلافة أبوالمحسن يوسف بن الشيخ أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي الحنبلي، استاذ دار المستعصم بالله ولد سنة ٥٠٨هـ وقتل سنة ٦٥٦هـ، انظر الذهبي، العبر، ج٣، ص ٢٨٥.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٩.

(٤) الرفيع الحنبلي قاضي القضاة بدمشق أبو حامد عبدالعزيز بن عبدالواحد بن إسماعيل احد قضاة الجور، كان متكلماً بارعاً في العقليات والفلسفة رقيق الديانة قبض عليه في آخر سنة إحدى وأربعين، ثم بعث مع من رماه في هوة بأرض البقاع، انظر الذهبي، العبر، ج٣، ص ٢٤٣.

ووزير الصالح إسماعيل أمين الدولة^(١)، وكان الأخير يشتغل عليه بعلم الطب وغيره، وهو الذي سعى في تقليده منصب القضاء في دمشق علماً بأن رفيع الدين قد سار في القضاء سيرة سيئة جداً، فقد لجأ إلى ظلم الرعية والحكم عليهم بالجور حتى يتقرب إلى الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة^(٢)، وكان هذا القاضي يطمع في أن يرتقى منصب الوزارة فرفع إلى الصالح إسماعيل مطالعة يريد بها تشويه سمعة أمين الدولة عنده، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن احضر أمين الدولة واطلعه على الأمر وكان الصالح إسماعيل يثق في أمين الدولة ويرجع إليه في كل أموره حتى أن سبط ابن الجوزي يعلق على ذلك بقوله " وكان الله تعالى قد سخر إسماعيل للسامري فلو قال له مت لقال لداعي الموت أهلاً ومرحباً ليكون سبب هلاكه " وأنكر أمين الدولة ما تقدم به القاضي ولكي ينتقم من القاضي اطلع الصالح إسماعيل على " ما يعتمد الرفيع من الظلم والعسف والجور في الأحكام وأشياء أخرى قبيحة يعتمدها في نفسه " وأشار على الصالح إسماعيل بعزله ليظهر للناس أن ما كان يصدر عن القاضي ليس بأمر منه.^(٣)

وكيفما كان الأمر فإن ابن الشيخ زحف بقواته على دمشق من كل ناحية، واستخدموا المنجنيقات في ضرب المدينة ورموا النيران في قصر حجاج، فرد الصالح إسماعيل على ذلك بأن أحرق جوسق قصر والده وامتد الحريق من زقاق الرمان حتى العقبية، وقطعت الأنهار الداخلة إلى دمشق، فاشتد الكرب على أهل

(١) أمين الدولة الوزير أبو الحسن الطيب، كان سامرياً بعلبك، فأسلم في الظاهر والله أعلم بسريره، ونفق على الصالح إسماعيل، حتى وزر له، وكان ظالماً نجساً ماكراً داهية، أخذ من دمشق بعد حصار الخوارزمية وسجن بقلعة مصر وشنق هناك، انظر النهي، العبر، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٤٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٤٢.

دمشق وعظم الخطب وهلك كثير من الناس موتاً^(١) وجوعاً وتغيرت رائحة البلد من كثر الموتى وارتفعت الأسعار وقلت الأقوات حتى بلغت " غرارة القمح ألف وست مائة درهم وبيع اللحم بتسعة دراهم " وانعدم الأمن داخل البلد فانتشرت أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض وغيرها من الأمور البشعة التي يندى لها الجبين^(٢)، ويورد سبط ابن الجوزي مثلاً عل تلك الفضائح التي جرت داخل مدينة دمشق فيذكر " أن رجلاً كان له عشر بنات أبكار فقال لهن: اخرجن فقلن لا والله الحريق أولى من الفضيحة فاحترقت الدار واحترقن ولم يخرجن^(٣) وهذه الرواية تدل على ما وصلت إليه الحال من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض في المدينة.

ورغم هذه المصائب وذلك الضيق الذي أصاب سكان دمشق فإن الخمور والفاحشة والمكوس كانت منتشرة في دمشق^(٤) فتحققت فيهم السنة الربانية التي تصيب من يجاهر بالمعاصي قال الله تعالى ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾^(٥) وقال تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾^(٦)

واستمر الحصار بضعة أشهر، حتى فكر المنصور إبراهيم صاحب حمص بعد أن

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٢، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٤، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٢-١١٣، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٩٧-١٩٨، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٧-١٧٨، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٦.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٥٢.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٧٨، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١١٣.

(٥) سورة الانفال، آية ١٣١.

(٦) سورة هود، آية ١١٧.

طفع به الكيل من تصرفات الصالح إسماعيل، أن يسلم دمشق إلى الخوارزمية من باب شرقي " نكاية في الملك الصالح إسماعيل " ولكنه عدل عن هذا العزم حماية للمسلمين من شر الخوارزمية.^(١)

وبعد فترة وجيزة شعر الصالح إسماعيل والمنصور ومن معهم من العساكر داخل دمشق بعجزهم عن الصمود أمام عساكر مصر والخوارزمية لكثرتها وقلة عدد العساكر الموجودة داخل المدينة إضافة إلى نفاذ ما بقلعة دمشق من الذخائر والمؤن، فضلاً عن تخلى الحلبيين عنهم في هذه الساعة الحرجة بالنسبة لهم، ولم يكن هناك من الملوك من يستطيع تقديم المساعدة لهم، فالناصر داود كسرت شوكته مباشرة بعد موقعة غزة، والخليفة العباسي لم يحاول الإصلاح بينهم وأغلقت الأبواب في وجوههم.^(٢)

عندئذ قرروا طلب الصلح، فخرج المنصور صاحب حمص من دمشق في ربيع الآخر سنة ٦٤٣ هـ سبتمبر ١٢٤٥ م إلى خارج المدينة واجتمع بزعيم الخوارزمية بركة خان واستبشر الناس خيراً باجتماعهما وعاد المنصور إلى دمشق، حيث اطلع الصالح إسماعيل على نتيجة المفاوضات، ويبدو أنه أقنعه من خلال إطلاعه على قوة العساكر المحاصرة لدمشق وعزمها على فتح المدينة بأنه لا جدوى من المقاومة.^(٣)

وفوض الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة السامري بترتيب إجراءات الصلح مع معين الدين بن الشيخ، ولكي يأمن السامري على نفسه عندما يخرج للمفاوضات مع ابن الشيخ أرسل إليه يطلب منه ملابس " فبعث له فرجية وعمامة وقميصاً

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٦.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٩٨، على عوده، المرجع السابق، ص ١٧٦-١٧٧.

ومنديلاً" فلبسها السامري وخرج من دمشق ليلاً وتقابل مع معين الدين ابن الشيخ وتحدث معه في تقرير قواعد الصلح بين الطرفين ويبدوا أن السامري أراد إطلاع الصالح إسماعيل على نتائج المفاوضات فرجع إلى دمشق ثم خرج منها مرة أخرى للتوقيع على ذلك.^(١)

وكان مما قرر في ذلك أن تسلم دمشق لابن الشيخ في مقابل أن يخرج منها الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص مع أتباعهم دون التعرض لشيء من أموالهم وكل ما يتعلق بهم، وأن يعطى الصالح إسماعيل كل ما كان له من قبل وهي بعلبك وأعمالها وبصرى وأعمالها وجميع بلاد السواد الواقعة نواحي البلقاء، وأن يكون للمنصور مملكة حمص وتدمر، والرحبة، وحلف معين الدين ابن الشيخ على ذلك، وغادر الصالح إسماعيل والمنصور دمشق على إثر ذلك.^(٢)

ودخل معين الدين بن الشيخ بقواته إلى دمشق يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ أكتوبر ١٢٤٥م ونزل بدار أسامة، وكان أول قرار اتخذه هو منع الخوارزمية من الدخول لدمشق لكي لا يزيد الأمر سوء فهو لا يضمن تعفّفهم عن القتل والسلب والنهب فهي عاداتهم في كل البلدان التي يدخلونها ولكي يأمن غدرهم بادر بمكافئتهم على مساندتهم له في الحصار وأصدر مناشير بذلك أقطع فيها " ملوك الخوارزمية وأمراءهم من بلاد الشام والساحل".^(٣) وبعد الاستيلاء على دمشق مباشرة وصل إلى معين الدين بن الشيخ أمر من الصالح أيوب بأن لا يعطى

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٣، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، ابن كثير، البداية النهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٦٠، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٥٨، على عوده، المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٣) المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٣.

عمه الصالح إسماعيل الآمان ويلقى القبض عليه ويرسله إلى مصر ولكن ذلك لم يأت إلا بعد فوات الأوان إذ أن الصالح إسماعيل كان قد خرج من دمشق وتسلم بعلبك فلما بلغ الصالح أيوب ذلك أنكر على قائده معين الدين بن الشيخ إطلاق سراح عمه الصالح إسماعيل " وتمكينه من ذهابه سالماً بحشاشة^(١) نفسه، فإنه كان لا يرى إلا إعدامه حنقاً عليه بسبب اتهامه بقتل ولده ولما بدا منه في حقه^(٢) ".

وذكر المقرئ أن الإنكار لم يقتصر فقط على معين الدين في إطلاق سراح الصالح إسماعيل بل وجه إنكاره إلى الطوشي شهاب الدين وبقية الأمراء وقال لهم: " أن معين الدين حلف له، وأما انتم فما حلفتكم " ثم أمر الصالح أيوب بإرسال الركن الهيجاوى والوزير أمين الدولة السامري تحت الحوطة إلى مصر، فأرسلا إلى مصر حيث جرى اعتقالهما بقلعة الجبل^(٣).

ثم اخذ معين الدين بعد دخوله إلى دمشق بتنظيم شئونها واسند الوظائف الهامة إلى رجال يثق بهم فكلف الشهاب رشيد بدخول القلعة، وولى ابن الشيخ الجمال هارون المدينة وصدر الدين بن الدولة قاضي القضاة واستتاب العزيز السنجاري والكمال التفليس وعزل القاضي محي الدين بن الزكي، ولما دخلت دمشق تحت حكم الصالح أيوب وأصبحت سيطرته على الشام قاب قوسين بادر بعض القادة بالانضمام إليه فانفصل سيف الدين بن قلع عن الناصر داود وسار من عجلون إلى دمشق معلناً دخوله في طاعة الصالح أيوب " وأوصى بعجلون وماله للصالح أيوب

(١) الحشاشة: بقية الروح في المريض، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ١٧٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٧.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، وانظر ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤.

ونزل بدار فلوس".^(١)

أقام معين الدين نائباً عن السلطان الصالح أيوب في دمشق وبعد فترة وجيزة مرض ابن الشيخ وتوفي في رمضان سنة ٦٤٣هـ / فبراير ١٢٤٦م فأرسل الصالح أيوب إلى قائده حسام الدين بن أبي علي الهذباني " يأمره بالتوجه إلى دمشق متولياً لها"، فسار إليها نائباً عن السلطان بها، كما قرر في ولاية قلعة دمشق الطواشي شهاب الدين الكبير، وتعاون القائدان في إدارة الحكم في دمشق حيث " يجتمعان كل يوم ويتفقان على مصالح الدولة".^(٢)

(١) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٣، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٩٨، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٠، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١-٣٢٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٧-١٧٨.

خروج الخوارزمية عن طاعة الصالح أيوب وتحالفهم

مع أعدائه

وبعد دخول جيش الصالح أيوب إلى دمشق أراد الخوارزمية أن يتقاضوا ثمن خدماتهم التي قدموها للصالح أيوب، فلقد ساعدوه في هزيمة الصليبيين وإذلال أمراء البيت الأيوبي واسترداد دمشق لاسيما وأنهم كانوا سبباً في إنقاذه في المرة الأولى من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل عندما حاصره بسنجار، فظنوا أنهم استحقوا بخدماتهم تلك " أن يقاسمهم البلاد، ويمكنهم من الاستيلاء على أكثرها " وأنه يكون لهم أخباز عظيمة بالديار المصرية^(١).

ولم يكن الصالح أيوب يرى أن يمكنهم من البلاد والعباد ولم يسمح لهم بالمسير إليه والدخول إلى مصر، بل نجد الصالح أيوب يشدد في ردعهم عن مزاوله أعمالهم العدوانية ضد المسلمين، إذ أنه لما كثر فساد الخوارزمية وانتهاكاتهم اللامحدودة بأعمال وقرى دمشق كتب ابن الشيخ فيهم تقريراً وأرسله إلى الصالح أيوب في مصر فما كان من الصالح إلا أن " كتب إليه بردهم فتمروا عليه^(٢) .
على أن قائد قوات الصالح أيوب المقيم بدمشق حاول إرضاءهم فأقطعهم ساحل الشام " بمناشير كتبها لهم"^(٣)، ويبدوا أنهم كانوا يرون أن تلك القسمة

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٤٩-٣٥٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٦، الخطيب العمري، الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٦٠. والأخباز هنا تعني الإقطاعات.

(٢) ابن أيك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٨.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢١.

كانت مجحفة بالنسبة لهم بسبب وقوع كثير من مدن ساحل الشام المهمة تحت سيطرة الصليبيين وهذا الأمر سوف يؤدي إلى دخولهم في صراع مستمر معهم حول تلك الإقطاعات، فوقع الخلاف نتيجة لذلك بينهم وبين الصالح أيوب " ونفرت نياتهم وفسدت واتفقت كلمتهم على الخروج عليه".^(١)

وكان أول عمل انتقامي قاموا به ضد الصالح أيوب هو الهجوم على داريا وهي إحدى قرى دمشق فنهبوا سكانها أتلّفوا ما كان بها، ثم سارعوا بالانسحاب إلى الشرق لإعداد العدة وتجميع الحلفاء ضد الصالح أيوب^(٢) وكان يلي غزوة من قبل الصالح أيوب الأمير ركن الدين بيبرس الصالحي^(٣) وهو أكبر قادته، فوجد الخوارزمية أن تلك فرصة سانحة لتأليب هذا القائد على سيده، فراسلوه وعرضوا عليه أن يتفق معهم وأن يكونوا يداً واحدة وأن يزوجه امرأة منهم، ويدّوا أنه استجاب لهم وعزم على الانفصال عن طاعة سيده، غير أن الصالح أيوب عندما بلغه ذلك خاف من عاقبة الأمر فاستدّرج قائده واستدعاه إلى مصر فقدم عليه واعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به.^(٤)

لم يلتفت الخوارزمية إلى ما قام به الصالح أيوب من استدراج قائده إلى مصر إذ

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٨.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٣، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٠٥-١٠٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٤، المختار من تاريخ ابن الحزري، ص ١٩٨.

(٣) هو غير السلطان المشهور بيبرس البندقداري، ولا يتعدى الأمر بين الرجلين أكثر من اتفاقهما في الاسم والشهرة، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٤٠، حاشية ١٠.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٠، المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٨.

أنهم كانوا يدركون طبيعة الوضع في بلاد الشام فلن يعجزوا عن إيجاد البديل
فخصوم الصالح أيوب وكثيرون في المنطقة فمنهم الناصر داود صاحب الكرك
والصالح إسماعيل صاحب دمشق والحليين والمنصور إبراهيم صاحب حمص،
فكل واحد من هؤلاء يتطلع إلى اليوم الذي ينتقم فيه من صاحب مصر.^(١)

وقد وجد الخوارزمية ضالتهم في الناصر داود صاحب الكرك وكانت أمه
خوارزمية فاستمالوه وحسنوا له الانضمام إليهم ضد الصالح أيوب، فما كان منه إلا
أن استجاب لهم وسار إليهم ليعزز ذلك الأمر فاجتمع بقادتهم واتفق معهم على
مهاجمة دمشق ولتوثيق عرى ذلك الاتفاق عمد الخوارزمية إلى تزويجه منهم غير
أنه لم يبق معهم بل رجع إلى الكرك محاولاً إعداد العدة واستثمار ذلك الاتفاق
لاسترجاع جميع البلاد التي خرجت من يده بعد موقعة غزة على يد قوات الصالح
أيوب، وفعلاً تحركت قواته من الكرك وتمكنت من استرجاع نابلس والقدس
والخليل وبيت جبريل والأغوار وغيرها، وعين ولاية عليها من قبله بعد طرده ولاية
الصالح أيوب.^(٢)

ولم يكتف الخوارزمية بانضمام الناصر داود إليهم بل سعوا في إدخال الصالح
إسماعيل في هذا الحلف، فراسلوه وطلبوا منه الانضمام إليهم ولأنهم كانوا يعلمون
أنه ربما لا يوافقهم لخوفه منهم أعطوه اليمين على ذلك، فاطمئن إليهم وقدم عليهم
وصاروا معه " واتفقت كلمة الجميع على محاربة السلطان الملك الصالح نجم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، ابن
تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٠، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢،
ص ٣٢٢، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٦-٣٧٧، ابن تغري بردي، المصدر
السابق، ج ٦، ص ٣٢٤-٣٢٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٨-١٧٩.

ويذكر البعض الآخر من المؤرخين أن الخوارزمية لم ترسل الصالح إسماعيل بل تذكر أن هذا الأخير عندما بلغه إنكار الصالح أيوب صاحب مصر على قاداته لأنهم لم يحتاطوا عليه خاف على نفسه وراسل عز الدين صاحب صرخد وقادة الخوارزمية واتفقت كلمة الجميع على محاربة قوات الصالح أيوب المقيمة بدمشق (٢) وهذا ما نميل إليه إذ يتفق مع المنطق حيث أن الصالح إسماعيل يتوقع بين لحظة وأخرى أن يقبض عليه الصالح نجم الدين أيوب ويقتله ثاراً لولده الذي مات في سجن الصالح إسماعيل.

ولما بلغ الصالح أيوب اتفاق كلمة الجميع عليه خرج بقواته من القاهرة وعسكر بالعباسة وأقام بها ولكي يفسد على قوات التحالف أمرهم حاول أن يضيف على حكمه نوعاً من الشرعية فأرسل القاضي عز الدين عبد الرحمن بن عبد العزيز إلى الخليفة العباسي في بغداد " يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق، والتشريف الأمامي " فاستجاب له الخليفة العباسي وسير مع رسول الصالح أيوب رسولا كبيراً من الديوان ومعه التشريف والطوق والمركوب، وحضر رسول الخليفة إلى الصالح أيوب وهو معسكر في العباسية ودخل الدهليز السلطاني وكان ابن واصل حاضراً وقرأء التقليد على الناس، ثم لبس الصالح أيوب التشريف وركب المركوب وكان يوماً مشهوداً، ويبدو أن الصالح أيوب خاف من حدوث انقلاب داخلي عليه بسبب فرض الإقامة الجبرية على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥١، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٩٨، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٧، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٩.

(٢) المقرئزي، السلوك، ١، ق ٢، ص ٣٥٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤.

فبادر بإطلاق سراحه وخلع عليه " وأمره وقدمه وأحسن إليه إحساناً كثيراً" ^(١)

تقدمت الخوارزمية ومن انضم إليهم من أهل الشام وعلى رأسهم الصالح إسماعيل إلى دمشق، وفرضوا عليها حصاراً شديداً في ذي القعدة سنة ٦٤٣هـ/أبريل ١٢٤٦م، وأظهر حسام الدين بن أبي علي نائب الصالح أيوب في دمشق مقاومة صلبة، وتمكن من حفظ المدينة بعد أن حصن أبوابها وأسوارها بالرجال والمقاتلة، وأشرف على ذلك بنفسه ليلاً ونهاراً وجهز المدينة لمقاومة الحصار. ^(٢)

وشدد الخوارزمية ومن معهم الحصار على المدينة، وكان حصاراً محكماً حرم المدينة من جميع الإمدادات التي تصل إليها حتى قاسى السكان من ذلك ولقوا من العنت والضيق والغلاء والجوع والوباء مالا يوصف، ولقد وصف المؤرخون الشدة التي قاستها دمشق بأنها " لم يسمع بمثليها" ^(٣)

وانتشرت المجاعة داخل مدينة دمشق فاضطر الناس إلى أكل الميتات والدم وإلقطط والكلاب ومات كثير من الناس على الطرقات وانتشرت الروائح الكريهة داخل المدينة " فكان الإنسان إذا مر بالجبل وشم روائح الناس مرض ومات"

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥١-٣٥٢، النهي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ٢١٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٢، المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٥١، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج ٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٣، المقريزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤، ابن الوردي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥١، أبو الفداء، التبر المسبوك، حوادث سنة ٦٤٣.

وضجر من بقى من السكان من تغسيل ودفن موتاهم ولجأوا إلى حفر الآبار ورمى الجثث بها^(١)، وهكذا عانت كل مدن الشام من آثار الاختلاف والشقاق بين أمراء البيت الأيوبي وتعطل النمو الطبيعي والتقدم الحضاري في بلاد الشام والجزيرة. ومع هذه الشدة وذلك الضيق والجوع الذي كان يعاني منه سكان دمشق فإن المعاصي والمنكرات كانت منتشرة داخل المدينة وبين الأهالي فكانت الخمر دائرة والفسق ظاهر والمكوس بحالها^(٢) ويبدو أن الفساد السياسي أدى إلى فساد في عقائد الناس وسلوكياتهم وأخلاقهم وأنسأهم الرجوع إلى الله فأنسأهم الله وعاقبهم على جرمهم إذ لم يعتبروا بما حاق بهم في المرة الأولى عندما حاصرهم جيش الصالح أيوب، بل أصروا على تلك المعاصي قال تعالى ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾^(٣).

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٥٤، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٩٨-١٩٩، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٥٤، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٢، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ١٩٩، العبر، ج ٣، ص ٢٤٤ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٣، ص ١٧٨.

(٣) سورة الاعراف، آية ٩٦-٩٩.

انتصار قوات الصالح أيوب على الخوارزمية

ونتيجة للحصار الشديد الذي فرضه الخوارزمية والصالح إسماعيل على دمشق أرسل حسام الدين ابن أبي علي الهذباني إلى سيده الصالح أيوب يطلب منه إرسال نجدة لفك الحصار عن المدينة، وكان الضرر قد لحق بالبلاد والعباد من جراء الأفعال التي قام بها الخوارزمية ويصور المقرئ ذلك فيقول " فيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهيمهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمان".^(١)

عندئذ أخذ الصالح أيوب يعمل على تفريق الحلف السابق لموقعة غزة والذي تم بين الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص والحليين والناصر داود، واستطاع أن ينجح في ذلك، فقد أخذ في أعمال الحيل والتدابير مع المنصور صاحب حمص واستمر معه في ذلك حتى تمكن من ضمه إلى صفه، ثم أرسل إلى الحليين وشرح لهم خطورة بقاء الخوارزمية في البلاد وقال لهم إن " هؤلاء الخوارزمية قد اخرجوا البلاد والمصلحة أن نتفق عليهم " فما كان من الحليين وهم الذين سبق وأن تضرروا من الخوارزمية إلا أن استجابوا لدعوة الصالح أيوب^(٢) واتفقت كلمة الجميع على حرب " الخوارزمية وطردهم من البلاد"^(٣)

وشرع المنصور إبراهيم صاحب حمص في جمع الجيوش من العرب والتركمان وغيرهم لإنقاذ دمشق من الخوارزمية وخرج نائب حلب شمس الدين لؤلؤ بقواته

(١) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٤.

(٢) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦٠، المقرئ، المصدر السابق، ج ١،

ق ٢، ص ٣٢٣، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٩، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢٠١،

النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٣.

وانضم إلى عسكر المنصور، فسمعت الخوارزمية بتلك التحركات والاستعدادات من قبل المنصور وقوات حلب وأنهم عازمون على قصدهم، فقررُوا فك الحصار عن دمشق والرحيل لملاقاة هذا الحلف الجديد والقضاء عليهم قبل أن تكتمل استعداداتهم، وعبر بركة خان عن ذلك بقوله " دمشق لا تفوتنا والمصلحة أن نسير إليهم".^(١)

فك الخوارزمية حصار دمشق، وكان ذلك سبباً في تخفيف وطأة الخناق عن دمشق، وساروا باتجاه حمص وتم خلال ذلك تجديد الحلف بين الخوارزمية والصالح إسماعيل والناصر داود وعز الدين ايبك صاحب صرخد واجتمعوا على مرج الصفر باستثناء الناصر داود الذي بقي في الكرك واكتفى بإرسال فرقة عسكرية لمساندة الخوارزمية، ثم خرجت حامية دمشق في إثرهم ولحقت بالمنصور.^(٢)

وفي المحرم من سنة ٦٤٤هـ/ مايو ١٢٤٦م تقابل الفريقان على القصب وهي منزلة قبلي حمص علي مرحلة منها وقيل إنهم تقابلوا على بحيرة حمص ودارت بينهم رحي معركة عنيفة انتهت بهزيمة الخوارزمية وحلفائهم " هزيمة قبيحة" وقتل الكثير منهم، وكانت قاصمة الظهر بالنسبة للخوارزمية حيث تبدد شملهم، وتفرقوا " شذر مذر" وانقطع دابرهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة^(٣)، ولم يؤد الخوارزمية والصالح إسماعيل بعد ذلك دوراً هاماً في السياسة

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٤، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢٠١، النعمي، المدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٢-٣٥٤، الذهبي، المصدر السابق، ص ٢٠١، النعمي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق ج ٥ ص ٣٥٩، ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٨١٠، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٩،

ولعل أكبر سبب ساعد على القضاء على الخوارزمية هو مقتل زعيمهم بركة خان ويتضح ذلك فيما أورده سبط ابن الجوزي إذ يقول " حكى لي شمس الدين لؤلؤ لما أخذوا دمشق في سنة ثمان وأربعين وستمائة وكان يزورني فزارني يوماً فحكى حديث بركة خان قال: لما التقينا على حمص رأيتهم خلقاً عظيماً نحن بالنسبة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض، فقال لي غلماني أيما أحب إليك نأخذ بركة خان أسيراً أو نحمل رأسه إليك قال: فقلت رأسه كأن الله أنطقني والتقينا، فلما كان بعد ساعة وإذا بواحد من أصحابنا يحمل رأساً مليح الصور وليس في وجهه سوى شعرات يسيرة ولم يعرفه ولا نحن وانهزموا، وجئ بطائفة منهم أسارى فلما رأوا الرأس رموا نفوسهم وبكوا.... يقول فعلمنا حينئذ أنه رأسه فبعثنا به إلى حلب".^(٢)

وعلى أية حال فإن الله سبحانه وتعالى كفى الناس شرهم " فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم من النهب والسلب وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات " وتفرقت جموعهم فذهب جماعة منهم إلى المغول وانضموا إليهم وعلى رأسهم كشلوخان وجماعة أخرى ذهبوا إلى مصر، وفلول أخرى تفرقت في بلاد الشام لخدمة ملوكها^(٣) ولا غرابة في ذلك فلقد عاشوا طوال عمرهم تحكمهم روح البدواة والقسوة وعدم التحضر فاضعفوا العالم الإسلامي بكثرة غاراتهم طوال عهدهم

أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٢٧٧، النهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٩، النعيمي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ن ج ٨، ص ٣٦٥-٣٦٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٥٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨٠.

وتركوا مهمتهم الأساسية وهي حماية السور الشرقي للدولة الإسلامية.

وكان لهذا النصر وقعه الكبير على الصالح أيوب، فما أن وصلت البشائر بذلك حتى أمر بتزين مصر وقلعة الجبل وقلعة الجزيرة، كما كان لهذا النصر نتائجه الإيجابية في تحسين العلاقات بين الصالح أيوب صاحب مصر والمنصور إبراهيم صاحب حمص - أعداء الأمس - " وحصل بينهما التصافي والتواد"، وكذلك تحسنت العلاقة بين الصالح أيوب والحليين أعداء الأمس أيضاً " واتفقت كلمة الجميع".^(١)

أما الصالح إسماعيل وعز الدين أيك ومن سلم من العسكر فقد هربوا بعد الهزيمة مباشرة عرايا جياعا بعد أن نهبت أموالهم وساروا إلى حوران وسار صاحب حمص في أثرهم فوصل إلى بعلبك واستولى على الرض وسلمه لبعض نواب الصالح أيوب ثم عادوا إلى حمص بعد أن ودع الحليين^(٢) وخشي الصالح إسماعيل بعد ذلك من التوجه إلى بعلبك، خوفاً من إرسال جيش من قبل الصالح أيوب فيحاصره بها ويقع في قبضته فينتقم منه لاعتقاده بأنه قاتل ولده الملك المغيث، فلجأ الصالح إسماعيل إلى الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب فأواه وأكرمه واحترمه وكان معه جماعة من الخوارزمية تم إلقاء القبض عليهم وأودعوا السجون^(٣)

كان الصالح أيوب يظن أن صاحب حلب لن يتأخر في تسليم الصالح إسماعيل إليه بعد الاتفاق الذي حصل بينهما، فأرسل كاتبه بهاء الدين زهير إلى الناصر

(١) ابن واصل، مفرج الكروب ج ٥، ص ٣٦١، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٤.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦٠، ابن أيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٨، الذهبي،

المختار من تاريخ ابن الجوزى، ص ٢٠٢، النعمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦٠-٣٦١، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢،

ص ٣٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٩، أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٧.

صاحب حلب يطلب منه تسليم عمه الصالح إسماعيل إليه ولكن الناصر لم يستحسن ذلك وقال لرسول الصالح أيوب " كيف يحسن بي أن يلتجئ إلى خال أبي وهو كبير البيت وأسيره إلى من يقتله، وليس من المرؤة إذا استجار إنسان بإنسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه، هذا شيء لا يكون أبداً " وبالرغم من أن رفض الناصر صاحب حلب قبول بعدم ارتياح من قبل الصالح أيوب إلا أنه سكت على ذلك ولم يلجأ إلى قطع العلاقات معه تقديراً لموقفه معه في مناصرته ضد أعدائه.^(١)

ولكنه قرر تجريد عمه الصالح إسماعيل من جميع ممتلكاته في بلاد الشام فأصدر أوامره إلى حسام الدين بن أبي علي نائبه على دمشق بالتوجه إلى بعلبك والاستيلاء عليها، فتوجه إليها حسام الدين في رجب سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م وحاصر قلعتها وضيق عليهم الخناق حتى اضطر المنصور نور الدين ابن الصالح إسماعيل إلى تسليم بعلبك وبلادها إلى حسام الدين الذي قام بترتيب أمورها وجعل فيها والياً، وعاد إلى دمشق ومعه أولاد الصالح إسماعيل حيث اعتقلهم فترة ثم سيرهم إلى الصالح أيوب في مصر^(٢) الذي قام باعتقالهم في قلعة القاهرة " وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن وقعاً من أخذ دمشق، حنقاً منه على عمه الصالح إسماعيل " لذلك زينت القاهرة ومصر لفتحها.^(٣)

على أن الوضع لم يستتب بعد للصالح أيوب لوجود الناصر داود وبعض فلول الخوارج في بلاد الشام الذين انساقوا بعد هزيمتهم قرب حمص إلى بيت

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٦٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٤، أبو البركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦١-٣٦٢، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦١، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦٢، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٤.

المقدس والساحل " وعاثوا فيها وأخربوها" ^(١) ثم نزلوا في البلقاء، وأرسل إليهم الناصر داود صاحب الكرك يطلب منهم الدخول في خدمته فاستجابوا له وانعم عليهم وأكرمهم وتزوج منهم وأرسل عائلاتهم إلى قلعة الصلت وسار إليهم واجتمع بهم "وقويت شوكته يأتينهم إليه" وأصبحت تطمح نفسه إلى استعادة ملك أبيه وانضم إليهم عز الدين اييك صاحب صرخد وساروا إلى نابلس واستولوا عليها. ^(٢)

سمع الصالح أيوب بالتحركات الجديدة التي قام بها الناصر داود وعز الدين اييك والخوارزمية فخشي من تطور الأوضاع في بلاد الشام وتغير الموازين، وبادر بإعداد جيش كبير اسند قيادته إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ وأوكل إليهم مهمة قتالهم وطردهم من البلاد، وسار ابن الشيخ بهذا الجيش متجهاً إلى الشام، فلما سمعت الخوارزمية بوصوله إلى غزة انسحبوا من نابلس إلى الصلت واجتمعوا بقوات الناصر داود وعز الدين اييك، فسار إليهم ابن الشيخ بمن معه من العساكر والتقى الجمعان على الصلت في ربيع الآخر سنة ٦٤٤ هـ / سبتمبر ١٢٤٦ م وتمكن ابن الشيخ من إنزال الهزيمة الساحقة بهم وفرق شملهم ^(٣) واستولى ابن الشيخ على ما كان بيد الناصر داود من البلاد وهي بيت المقدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء وولى فيها نوابا من قبله. ^(٤)

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦١، ابن اييك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٥٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٥، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢٠٢، النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٥، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٩.

(٣) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٦١، ابن اييك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٥٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٥، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٥٠، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢١٢، النعمي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٦٤.

أما الناصر داود فإنه عاد مسرعاً إلى الكرك وتحصن فيها ولحقت به فلول الخوارزمية ولم يمكنهم من دخول القلعة ولا الربض، كما رجع عز الدين إيك إلى صرخد وتحصن بها، وتوجه ابن الشيخ بعساكره إلى الكرك^(١) " فخرّب ما كان حولها من الضياع وأضعفها إضعافاً شديداً"، ثم شدد الحصار حول قلعة الكرك لكنه لم يستطع دخولها لحصانتها ومناعة أسوارها، ومع ذلك فإن الناصر داود عندما ضيق ابن الشيخ عليه الخناق أرسل إلى ابن عمه الصالح أيوب قصيدة يعاتبه فيها ويذكره بالجميل الذي قدمه له عندما حماه من أخيه العادل وعمه الصالح إسماعيل وساعده في تملك الديار المصرية كما يذكره بصلة الرحم التي قطعها.^(٢)

واصل ابن الشيخ حصاره للكرك وفي المقابل أصر الناصر داود على عدم التسليم وأرسل إلى ابن الشيخ يقول: -

صدور على قيس لخفر جواده لأمنع عرضي إن عرضي ممنوع

وكان يوجد عند الناصر غلام مستحسن من الخوارزمية يقال له طاش بورك ابن خان، أرسل إليه ابن الشيخ في طلبه إلا أن الناصر رفض ذلك وقال " هذا صوته طيب قد أخذته ليقراً عندي القرآن"، فغضب ابن الشيخ وكتب إليه كتاباً شديداً اللهجة يذكره بغدره وخبثه وإيمانه وانشده " لأبذل عرضي إن عرض مقطوع " وأصر على قدوم الغلام ووعدته أن يبعث له في المقابل بشيخ أعمى يجيد قراءة القرآن

(١) سبط ابن الجوزي، مراة الزمان، ج٨، ص٧٦١، ابن إيك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٩.

(٢) ومن أبياتها: -

قولوا لمن قاسمته ملك اليد	ونهبضت فيه نهضة المستأسد
عمى أبوك ووالدي عم به	يعلو انتسابك كل ملك أصيد
ورثا الحماسة والسماحة عن أب	وراد حرب مورد للمعتدى
ثم يقول له: -	

لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً	وترد شمل البيت غير مبدد
كيلا ترى الأيام فينا فرصة	للخارجين وضحكة للحسد

انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦٤-٣٦٥.

أحسن منه، ويدّوا أن الناصر داود خاف من ذلك التهديد فأرسل إليه ذلك الغلام^(١)، كما أرسل إليه من عنده من الخوارزمية وفك ابن الشيخ بعد ذلك الحصار عن المدينة ورحل عنها، وحتى لا يخسر ابن الشيخ الخوارزمية ويأمن شرهم قام " وخلق عليهم وطيب قلوبهم واستصحبهم صحبتته"، وتوجه بهم إلى قلعة بصرى وحاصرها وشدّد في مضايقتها حتى كادت تسقط في يده لولا مرضه عليها ولما اشتد به المرض تم نقله في محفة إلى القاهرة، وبقي العسكر محاصرين لها حتى تم فتحها وتسلمها نواب الصالح أيوب.^(٢)

ويذكر أحد المؤرخين أن أوضاع بلاد الشرق الفراتية لم تكن في هذه الفترة بأحسن حال منها في بلاد الشام فقد بقيت " ما بين نهب وخراب من بقايا الخوارزمية تارة ومن التار أخرى"، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يعمد إلى إشعال الفتن بينهم متبعاً في ذلك سياسة فرق تسد حتى يأمن على نفسه وبلده منهم.^(٣)

وعلى أية حال فإن الصالح أيوب بعد أن حد من خطورة خصومه في بلاد الشام أراد أن يحقق الوحدة التامة بين مصر والشام حتى يتسنى له الوقوف في وجه أي عدوان خارجي وتطهير بلاد الشام من بقايا الصليبيين، وفي سبيل ذلك أرسل إلى المنصور صاحب حمص يشكره على خدماته الجليلة ويطلب منه القدوم عليه لتوثيق الاتفاق بينهما، واستجاب المنصور لهذه الدعوة فسار إلى دمشق، وقام باستقباله الأمير حسام الدين نائب الصالح أيوب وأحسن في خدمته، فسر المنصور لذلك وقال " والله لا بذلن مهجتي في خدمة السلطان، وأغسل بما أفعله في خدمته من

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦١، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢٠٣.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥، يوسف درويش غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٨٤، نقلاً عن ابن دقماق، نزعة الانام، أحداث سنة ٦٤٤ هـ "مخطوط".

(٣) الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجوزي، ص ٢٠١.

المناصحة كل أمر تقدم من الإساءة " إلا أن المرض نزل بالمنصور فمات ^(١) في صفر سنة ٦٤٤ هـ يونية ١٢٤٦ م وحزن عليه الصالح أيوب وقام بالملك من بعده ابنه الأشرف مظفر الدين موسى. ^(٢)

ثم قرر الصالح أيوب أن يسير إلى بلاد الشام لتفقد أحوالها وترتيب أوضاعها، فتوجه إلى دمشق في شوال سنة ٦٤٤ هـ / مارس ١٢٤٧ م بعد أن استدعى الأمير حسام الدين بن أبي علي من دمشق واستتابه عنه في مصر وفوض إليه التصرف في شؤون الدولة، ووصل الصالح أيوب إلى دمشق في ١٩ ذى القعدة وتم استقباله في المدينة بكل حفاوة وتقدير وزينت المدينة لمقدمه، وكان ممن أحتفل بمقدمه كل من المنصور صاحب حماه والأشرف موسى صاحب حمص اللذان حضرا خصيصاً من أجل ذلك، وكان اليوم الذي دخل فيه الصالح أيوب إلى دمشق "يوماً مشهوداً"، وأحسن إلى أهل دمشق وخلع على أعيانهم، وانفق أربعين ألف درهم على أهل المدارس والربط وأرباب البيوت، ثم ذهب إلى بعلبك وتفقد أحوالها وأمر بتحسين أسوارها وعاد إلى دمشق. ^(٣)

(١) الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص كان ملكاً جليلاً شجاعاً مقداماً ذا همة عالية كسر الخوارزمية في اغلب المواقع التي وقعت بينهم وفرق جمعهم، وكان على خلاف سياسة أبيه في الرعية فإن أباه كان عنده حيف كثير وعسف فخربت بذلك حمص وبلادها وفرق أهلها في البلاد فلما ولى المنصور أحسن إلى الرعية ولطف بهم فعمرت حمص في أيامه وتراجع إليها من نرح من أهلها وبث فيهم العدل واطلق السجناء، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٦٩-٣٧٠، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦٤، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٥، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١١٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٧٢-٣٧٣، سبط بن الجوزي، المصدر السابق، استكمال الحاشية في الصفحة التالية

وأثناء إقامته في بلاد الشام قام بإخضاع بعض الحصون الهامة فتسلم حصن عجلون بعد وفاة صاحبة سيف الدين بن قلج، وأرسل بعض أتباعه إلى صرخد فتقابلا مع عز الدين ايبك وطلب منه التنحي عن صرخد ومازالا به حتى تنازلا عنها للصالح أيوب بعد أن كتب له منشوراً بقرقيسيا والمجدل وضياعاً في الخابور^(١) ثم تسلم حصن الصبية^(٢) من ابن عمه السعيد ابن العزيز بن العادل وأعطاه بدلاً منه إقطاعاً بمصر، ثم قفل الصالح أيوب عائداً إلى مصر في أوائل سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م، وفي طريقه إليها عرج على بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بعمارة أسواره وأمر بصرف خراج بيت المقدس على عمارة أسواره، وإذا حدث نقص طلب له المدد من مصر، وتصدق فيه بألفي دينار وواصل بعد ذلك سيره إلى القاهرة.^(٣)

وبعد القضاء على الخوارزمية وحلفائهم عاود المسلمون جهادهم ضد الصليبيين في بلاد الشام، فقاد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ القوات المصرية ومن انضم إليهم من فلول الخوارزمية واتجه إلى طبرية في صفر سنة ٦٤٥هـ

ج ٨، ص ٧٦٤، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٦، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٧٦. ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٦، ابن ايبك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٠٣-٢٠٤، النعمى، المدارس فى تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٨٥.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٦٣، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٦٣، المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، ص ١٧٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨٢.

(٢) الصبية اسم لقلعة بانياس وهى من الحصون المنيعه، وبانياس بلدة صغيرة تشتهر بأشجار الحمضيات وهى على مسافة مرحلة ونصف من مدينة دمشق، انظر أبو الفدا، تقويم البلدان.

(٣) سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٦٤-٧٦٦، المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٧، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٣٦، الذهبى، العبر، ج ٣، ص ٢٥٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج ٤، ص ١١٢، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٧٩.

١٢٤٧م فحاصرها ودخلها عنوة^(١)، ثم استرد الجيش الإسلامي بقيادة فخر الدين بن الشيخ جبل الطور وحصن شقيف ارنون، فاسترجعوا بذلك البلاد التي كان الصالح إسماعيل قد سلمها للصليبيين عندما أراد مساعدتهم له في حربه ضد الصالح أيوب. ولم يتوقف فخر الدين بن الشيخ عند هذا الحد بل سار بعساكره صوب عسقلان وكانت تحصيناتها قوية كما قدمت إلى المدينة فرقة عسكرية قوية من الاستتارية لحماية المدينة، وطلب أهل المدينة إرسال نجدات لهم من عكا وقبرص فاستجاب الصليبيون لتلك النداءات وأرسلوا أساطيلهم إلى عسقلان^(٢)، ولما استعصت المدينة على الجيش الإسلامي أرسل الصالح أيوب من الإسكندرية ودمياط أسطولاً مؤلفاً من اثنين وعشرين سفينة لإحكام الحصار على عسقلان من جهة البحر التي اتضح أن الأساطيل الإيطالية تقوم بإمداد المدينة بالمؤن والإمدادات^(٣)، وفي نهاية المطاف استطاعت القوات الإسلامية اقتحام عسقلان في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٥هـ/منتصف أكتوبر ١٢٤٧م، وبعد الفتح تقرر تدمير الحصن وتخريب المدينة حتى لا يفكر الصليبيون في العودة إليها مرة أخرى واتخاذها قاعدة للهجوم على المسلمين، واستبشر المسلمون بعودتها وتطهيرها من الصليبيين " وضربت البشائر لهذا الفتح"^(٤)

(١) سبط ابن الجوزي، مراة الزمان، ج ٨، ص ١٨٤، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٦، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي ج ٢، ص ٢٥٥، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٨٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٠٠١.

(٢) رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٩.

(٣) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١٠٠١، نقلاً عن العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٥هـ.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٧٨، وانظر سبط ابن الجوزي، المصنوع السابق، ج ٨، ص ٧٦٦، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٦، أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٨٠.

وعلى الرغم من الانتصارات التي تحققت للصالح أيوب وسيطرته على بلاد مصر وكثير من ممالك الشام فإن الصراع لم ينته بين ما تبقى من الإمارات الأيوبية ففي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م تنازل الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص عن قلعة شمش للصالح أيوب وكان الوسيط في ذلك وزير الأشرف موسى الذي رغب في علو منزلته عند الصالح أيوب، وعندما بلغ ذلك الخبر إلى الناصر صاحب حلب ووزيره الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني خاف من أن يؤدي ذلك إلى طمع الصالح أيوب في الاستيلاء على حلب فقرر الهجوم على حمص وانتزاعها من الأشرف موسى.^(١)

ولما بلغ الصالح أيوب تحركات الحلبيين لقصد حمص أمر قائده فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتوجه إلى الشام على رأس فرقة عسكرية ريثما يلحقه هو ببقية العساكر إلى دمشق، وفي الوقت الذي تحركت فيه الجيوش المصرية إلى الشام تمكن الحلبيون من السيطرة على حمص وتعويض الأشرف عنها بتل باشر، ووصل الصالح أيوب إلى دمشق سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرر ضرورة توجه العساكر إلى حمص لاستردادها، وبعث قائده العام الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لتنفيذ هذه المهمة، ولما وصل إليها ابن الشيخ حاصرها ونصب عليها المنجنيقات، ومن بينها منجنيق ضخيم وزنه مائة وأربعون رطلاً، وكادت حمص تسقط في يد الجيش المصري لولا مرض الصالح أيوب الذي اشتد عليه وكذلك تواتر الأخبار بحركة الصليبيين وعزمهم على قصد مصر، ووجد الصالح أيوب الفرصة مواتية للاستجابة للصالح الذي تقدم به الخليفة العباسي المستعصم بالله، وترك حمص للحلبيين وأمر عساكره بالعودة إلى مصر

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٥، ص ٣٧٧، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٥٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨٣.

لحمايتها من العدوان الصليبي، وعاد وهو مريض إلى مصر^(١)

وعندما كانت قوات الصالح أيوب تحاصر حمص، خاف الناصر داود من أن تدور الدائرة عليه بعدها فقرر تلطيف العلاقات مع ابن عمه الصالح أيوب، فأرسل إليه رسولاً يعرض عليه التنازل عن الكرك مقابل أن يعوضه بالشوبك وإقطاعاً في مصر، ووافق الصالح أيوب على هذا العرض، وكلف الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني بتنفيذ ذلك إلا أن حسام الدين خاف من عدم وفاء الناصر داود بما وعد فيلقى القبض عليه لذلك أرسل إلى الصالح أيوب يعتذر عن تنفيذ هذه المهمة فأعفاه الصالح أيوب وأوكل بها شخص آخر توجه إلى الكرك وتقابل مع الناصر داود وطلب منه تسليم الكرك إلا أن الناصر داود وكما توقع حسام الدين عدل عن رأيه عندما سمع بمرض الصالح نجم الدين أيوب وقدوم الحملة الصليبية السابعة، فأراد أن يستثمر الحوادث لصالحه ويعود إلى ما كان يحلم به من قبل.^(٢)

وبما أن الناصر داود لا يستطيع وحده أن يقاوم الصالح أيوب لذا فكر في إيجاد حليف يقف معه في وجهه فتوجه إلى حلب سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م في محاولة لتكوين حلف جديد مع الناصر يوسف بن الملك العزيز لانتزاع بلاد الشام من الصالح أيوب وإيقاف تهديداته على بلدانهم، فأكرمه صاحب حمص وأحسن ضيافته، ويبدو أن الأخير هذا وجدها فرصة أيضاً فمشكلة حمص لم تغب عن باله، وقام الناصر داود بإرسال مجوهراته إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله لتكون عنده

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٧٠، المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٠-٣٣٢، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٨٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ١٠٩، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٥١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٨٣-١٨٤.

(٢) المقرئزي، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٢، ابن واصل، تاريخ الواصلين، ورقة ٣٥٥، على عوده، المرجع السابق، ص ١٨٤.

وديعة، وكانت هذه الوديعة تقدر بما يزيد على مائة ألف دينار.^(١)

على أن الناصر داود ارتكب خطأ كبيراً عندما أناب ابنه الصغير المعظم شرف الدين عيسى على قلعة الكرك وترك ابنه الآخرين الظاهر شادي والأمجد حسن وهما أكبر سنّاً فأدى ذلك إلى إثارة الضغينة فيما بينهم وقبضا على أخيهما المعظم، واستوليا على الكرك، واتفقا على تسليمها للصالح أيوب، فأقام الظاهر شادي في القلعة، وسافر الأمجد حسن إلى الصالح أيوب في المنصورة وعرض عليه استلام الكرك مقابل إقطاعاً بمصر يقوم بهما، فما كان من السلطان إلا أن أكرمه وأعطاه مالا كثيراً، وأرسل معه بدر الدين الصوابي ليتسلم قلعة الكرك ويكون بها نائباً عنه بالإضافة إلى الشوبك، فتسلم بدر الدين الكرك وأرسل أولاد الناصر داود جميعهم إلى المنصورة حيث قام السلطان بإكرامهم وأقطعهم أقطاعات كبيرة في مصر، وكان لاستيلاء الصالح أيوب على الكرك في جمادى الآخرة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م أكبر الأثر على إدخال السرور إلى نفسه فلم يبق على استكمال الوحدة بين مصر والشام إلا مملكة حلب، وجعل الكرك بمثابة مخزناً لأسلحته وذخائره وجواهره.^(٢)

وهكذا يمكن القول أن الصالح أيوب قد تمكن بجهوده وجهود رجاله من القضاء على النفوذ الخوارزمي في بلاد الشام، فأراح الناس من الفتن التي سببتها فلول الخوارزمية فيها، وتفرغ مؤقتاً لاسترجاع بعض ما كان الصليبيون قد استولوا عليه من المسلمين زمن الصالح إسماعيل وحاول على قدر جهده أن يوحد الشام ويسيطر على خلافت البيت الأيوبي إلا أن الفتن بينه والأطماع الإقليمية الضيقة أطلت برأسها من جديد فعاد النزاع بين الأيوبيين الأمر

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ورقة ٣٧٩-٣٨٠، المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) ابن واصل، تاريخ الواصلين، ورقة ٣٥٨، ٣٧٩، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ق ٢،

ص ٣٣٨، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ص ٧٧٣، أبو الفدا المختصر، ج ٣، ص ١٧٩،

الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٥١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٦٢.

(٣٣٥)

الذي صرف أنظار المسلمين عن جهاد الصليبيين في بلاد الشام.
ولما كان الصليبيون على درجة كبيرة من الغبن والحسرة على عودة القدس إلى
أيدي المسلمين سنة ٦٤٣هـ فقد أعد ملك فرنسا لويس التاسع حملته السابعة التي
خرج بها إلى مصر لتحقيق أطماعهم.

طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الحملة

الصليبية السابعة

بعد الاجتياح المغولي لممتلكات الدولة الخوارزمية حاول جلال الدين منكبرتي إعادة توحيد البلاد إلا أن سياسته العقيمة لم تكن تساعدته لتحقيق أهدافه وطموحاته، فبدلاً من أن يعمل على اكتساب رضى الدول الإسلامية المجاورة ويكون معهم حلفاً إسلامياً يقف في وجه المغول نجده يعادى القوى الموجودة في ذلك الوقت ويعتدي عليها من ذلك الاعتداء على أملاك الخلافة العباسية وأملاك الأمراء المسلمين فيما بين النهرين كما ناصب طائفة الإسماعيلية العداء واعتدى على ممتلكاتها الأمر الذي أدى إلى وقوفه منفرداً في صراعه مع المغول.^(١)

ولقد أوضح الأمر جلياً أحد المؤرخين المعاصرين بقوله " وكان جلال الدين سئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة شستر وهى للخليفة فحصرها، وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهى للخليفة أيضاً، ثم ملك أذربيجان وهى لأزبك فملكها، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم، ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب الروم، وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر، وقرر عليهم وضيغه من المال كل سنة وكذلك غيرهم".^(٢)

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢١، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٣٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣.

ونتيجة لذلك لم تحاول القوى المعاصرة له الوقوف إلى جانبه عندما عاود المغول ملاحقتهم له " فكل الملوك تخلى عنه " لأنهم يخشون من استفحال أمره مرة أخرى فلا يأمنونه على ممتلكاتهم.^(١)

وبعد وفاة جلال الدين سنة ٦٢٨ هـ لم يحاول أتباعه من الخوارزمية الاستفادة من الأخطاء التي وقع فيها جلال الدين منكبرتي، فيعملون على توحيد صفوفهم وكسب رضا القوى الإسلامية التي سبق أن عاداها جلال الدين حتى يتسنى لهم العودة إلى بلادهم وطرد المغول منها بل على العكس من ذلك نجدهم يتبعون أسلوباً آخر في التعامل مع القوى الإسلامية يزيدهم بعداً من تحقيق أحلامهم الضائعة وإعادة دولتهم الزائلة.^(٢)

هذا الأسلوب يتمثل في عرض أنفسهم على القوى الإسلامية المتصارعة كجنود مرتزقة، فاتجهوا في بداية الأمر إلى خدمة علاء الدين كيقباز لإعانتته في حروبه ضد أعدائه وكان على رأسهم كبار القادة الخوارزمية أمثال بركة خان وكشلوخان وصاروخان وفرخان وبردى خان الذين شاركوه في حروبه مع الأيوبيين والأراققة.^(٣)

ونتيجة لهذا التعامل الجديد الذي اتبعه الخوارزمية بدأ غياث الدين

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٣.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ١٣٤، مجاهد اللحام، معجم المعارك الحربية، ص ١٣٠، سوسن محمد نصر مقال " بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة"، المجلة التاريخية المصرية، ص ٧٠.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢٥، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٧، حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١١٦، سوسن محمد نصر، مقال " بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة " المجلة التاريخية المصرية، ص ٧١.

كيخسرو يسئ معاملتهم بعد وفاة أبيه علاء الدين كيقباز باعتبارهم جنود مرتزقة يتصرف فيهم كيفما يشاء مما اضطرهم إلى تركه واتجهوا للإقامة في آسيا الصغرى يعرضون أنفسهم على قوة أخرى يتكسبون من ورائها، وكان من عاداتهم أثناء انتقالهم من بلد إلى آخر أن يقوموا بنهب يمرون عليه في طريقهم^(١) كما سبق أن بينا في أكثر من موضع مستدلين بالأدلة التاريخية على ذلك.

وفي الوقت الذي انضمت فيه مجموعة من الخوارزمية إلى خدمة سلاجقة الروم نجد فرقة أخرى تتجه إلى خدمة الخلافة العباسية حيث استخدم الخليفة العباسي المستنصر بالله منهم في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أربعة آلاف فارس.^(٢)

وعندما بدأت الحرب الأهلية بين ملوك بني أيوب شارك الخوارزمية في القتال مع بعض ملوك بني أيوب ضد بعضهم البعض، وكان أول من استخدمهم من بني أيوب كجنود مرتزقة الصالح أيوب عندما كان حاكماً لحصن كيفا سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وتمكن الصالح أيوب بفضل خدماتهم من الاستيلاء على سنجار ونصيبين إلا أن الخوارزمية لم تلبث أن خرجت عليه بعد وفاة والده الملك الكامل وطمعوا في الاستيلاء على ممتلكاته وخزائنه بل هموا بالقبض عليه فتنبه الصالح أيوب لذلك وتمكن من الإفلات منهم "فقصد سنجار وظل بها فترة تاركاً خزائنه وأشغاله، فانتهبها الخوارزمية وتحكموا في البلاد الجزرية" بعد سيطرتهم عليها فأساءوا السيرة في أهل تلك البلاد بأعمالهم الإجرامية.^(٣)

وبعد فترة وجيزة عاد الخوارزمية مرة أخرى إلى طاعة الصالح أيوب إذ لم يكن

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٥٩، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٢.

(٢) ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص ٢٦٠، د. سوسن محمد نصر، مقال سابق، ص ٧١.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٠، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٩، ١٦٢،

ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٣٧، ٢٣٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٧،

الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٢١-٢٢٢، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٨.

لهم ولاء ثابت وساعدوه في القضاء على الطامعين في ملكه أمثال بدر الدين لؤلؤ وغيث الدين كيخسرو، وكان ذلك مقابل منحهم إقطاعات كبيرة في حران وسنجار والرها^(١) وكذلك استعان بهم الصالح أيوب وسامحهم على ما فعلوه به لأنه كان في حاجة إلى خدماتهم العسكرية ولا غرو في ذلك فهذه طبيعة العلاقات السياسية فليس هناك أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون في الوسط السياسي وإنما مصالح دائمة.

وبما أن الصالح أيوب كان يرغب في السيطرة على ملك الدولة الأيوبية باعتباره أكبر من أخيه العادل الثاني، فقد قام بمنح الخوارزمية حران والرها وجميع البلاد الجزرية حتى يقفوا معه في تحقيق أحلامه، وفعلاً توجه بهم إلى دمشق وسيطر عليها، ثم عاد الخوارزمية إلى إقطاعاتهم في الجزيرة واخذوا يغيرون على البلدان الإسلامية من هناك كقطاع طرق ومجرمي حرب ومن البلدان التي لم تسلم منهم مملكة حلب التي بذلت كل جهد من أجل الحفاظ على البلدان من غارات الخوارزمية المدمرة وفعلاً نجحت في الحد من خطورتهم وكسر شوكتهم سنة ٦٣٨هـ^(٢) إلا أن الخوارزمية فتح المجال أمامهم مرة أخرى عندما راسلهم كل من المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الكرك يستحثونهم على نصرة حليفهم الصالح أيوب الذي فقد ملك دمشق ووقع في أسر الناصر داود الذي حاول أن يبرر لهم ذلك بأنه حفاظاً على الصالح أيوب و"صيانة لمهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل وعمه

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٢٧١، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٦٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٧، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٨.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٩-٣٠٣، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٧-١٦٨، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٢٤، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٩، ٧٣، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ١٤١، ١٤٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٤، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج ١، ص ٤٨.

الملك الصالح عماد الدين".^(١)

واستطاع الصالح أيوب أن يسيطر على مصر ويقبض على أخيه العادل سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م إلا أن الأمور لم تستقر له حيث أخذ عمه الصالح إسماعيل يعد العدة للقضاء عليه لتخوفه منه واستعان في سبيل ذلك بالصلبيين وتنازل لهم عن بيت المقدس وغيرها الأمر الذي دفع الصالح أيوب إلى الاستجداء بالخوارزمية والاستعانة بهم في مواجهه الحلف الشامي الصليبي ومن هنا بدأت تتدخل الخوارزمية في الصراع الإسلامي الصليبي وتحركوا بقواتهم مباشرة من بلاد الجزيرة إلى الشام واكتسحوا البلدان التي مروا بها " فقد كانوا ينهبون ويقتلون ويسبون".^(٢)

ثم وصل الخوارزميون إلى بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ودخلوا المدينة دون مقاومة تذكر "وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ولم يبقوا على أحد منهم وسبوا ذراريهم ونساءهم" بل تعسفوا في الانتقام من الصليبيين حيث دخلوا كنيساتهم المشهورة التي أطلقوا عليها القيامة وهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ونبشوا غيرها من المقابر حتى أنهم قاموا بإحراق عظام الموتى الأمر الذي افزع الصليبيين وزاد من قلقهم تجاه بيت المقدس.^(٣)

(١) المقرئى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٢-٢٩٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج١، ص٤٠٨.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٩٧، ٣٠٣، ٣١٥، أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٢٩-٣١، محمد كرد على، خطط الشام، ج٢، ص٩٧-٩٨، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص٢٤٥.

(٣) المقرئى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٦، ابن العميد، المصدر السابق، ص٣٢-٣٣، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى، ص٢٥٣، مقال د. سوسن محمد نصر " مقال، بنوأيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك فى

قصد الخوارزمية بعد ذلك غزة لملاقاة الجيش الإسلامي القادم من مصر من قبل الصالح أيوب ومن ثم التقدم لمواجهة الحلف الإسلامي الصليبي بقيادة المنصور صاحب حمص وتقابل الفريقان في معركة حاسمة انتهت بهزيمة الحلف الإسلامي الصليبي وتفرقهم وتمكن الخوارزمية من سحق الصليبيين حيث " وضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلاً وأسراً ولم يفلت منهم إلا من شرد" وتعرف هذه الموقعة التي وقعت سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م بموقعة غزة ويقال لها أيضاً موقعة حطين الثانية لشدة الهزيمة التي لحقت بالصليبيين وكسرت شوكتهم^(١) كما بينا آنفاً.

كان لهذا الانتصار الساحق الذي تحقق للخوارزمية في غزة على الصليبيين أثره الكبير في إثارة شعور الغرب نحو خطورة الموقف في بيت المقدس وبلاد الشام خاصة عندما علموا بما قام به الخوارزمية من اعتداء على المعابد والكنائس في بيت المقدس ونش قبور الموتى وإحراق العظام^(٢) كما أن بطريق بيت المقدس الذي سارع بإرسال سفارة إلى الغرب الأوربي هول من المصيبة التي حلت بهم وبين لهم عجز البقية الباقية من الصليبيين عن مقاومة الخوارزمية وأن مقامهم في بلاد الشام أصبح مهدداً بالزوال^(٣) تماماً كما حدث من السلاجقة الذين انتصروا

شمال الشام والحزيرة"، المجلة التاريخية المصرية، ص ٧٦.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣١٦-٣١٧، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٢٤٩، الذهبي، العبر، ج ٣، ص ٢٤٢، دول الإسلام، ص ١٤٧-١٤٨، محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢، ص ٩٨، سيد علي حريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٤٥.

(٢) فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ص ٣٦٤، سيد علي حريري، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٣) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٤٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٠٠٤، فتحية النبراوي، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى، ص ٢٥٣.

على الروم في موقعة ملاذ كرد أو منزكرت وأسروا الإمبراطور البيزنطي فما كان منهم إلا أن استجاروا بأوروبا التي سارعت بإرسال أول حملة صليبية إلى الشرق وعند قدومها كان السلاجقة قد دخلوا في بداية عصر الضعف فكانوا بذلك سبباً من الأسباب التي عجلت بدخول الصليبيين إلى بلاد المسلمين.

عندئذ بادر البابا انوسنت الرابع إلى عقد مجمع كبير في مدينة ليون سنة ١٢٤٣هـ/ ١٢٤٥م وناقش هذا المؤتمر مسألة فلسطين واخذ واليران أسقف بيروت يشرح للحاضرين الولايات التي تعرضت لها ارض الميعاد كما بين لهم الطريقة التي فقد على إثرها الصليبيون بيت المقدس وغيرها من البلاد التي يملكونها في بلاد المسلمين وصور لهم كيف فقدوا أعداداً هائلة من خيرة فرسانهم وصفوة أبطالهم في موقعة غزة سنة ١٢٤٢هـ/ ١٢٤٤م، ثم قام أحد الرهبان وقرأ على الحاضرين مجموعة من الخطابات التي أرسلها كبار الصليبيين في بلاد الشام وكانت تلك الخطابات تتضمن وصفاً دقيقاً لما حل بالصليبيين في بيت المقدس على يد الخوارزمية^(١)، وخرج الاجتماع بتوصيات تقضى بضرورة إرسال حملة صليبية لإنقاذ الموقف قبل فوات الأوان والانتقام من المسلمين على ما فعلوه بمقدساتهم في بيت المقدس، إلا أن الغرب الأوربي لم يكن في حالة تسمح له بتكوين حملة صليبية متحدة بسبب الصراع القائم بين البابوية والإمبراطورية.^(٢)

ولم يستجب لهذه الدعوة من الغرب الأوربي سوى لويس التاسع ملك فرنسا

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٤-٥٥، سيد على حريري، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٤٧-٢٤٨، فتحية النبراوي، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى، ص ٢٥٣، سعيد أحمد برجناوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٤١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٠٠٤، سيد على حريري، المرجع السابق، ص ٢٤٨، سعيد أحمد برجناوي، المرجع السابق، ص ٢٤٦.

الذي عرف بحماسة الدينية وتقواه وورعه حتى أطلق عليه القديس، فقد أصيب هذا الملك بمرض خطير فنذر أن يقوم بحملة صليبية جديدة إذا من الله عليه بالشفاء، ووجد الفرصة مواتية عندما دعت البابوية في مجمع ليون لهذه الحملة فتزعمها وتحمس لها، كما أصدر البابا انوسنت الرابع المراسيم البابوية لحث الناس على الاشتراك في هذه الحملة ووعد كل من يشارك أو يساهم في إنفاذ هذه الحملة لإنقاذ بيت المقدس بالغفران التام عن خطاياہ والتكفير عن ذنوبه بمجرد الانخراط في تلك الحرب الصليبية. ^(١)

وعلى الرغم من الدعاية الواسعة لهذه الحملة بين الغرب الأوربي والمراسيم البابوية التي تعد بالغفران إلا أنها لم تجد استجابة من قبل الصليبيين إذا لم تكن الظروف في تلك الفترة تسمح لهم بالقيام بحملة جديدة سوى ملك فرنسا الذي تعهد بالقيام بحملة صليبية لإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام. ^(٢)

وفي سبيل ذلك أخذ ملك فرنسا يشير الحماسة الدينية بين جنوده ودعا إلى عقد مؤتمر كبير في باريس سنة ١٢٤٣هـ/١٢٤٥م حضره جمع غفير من الأعيان ورجال الدين والمندوب البابوي وخطب فيهم خطبة مؤثرة حثهم فيها على حمل الصليب والاشتراك في هذه الحملة وأثار بذلك غيرتهم الدينية فانخرط في صفوف الحملة جمع غفير من الأمراء والأشراف كان على رأسهم اخوته الثلاثة روبرت كونت ارتوا، والفونس كونت بواتيه وشارك كونت انجو كما انضم إليهم هيج الرابع دوق برجنديا وعدد كبير من البارونات وكبار ملاك الإقطاع بفرنسا في مقدمتهم بطرس

(١) فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ص ٣٦٤ سيد على حريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص ٢٤١، قدرى قلجى، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص ٥٢٢.

(٢) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٨-٥٩، سعيد أحمد برجاولي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٥٤٦، قدرى قلجى، المرجع السابق، ص ٢٥٢.

كونت بريتاني وهيج العاشر كونت لامارش وغيرهم وكان جوانفيل مؤرخ هذه الحملة واحداً من قادتها.^(١)

وبما أن الإمبراطور الألماني فردريك الثاني كانت تربطه علاقات طيبة مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب ومن قبله مع أييه الملك الكامل وكان حريصاً على إفشال هذه الحملة، فقد أرسل رسولاً في السر إلى الصالح نجم الدين أيوب يخبره بمسير الحملة الصليبية الفرنسية إلى مصر بقصد السيطرة عليها باعتبارها مركز قوة المسلمين وقد حكى رسول الإمبراطور مهمندار منفريد ابن الإمبراطور ذلك بقوله: أرسلني الإمبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين لأعرفه عزم ريدا فرنس على قصد الديار المصرية وأحذره منه، وأشير عليه بالاستعداد له " وحتى يضمن الإمبراطور عدم كشف الرسول فقد كان ذهابه إلى مصر ورجوعه في زي تاجر، وقد أوضح الرسول ذلك بقوله " لم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا بمالأة الإمبراطور للمسلمين عليهم".^(٢)

وقد ذكر ابن ابيك أن الإمبراطور فردريك حدد هدف الحملة الصليبية وهو ثغر دمياط ونصح الصالح أيوب بأن يتخذ كافة استعداداته لصده وذكر ذلك في كتابه للسلطان بقوله عن الملك لويس التاسع " بأنه قد وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولي فكن منه على حذر"^(٣)، كل ذلك يحدث من الإمبراطور وهو يمد لويس التاسع والصليبيين بالمساعدات

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٨-٥٩، سيد على حريري، الأخبار السنينة في الحروب الصليبية، ص ٢٤٨، عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٤٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٧، المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢١٩، قدرى قلعجي، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص ٢٢٣.

(٣) ابن ابيك، كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٦٦.

المادية وكانت علاقته مع ملك فرنسا طيبة^(١) وكانت أعماله تلك تجعله يظهر أمام العالم المسيحي في صورة المدافع عن حقوق الصليبيين في بلاد الشام.^(٢)

وعلى أية حال فإن الملك الفرنسي لويس التاسع اعد لهذه الحملة قرابة ثلاث سنوات فزودها بما تحتاج إليه من أسطول قوى لنقل الجند والسلاح عبر البحر واستعان في سبيل ذلك بعدد كبير من سفن جنوه ومرسيليا وابرم معهما اتفاقيات بهذا الشأن، كما اهتم بتوفير الذخيرة والمؤن لحملته فقام بإرسال فرقة من أتباعه إلى قبرص لتجهيز هذه الأمور قبل مقدم الحملة بحوالي عامين.^(٣)

وبما أن تكاليف الحملة ستكون كبيرة فقد عمل لويس التاسع على توفير أكبر قدر من المال لتغطية نفقات الحملة، وكان للبابا انوسنت الرابع دور كبير في ذلك فقد أمر بجمع الضرائب والعشور من الأمراء والنبلاء ورجال الدنيا والدين وذلك مقابل عدم اشتراكهم في هذه الحملة ولقد أثارت هذه الضرائب الكثيرة سخط رجال الكنيسة إلا أنه لم يكن أمامهم إلا التسليم لقرارات البابا.^(٤)

وبعد أن اكتملت الاستعدادات لهذه الحملة الصليبية السابعة انطلقت من فرنسا بقيادة لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٨م ووصلت إلى قبرص في نفس العام ولم يشعر الصليبيون بغربة في هذه الجزيرة بسبب حسن الاستقبال والرعاية الحسنة من

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٧٨-٧٩، فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ص ٣٦٥.

(٢) عادل عبدالحافظ شحاتة، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامي، ص ٣٣٧.

(٣) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٦٠-٦١، عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٤٩، جوزيف نسيم، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية، ص ٧٣.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٨، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٦١-٦٢، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، ص ٢٣٥.

قبل هنرى الأول ملك قبرص وقبل تحرك القوات الصليبية من فرنسا كان الملك الصالح أيوب قد علم عن طريق حليفه الإمبراطور فردريك الثاني بمسيرها إلى مصر^(١) فقام باتخاذ كافة الاستعدادات لمواجهة هذه الحملة وصدّها عن مصر وكان في بلاد الشام فعاد مسرعاً إلى مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م " ليكون في مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط " ومن الاستعدادات التي قام بها السلطان حشد الأسلحة والأقوات الكثيرة في دمياط باعتبارها الهدف الأول للحملة الصليبية، كما أمر الأمير حسام الدين على الهذباني بأن يجهز السفن اللازمة للمقاومة وحماية الشواطئ الإسلامية من الصليبيين وشرع " في تجهيزها وسيرها شيئاً بعد شيء ". كما أمر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأن يتوجه بقواته إلى دمياط ليكون في مقابلة الفرنج إذا قدموا، فتوجه إليها وكان معه جماعة من شجعان بني كنانة.^(٢)

وأخيراً وصلت الحملة الصليبية إلى دمياط في صفر سنة ٦٤٧هـ يونية ١٢٤٩م وحطت رحالها في بر دمياط وكان عددهم يقارب خمسين ألف مقاتل^(٣)، هذا وقد قام لويس التاسع بإرسال كتاب إلى السلطان يتهدده ويتوعده جاء فيه ما نصه " أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٦١-٦٢، أبو الفدا، المختصر، ج ٣، ص ١٧٨، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٢٣٥.

(٢) المقرئى، السـلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٣، أبو الفدا، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨-١٧٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، سيد على حريرى، الأخبار السنوية فى الحروب الصليبية، ص ٢٤٩، عفاف صبرة، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٧٤.

(٣) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٣، أبو الفدا، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٨.

النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة علي، فيدك العليا ممتدة إلي، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضا".^(١)

وعندما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه حزن لتطاول هذا العلاج واستخفافه بالمسلمين " واغرورقت عيناه بالدموع " ورد عليه رداً مفحماً جاء فيه بعد البسملة والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين " أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأيت الحصون والسواحل، وإخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان أن تعض على أناملك بالندم، ولا بد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وأخره عليك، فهنا لك تسى بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وكن على آخر سورة ص: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾ وإلى قول الحكماء، إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام".^(٢)

أوردنا هاتين الرسالتين هنا ليتبين للقارئ مدى العداوة والحقد الذي يحمله لويس التاسع ومن معه على المسلمين واحتقاره لهم وهذه عقيدة يعتقدونها بغض النظر عما أحدثته الخوارزمية من قتل وتدمير لأتباعهم ومقدساتهم والتي كانت سبباً في قيام هذه الحملة كما نجد في المقابل شجاعة وبسالة من السلطان نجم الدين

(١) المقرئى، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٤، سيد على حريزى، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٤٩.

(٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٤-٣٣٥.

أيوب الذي لم ترهبه هذه التهديدات رغم الظروف الحرجة التي يمر بها.
 ورغم الانتصار المؤقت -الإستيلاء على دمياط- الذي حصل للصليبيين في
 بداية هذه الحملة ورغم وفاة الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م^(١) إلا أن
 نهاية الحملة كانت مؤلمة وقاسية بالنسبة للصليبيين حيث وقعت أعداداً كبيرة منهم
 في الأسر وكان على رأسهم قائد هذه الحملة الملك لويس التاسع وبلغ عدد القتلى
 ما يقارب عشرة آلاف مقاتل "غنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال مالا
 يحصى كثرة" واستشهد من المسلمين مائة رجل.^(٢)

(١) السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٣٥-٣٣٩، أبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٧٩، ابن العميد، أخبار
 الأيوبيين، ص ٣٧، ابن اياس الحنفى، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١، ق ١، ص ٢٧٧-٢٧٨،
 ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ١١٩-١٢١، الذهبى، دول الاسلام، ج ٢، ص ٣٣٥-٣٣٩،
 أحمد بن على الحريرى، الاعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين، ص ٩٦.
 (٢) المقرئى، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٣٥٤-٣٥٦، أبو الفداء، المصدر السابق، ج ٣،
 ص ١٨١، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٧-٣٨، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٢٣٢، ابن
 اياس الحنفى، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٢٨٠، الذهبى، دول الاسلام، ج ٢، ص
 ١٥٢-١٥٤، أحمد بن على الحريرى، المصدر السابق، ص ٩٦.

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذي قام بدراسة شاملة للعلاقات بين الدولة الخوارزمية والقوى السياسية في بلاد الشام والجزيرة، وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها : - أن الدولة الخوارزمية وعلى رأسها جلال الدين الخوارزمي عجزت عن تحقيق المهمة التي كان ينبغي أن تقوم بها وهي حماية السور الشرقي للعالم الإسلامي من الخطر المغولي. وكان من المفترض على أقل تقدير أن تقوم بالحفاظ على حدودها في وجه الزحف المغولي إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث بل على العكس من ذلك نجد جلال الدين الخوارزمي يهدد الخلافة العباسية مدعياً أنها كانت السبب في تحريض المغول للهجوم على بلاده ليخفى أطماعه في السيطرة على أملاك الخلافة العباسية وليحوز على المكانة التي كانت للسلاجقة من قبل. وكان هذا الأمر من شأنه أن ينفر المسلمين منه للمكانة التي تحملها الخلافة في نفوس المسلمين بغض النظر عن مدى أهلية الخليفة لهذا المنصب.

وقد بينت الدراسة أن تفرق الجسد الواحد إلى عدة أجزاء يؤدي إلى محاولة كل جزء أن يظهر على حساب الآخر فتسقط بذلك سائر الأعضاء وهذا ما حدث بالفعل في الدولة الأيوبية التي تفرقت وتجزأت إلى ممالك صغيرة يطمع كل واحد منهم في الآخر ولجأ كل جزء إلى الاستعانة بقوى أخرى غريبة عن المنطقة فاستعان المعظم عيسى صاحب دمشق بجلال الدين الخوارزمي وفي الجانب المقابل لجأ أخوه الملك الكامل إلا الاستتجاد بأعداء الأمة الحقيقيين ولم يراع في ذلك موقف الشرع من هذا العمل فاستعان بالإمبراطور الألماني فردريك الثاني ودخلت منطقة الشام والجزيرة بذلك دوامة الصراعات الداخلية من ناحية والأطماع الخارجية من ناحية أخرى.

وقد برهنت الدراسة على أن هذه الفترة تعتبر من المراحل المهمة جداً في التاريخ الإسلامي فقد كانت المنطقة في تلك الفترة تموج بالأحداث الجسام وتعيش في خضم تحولات ذات أهمية استثنائية في كافة المجالات السياسية منها والاقتصادية وكذلك في مجال التنظيمات العسكرية فقد استجد عامل جديد هو

ازدياد حدة الصراع بين المسلمين.

وأوضحت الدراسة أن بأس المسلمين كان بينهم شديد فلم يظهر جلال الدين ولا جيشه من الخوارزميين أي رافة أو رحمة بأهل خلاط بل نجدهم يحاكون المغول عند هجومهم على البلدان الإسلامية - على الرغم من انهم مسلمون - فقاموا بتضييق الخناق على أهل خلاط وفرضوا عليهم حصاراً محكماً أضرب أهلها وعرض حياتهم للخطر بسبب نقص المواد الغذائية. بل ومما زاد الأمر سوءاً إقدام الجيش الخوارزمي بعد دخول المدينة على القتل والنهب والسلب والتدمير. فكان لذلك أبعد الأثر على مدينة خلاط إذ كانت الحصن المنيع الذي وقف في وجه جميع الغزوات القادمة من الشرق.

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن في الاتحاد قوة وظهر هذا الأمر واضحاً جلياً عندما اتحد ملوك بني أيوب مع سلاحقة الروم فقد خاف هؤلاء من تنكيل جلال الدين بهم وزحفه على ممتلكاتهم خاصة عندما بلغتهم الأخبار بما حدث في خلاط. فتناسوا الخلافات بينهم وجمعوا جيوشهم واعدوا عدتهم لإيقاف جلال الدين عند حده وفعلاً تحقق لهم الهدف المنشود فقد انزلوا به وبجيشه هزيمة منكرة في موقعة (ياسى جمن) سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م. ورغم أن هذا الاتحاد قد نجح في تحجيم قوة جلال الدين وإيقافه عند حده إلا أنه كان سلبياً من ناحية أخرى فقد نجم عن هذه الهزيمة إضعاف لجيش كان بالإمكان أن يستفاد من طاقاته في الوقوف أمام الخطر الحقيقي للامة الإسلامية وهم جحافل المغول القادمة عبر أراضي خوارزم، والصليبيين الذين كانوا يعملون جاهدين على القضاء على المسلمين والسيطرة على أراضيهم. كما أن القوى الإسلامية الأخرى الموجودة في المنطقة لم تلعب دور الوسيط في حل النزاع بين الدول الإسلامية المتصارعة وعلى رأسها الخلافة العباسية فلم يثبت تدخلها في هذا الصراع ومحاولتها رأب الصدع بين القوات المتصارعة في الشام والجزيرة كل فترة.

وإلى جانب ذلك فقد برهنت الدراسة على أن ما يزرع في الرخاء يحصد في

الشدة وهذا ما حصل بالفعل لجلال الدين الخوارزمي فقد زرع الخوف والذعر في قلوب جيرانه من حكام المسلمين وغيرهم وفي مقدمتهم الخليفة العباسي، فمن ذلك انه أول ما ظهر بأصفهان جهز جيشه وقصد خوزستان وحاصر مدينة (شستر) وهي للخليفة العباسي ثم سار إلى (دقوقا) وقتل ونهب كثيراً من سكانها ثم اخذ أذربيجان من صاحبها ازيك بن البلهوان وعادى الأشرف صاحب خلاط وعلاء الدين صاحب الروم، كما عادى طائفة الإسماعيلية وهزم الكرج النصارى ودخل عاصمتهم تفليس، ولم يبق له حليف قوى في المنطقة، وعندما جاءت الشدة وخرج المغول للقضاء عليه تركه حكام المسلمين يلقي جزاء ما صنع، ولم تجد صيحاته ولا نداءاته المتكررة لهم للوقوف معه صفاً واحداً في مواجهة المغول وسقط في نهاية المطاف بسبب سياسته العدائية. ولو أن معاملته لهم كانت حسنة لما تخلوا عنه في ساعة الشدة.

وأوضحت الدراسة عدم إدراك حكام المسلمين لخطورة موقفهم عقب سقوط الحاجز القائم بينهم وبين التار، فلو قدر لهم أن يساندوا جلال الدين ويتفاوضوا عن أعماله السابقة لكان بالإمكان على اقل تقدير أن يوقفوا زحفهم ويؤخروه لفترة أطول ريثما تأتي الفرصة المناسبة للقضاء عليهم. ولكننا يجب أن نلتمس لهم العذر فلقد عاشوا فترة من الرعب والهلع من هجوم الخوارزميين على ممالكهم.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن القوات الخوارزمية التي تفرقت في البلاد لم تلعب دوراً يذكر لاستعادة مجدها بل ولم تفكر في أن تنتقم ممن كان السبب في تفرقهم وتشتهم بل رجعوا إلى طبيعتهم وانساقوا بذلك خلف كل من يمنيهم بمال أو يعدهم بإقطاع وفقدوا بالتالي قدرتهم على الرؤية الصحيحة وقدرتهم على العطاء الحضاري. وأصبحوا لعبة في يد كل ناعق سواء كان ذا صوت طبيعي أو مصطنع.

ولقد أثبتت الدراسة أن غياب القيادة المؤمنة الواعية في مراحل الصراع بين المسلمين كان أكبر عامل في تمزق وحدة المسلمين. فلقد راحت معظم القيادات

السياسية والعسكرية تتطاحن فيما بينها واستنزفت الكثير من قدراتها من جهة وأدارت ظهرها للغزاة من جهة أخرى، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للخوارزميين والسلاجقة وظهر هذا الأمر واضحاً جلياً بالنسبة لملوك بني أيوب في مصر والشام، إذ كان الصراع ينشب بينهم باستمرار وكانوا يحاربون بعضهم البعض على هذه القلعة أو المدينة أو تلك المساحة التافهة من الأرض.

كما بينت الدراسة الآثار السلبية السيئة التي أحدثها الخوارزميون في بلاد الشام والجزيرة فلقد استنزفوا طاقة الأيوبيين الذين كانوا يعيشون في رعب دائم منهم حيث قاموا بالهجوم على العديد من البلدان ونهبوها ودمروها وسلبوا ما فيها من أموال وخيرات، وعلى الرغم من اختلاف البيت الأيوبي إلا أنهم كانوا يتحدون مرغمين أمام الخوارزميين لوحشيتهم، فاتحدت مملكة حلب مع حمص ضدهم بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ولقنوا الخوارزميين درساً قاسياً فهزموهم عند الرها سنة ٦٣٨هـ، ولما عاودوا الهجوم مرة أخرى وقف لهم المنصور صاحب حمص بالمرصاد وهزمهم سنة ٦٤٠هـ.

وأوضحت الدراسة أن عدداً غير قليل من الأمراء المحسوبين على الأمة الإسلامية مارسوا أنماطاً وضروباً من الخيانة أجل منافعهم الدنيوية ومصالحهم العاجلة التي لعبت دورها في تفتيت وحدة الأمة الإسلامية وعرقلة حركة الجهاد ضد الصليبيين وغيرهم ومن ذلك تحالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق ومن معه من ملوك الشام مع الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، ومنحهم مقابل ذلك الكثير من الإقطاعات التي ترضيهم وبقيت بذلك عبرة التاريخ للذين يطلبون النصر من الأعداء، والذين يطلبون الحياة من السم والذين ينسون قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث انه ترتب على الصراع في منطقة الشام والجزيرة أن صار بيت المقدس - ثالث الحرمين الشريفين ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم - ألعوبة بيد بعض ملوك بني أيوب يسلمونه للصليبيين لتحقيق مصالحهم

الشخصية ومطامعهم الدنيوية ولم يراعوا في ذلك مشاعر المسلمين بل خرجوا بهذا العمل عن قيم دينهم وأهدروا تراث أسلافهم الذين حرروا القدس الشريف بدمائهم. وألقت الدراسة الضوء على بعض الجوانب الإيجابية للخوارزميين فقد تمكنوا من استعادة بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين سنة ٦٤٢هـ بعد أن سلمه إليهم الصالح إسماعيل ومن معه، وبقي بعد ذلك بيت المقدس بيد المسلمين حتى العصر الحديث عندما وقع تحت يد الأنجليز. وكذلك من الجوانب الإيجابية للخوارزميين ما تحقق على أيديهم من هزيمة ساحقة للصليبيين ومن حالفهم من ملوك بني أيوب في موقعة غزة الشهيرة سنة ٦٤٢هـ وكانت بذلك اعظم كارثة تحل بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ حتى أطلق عليها بعض المؤرخين اسم حطين الثانية. وكانت هذه الخسارة التي لحقت بالصليبيين بمثابة بداية النهاية لهم في بلاد المسلمين، فقد عجزوا عن الدفاع عن البلدان التي استولوا عليها في بلاد الشام ماعدا المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية الحصينة.

وبينت الدراسة كذلك رجوع الخوارزميين إلى طبيعتهم السابقة فقد طلبوا من الصالح أيوب أن يمنحهم قدرأ من الإقطاعات وأن يقاسمهم البلاد ويعطيهم الأموال. وعندما رفض الصالح أيوب مطالبهم الصعبة انقلبوا عليه بعد استعادة دمشق من الصالح إسماعيل وتحالفوا مع أعدائه وخرجوا عليه إلا انه تمكن من القضاء عليهم. وأخيراً دلت الدراسة على أن سبب الحملة الصليبية السابعة هو ما قام به الخوارزميون من استعادة لبيت المقدس وهزيمة الصليبيين في غزة هزيمة منكرة فضجت أوروبا لذلك وأعدت العدة للقيام بهذه الحملة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع.

الملاحى

ملحق رقم (١)

نسخة كتاب الفتح^(١)

نقلًا عن كتاب تاريخ فاتح العالم للجويني الجزء الثاني
صفحة ٨-١٢.

الشكر والحمد والثناء للخالق جل ذكره وعلا، الذي منحنا الظفر والنصر
برأي من الدولة والمكللة برايات المملكة. وجعل التأيد والقدرة قريني
النهضات الميمونة والعزمات الهمايونية، بنهضة الدولة والتصرف بتدبير عبيدها،
أدامها الله، وبخطوات جيش حقق القهر ونفذ الأوامر، و " هذا من فضل ربي
ليبلوني أشكر أم أكفر؟ ". حتى خفقت رايات نصرنا، حفها الله بالنصر، على
حدود ممالك الأرمن. وأحاطت بمدينة أخلاط مدة ثمانية أشهر، ووجهنا آيات
الوعد والوعيد إلى جماعة المخالفين مرات ومرات، وكررنا عرض مقدمات
الإنذار والتحذير بإلزام الحجة وإقامة البينة، حتى رأوا طريق سلامتهم بعينهم
البصيرة، وعلموا أن لاقدرة لهم على معبر عواصف القهر وصواعق السخط التي
لايتحملها جبل، وأن لاثبات لهم أمام تلاطم أمواج غضب حشم فاتح العالم ولا
الجبل الجودي. فتقدموا يطلبون الاستغفار والأمان. ففتحوا الأبواب. في حين
أنهم طوال هذه المديدة لم يعوا الدعاء : " اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون " .

(١) لقد جانب صاحب الرسالة الصواب في استخدامه لكلمة الفتح هنا فهذه الكلمة لها
مدلول خاص متعلق بالفتوح الاسلامية، كما بالغ ايضاً في مدحه لجلال الدين وجيشه عند
إقتحامهم لخللاط، ولقد بينا حقيقة هذا الأمر عند استعرضنا لهجوم الخوارزمية على خللاط
في الفصل الأول.

فقد كان جماعة المخالفين يزدادون غواية وضلالة يوماً بعد يوم، " ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ". وكان قد ازدحم جيش كبير، توافد من ديار بكر وسواحل الفرات وبلاد مصر والشام وبعض البلاد الشرقية وطوائف التراكمية والأتراك، ومن كل أوب ووجهة فوق مختلفة، واعتمدوا على قوة سواعدهم وحصانة أحمالهم وكثرة استعدادهم من الدواليب والنبال والمجانيق والنفط وآلات الجر الثقيلة. والحق أن برود المدينة تبارت مع فلك البروج في الارتفاع. أ/ا خندقها فيحكي أن قعرة أبعد غوراً من قعر الثور السمكي. كما تعاضدت العوامل والمؤثرات بين الأرض والسماء على الزيادة من إحكام هذه الأسوار وتثبيت قواعدها.

تلاحمت سوداء غرورهم مه ما في ضمائر المتمردين حتى جعلهم يرفضون كل موعظة. وتخليهم الفاسد زاد من تثبت المخالفين والمعارضين في عنادهم. حتى كان أواخر شهر جمادى الأولى، لمس فيها رجال فاتح العالم فرصة. نصرهم الله وقواهم، للحرب والإقدام. فقد جاءتهم الأوامر أن على كل جيدي أن ينقب في موضعه، ويجد منفذاً إلى داخل الأسوار. أما الشجعان المغاوير فقد ملوا المكوث فاحتلوا بحثاً عن وسائل والتماسات حتى حظوا بالموافقة على بدء الحرب. ودامت الحرب ثلاثة أيام بلياليها، وهم صابرون مثابرون، حتى تسرب عدد منهم إلى داخل المدينة.

وفي يوم الأحد في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى، عند الشروق تزينت الأبراج والنوافذ بطلائع الرايات، تماماً كالسماء وقد تحلت بنجومها، بينما تحصن المعارضون في القلعة الواقعة في وسط المدينة، وهم يصرخون وينادون. وشغل رجال المنصور، لازال منصوراً، بالغارة والسلب.

ولم يكن لأهل أخلاط سبيل إلى طلب الرحمة لكثرة معارضتهم ونغماسهم

في الغواية. لكن الرأي العطوف العادل منحهم الأمان، وأوقف الغارة والسلب فعم فيض من المكرمات نحو الشعب، كما ساد الهدوء، ودعوا للدولة القاهرة بقولهم : شيد الله أركانها. حتى المخالفون الفارون شملتهم أبواب المرحمة بعد أن قدموا الاعتذار والاستغفار واعترفوا : ﴿ ربنا ظلمنا ﴾. فعفي عنهم وتجاوز عن زلاتهم، وعن سائر المجرمين.

وقد انسلك في سلك العبودية روعاص أو طوعاص كل من إخوة الملك أشرف : مجير الدين وتقي الدين، وعز الدين أيك، وصاحب أرزن، والأمير أقسم بأسرهم وأجمعهم. وأسد بن عبدالله وجميع أركان الأسرة الأيوبية المالكة اليوم. ولقد حالفتهم الحظوظ بمزيد من القدرة واستمرار الحكم وتحقيق الطموحات بما منحناهم من حق الحياة والسعادة التي نعموا بها. وبهذه النهضة المباركة وهذه العظمة في ممالكهم الموروثة والمكتسبة، زادها الله بسطة، اتسع حكمهم. حتى لم يكتفوا بما كان لهم في الأمس القريب من ممالك الشام والروم، بل تصرفوا أكثر وخلدت دولتهم، خلدها الله ونصرهم.

وزعت هذه السعادات، وتحققت المطالب والأمني. فأرسلنا الأمير الفلاني ليوزع هذه البشري على الأمراء والأكابر والصدور والمعارف والقضاة والرؤساء والمشايخ والأعيان والمعتبرين وأهالي همدان كافة، عمرها الله وأحسن أحوال رعاياها. فابتهل الجميع إلى الله تعالى عز وعلا في حقنا الدعاء لهذه الألفاظ وهذا السرور، وبما حظيت به دولتنا القاهرة، لازالت راسخة البنيان ثابتة الأركان. وعمت فوائدها على طوائف الأمم كافة، وشغلوا بالدعوات الصالحات، بما منحوا من وظائف وخير. إن شاء الله تعالى وحده.

ملحق (٢)

نبذة من سيرة جلال الدين الخوارزمي نقلًا عن
كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٢ ص ٣٢٦-

٣٢٩.

السلطان الكبير جلال الدين منكوبري ابن السلطان الكبير علاء الدين
محمد ابن السلطان خوارزمشاه تكش ابن خوارزمشاه أرسلان ابن الملك أئسنز
بن محمد بن نوشتكين الخوارزمي.

تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في
مجلدا. ^(١) ولما دهمت التار البلاد الماوراء النهرية ^(٢) بادر والده علاء الدين
وجعل جاليشه ^(٣) ولده جلال الدين في خمسة عشر ألفاً، فتوغل في البلاد،
وأحاطت به المغول، فالتقاهم، فانكسر، وتخلص بعد الجهد، وتوصل.
وأما أبوه فما زال متقهقراً بين يدي العدو حتى مات غريباً سنة سبع عشرة
وست مئة في جزيرة من البحر.

قال الشهاب النسوي الموقع ^(٤) :

(١) هي " سيرة السلطان جلال الدين منكوبري " تأليف محمد بن أحمد النسوي المتوفي

حوالي سنة ٦٣٩، نشرها حافظ حمدي في القاهرة سنة ١٩٥٣.

(٢) هذا من تعابير الذهبي الخاصة لم يستعمله أحد قبله.

(٣) كلمة فارسية يريد بها : مقدم الجيش.

(٤) صاحب السيرة التي ذكرناها قبل قليل.

كان جلال الدين أسمر تركيا قصيراً منعجم العبارة، يتكلم بالتركية وبالفارسية. وأما شجاعته فحسبك ما أوردته من وقعاته، فكان أسداً ضرغاماً، وأشجع فرسانه إقداماً، لا غضوباً ولا شتاماً، وقوراً، لا يضحك إلا تبسماص، ولا يكثر كلاماً، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب.

وقال المموفق عبداللطيف : كان أسمر أصفر نحفياً سمجاً لأن أمه هندية، وكان يلبس طرطوراً فيه من شعر الخيل مصبغاً بألوان، وكان أخروه غياث الدين أجمل الناس صورة وأرقهم بشرة، لكنه ظلوم وأمه تركيه.

قلت: وكان عسكره أوباشاً فيهم شر وفسق وعتو.

قال الموفق: الزنى فيهم فاش واللواط غير معذوق بكبر ولا صغر والغدر خلق لهم، أخذوا تفليس بالأمان، ثم غدروا وقتلوا وسبوا.

قلت: كان يضرب بهم المثل في النهب والقتل، وعملوا كل قبيح، وهم جياع مجمعة، ضعاف العدد والخيل. التقى جلال الدين والتار، فهزمهم، وهلك مقدمهم [ابن] جنكزخان، فعظم على أبيه وقصده فالتقى الجمعان على نهر السند، فانهزم جنكزخان ثم خرج له كمين فتفلل جمع جلال الدين وفر إلى ناحية غزنة في حال واهية، ومعه أربعة آلاف في غاية الضعف، فتوجه نحو كرمان فأحسن إليه ملكها، فلما تقوى غدر به وقتله، وسار إلى شيراز وعسكره على بقر وحمير ومشاة ففر منه صاحبها، وجرت له أمور يطول شرحها ما بين ارتقاء وانخفاض، وهابته التار، ولولاه لد اسوا الدنيا. وقد ذهب إليه محيي الدين ابن الجوزي رسولاً فوجده يقرأ في مصحف ويكي، ثم اعتذر عما يفعله جنده بكثرتهم، وعدم طاعتهم، وقد تقاذفت به في البلاد إلى الهند ثم إلى كرمان ثم إلى أعمال العراق، وساق إلى أذربيجان، فاستولى على كثير منها، وغدر بأتابك أذربك، وأخرجه من بلاده، وأخذ زوجه ابنه السلطان طغرل، فتزوجها، ثم

عمل مصافاً مع الكرج فطحنهم، وقتل ملوكهم، وقوي ملكه، وكثرت جموعه، ثم في الآخر تلاشى أمره لما كسره الملك الأشرف موسى وصاحب الروم بناحية أرمينة، ثم كبسته التار ليلة، فنجوا في نحو مئة فارس، ثم تفرقوا عنه إلى أن بقي وحده، فألح في طلبه خمسة عشر من التار فثبت لهم وقتل اثنين فأحجموا عنه، وصعد في جبل بناحية آمد ينزله أكراد فأجاره كبير منهم، وعرف أنه السلطان، فوعده بكل خير، ففرح الكردي، وذهب ليحضر خيلاً له ويعلم بني عمه، وتركه عند أمه ن فجاء كردي فيه جراً فقال: ليش^(١) تخلوا هذا الخوارزمي عنكم؟ قيل: اسكت هذا هو السلطان، فقال لأقئلنه فقد قتل أخي بخلاط، ثم شد عليه بحربة، قتله في الحال في نصف شوال سنة ثمان وعشرين وسنة.

(١) لفظه عامية معناها : لأي شيء. لم نغش على ترجمة في " تاريخ الاسلام ".

ملحق (٣)

نص الكتاب الذي أرسله الملك الناصر داود أمير امارة الكرك الأيوبية إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٧هـ يشره بفتحه للقدس وتطهيره من دنس الصليبيين. والرسالة من انشاء الناصر داود. نقلاً عن كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد. الجزء الثالث صفحة ٢٢٦-٢٣٣:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي مادامت الأيام والسنون، وفتح بعزمه مستغلق الحصون، وأذاع ببركته سر النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرة الغصون، وقضى لأوليائه بنيل المنى، ولأعدائه بنيل المنون. العبد يقبل العتبة الشريفة التي تسير بتقيلها القلوب، وتقر بتقريبها العيون، وتود لو اكتحلت بأئمة ترابها الجفون ويصف شوقه إلى الخدمة التي تحقق في نعمها الآمال وتصدق في كرمها الظنون، ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون، وعليها يموتون وعليها يعثون.

وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج - خذلهم الله - القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ماصيره من أوطانه، وأقام به كند من كنودهم، ومقدم من جنودهم، وهو فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يذكر من شجعانهم، كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها، وملاها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج يقال له: " برج داود النبي - عليه الصلاة

والسلام - ابتناه لنفسه مسجداً، واتخذته لخلوته معبداً. وهو برج عظيم المقدار والحجم، مساو في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم، ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير، ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير، قد بني بالصناع والعمد، وتأنق بانوه في احكامه فما طال عليهم الأمد.

وهو من أسفله إلى ثلثه قد صب فيه الحجر والكلس صباً وردم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهره ولا استطاعوا أو كأنه استعان في اتقانه بجن سليمان، واستغرى اللعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان، ومن المشهورين بالشدة والبأس اذ التقى الجمعان. قد ركبوا في الغي رؤوسهم، ووطنوا على القتل نفوسهم يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش، ويردون حياض المنون ورود الأبل العاطاش، لا يلتقون سهام القسي إلا بنحورهم، ولا حجارة المنجنيق إلا بصدروهم، وبايعوه على الموت وحالفوا، وطاوعوه على الضلال فما عصوا ولا خالفوا. ثم عمدوا إلى القلعة والبرج فستروهما بالستائر المخلدة، والخشب المسندة، والغمد الممددة، وأوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة لابل نار الله الموقدة. فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، وراوهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكرة، ورجا بالمطاوله أن يسلموها من غير اراقة دم، أو قتل موحد يفتدي من المشركين بأمم، فتجمعوا على الضلال وتألّبوا، وحادوا عن طريق الرشاد وتنكبوا، وتوثبوا لنصر الصليب وتصلبوا.

فقاتل العبد صليهم بصليب من الرأي لا يعجم عودة، وقابل حاشهم بجيش من المصابرة لا يفل جنوده، وجرد لهم جماعة من عبيد الديوان ترسل إليهم البوائق من نبالها، وتشهر عليهم الصواعق من نصالها. ونصب عليها المجانيق التي تراحم الحصون بمناكبها، وتحرق شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم

كواكبها، ومن شأنها أنها إذا قابلت بلدة أخذت بكظمها وقضت برغمها، وأنزلتها على حكمها، قرمتهم بثلاثة الاثافي من جبالها، وسحرت أعينهم إلا أن الله ما أبطل سحر عصيها ولا سحر جبالها، وأوجد النقابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها، ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت لحجابها.

وكان الملاعين قد طمحت إلى الممانعة عيونهم، وغلقت بالمصابرة زهونهم، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وجزاهم بما كسبوا، ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة، الراية التي أعادت يسناها آية الليل لكن من آياته النهار أبصاراً، وأعظم من النيرين الشمس والقمر ضياءً وأبداراً.

وأخذ العبد القلعة وتسلمها، وافترع ذروتها العليا وتسنمها، وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلت، ومدت له أرضها فألقت مافيها وتخلت ولجأت من الملاعين طائفة إلى " برج داود " ترجو حقن دمائها وتقنع بسلامة دمائها وما علموا أنهم دخلوا منه سجنًا لاحتصناً ونزلوا به قبراً عدل لهم، وهم في قيد الحياة دفناً. وسيروا رسولاً يطلب لهم الأمان على نفوسهم وأموالهم والخروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم فما سمع العبد كلاماً ولا شفا لغلته أواماً، ولا عرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سلاماً، بل أمر الحجارين أن يجدوا في ثقب جداره من جميع أقطاره، ويجهدوا في قطع حد مأره بقلع أحجاره، ويوقدوا على عدو الله ناراً تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله في الآخرة بناره، فعادوا بعد ذلك سألوا الأمان على نفوسهم والخروج بمجرد نفوسهم، فأجابهم العبد إلى هذه المسألة الهيئة الممكنة، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

وصارت إلى العبد القلعة ارثاً عن أبيه، والبرج ارثاً عن سميّه، وهطل عليهم

سحاب بركة الديوان العزيز بوسميته ووليته، واجتمع شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد، فافترق شمل تثليت الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد وعطف الله على حزب الايمان بالنصر، وعاد على حزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذله، ورد الله الحق إلى نصابه وإليه يرجع الأمر كله.

والعبد يظن أن الله تعالى ما أعاد هذا البيت إلى العدو بعد فتوجه، ولا نقله عن الهداة من أمه محمد إلى الغواة من عبدة مسيحه، الا ليسطر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سطره في سيرة أمير المؤمنين جده، ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جنده.

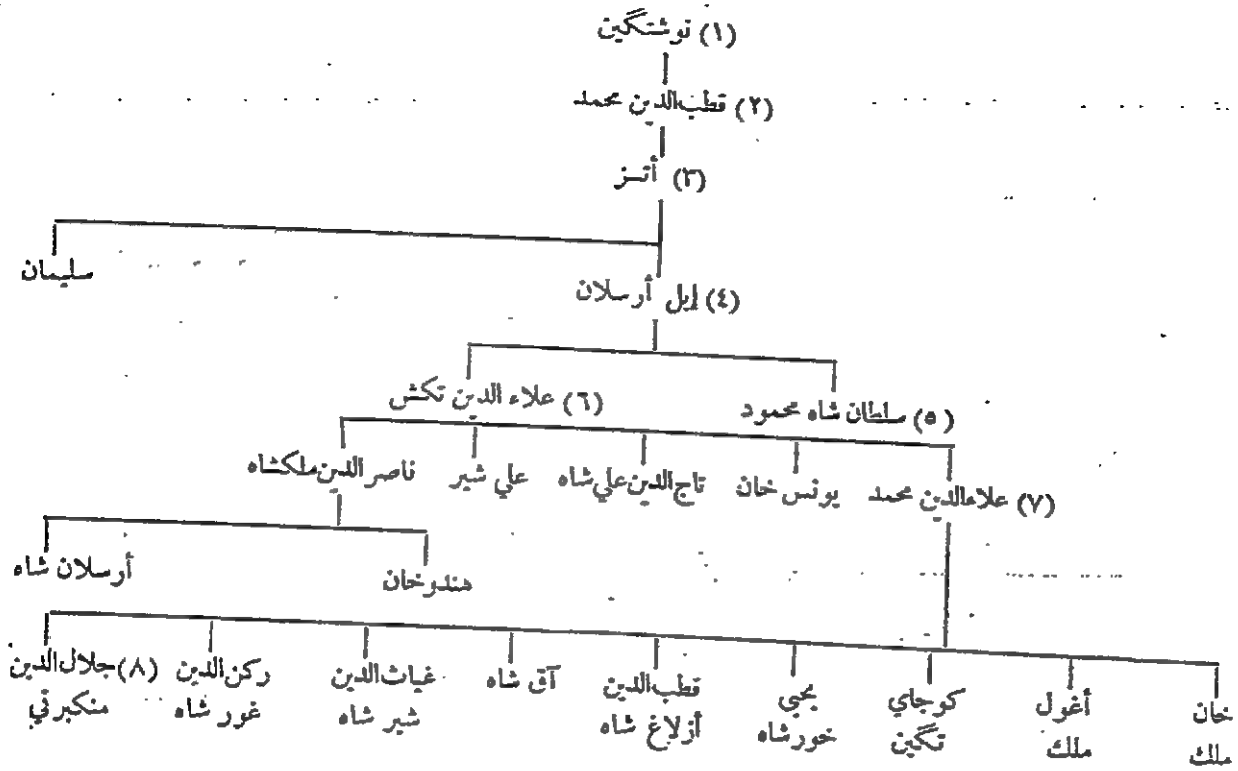
وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز، وظفر وجيز، فهو بعناية امامه الذي يستخرج له التوفيق من وعائه، ويمد في القرب بجيوش عساكره وفي البعد عساكره وفي البعد بجيوش دعائه. وقد سير العبد عبدالديوان " سرخاب " رسوله ليتلو " سورة الفتح " من حفظه، ويشرح صورة الأمر من لفظه، فانه كان للفتوح حاضراً، ولقتال العدو مباشراً.

والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثراً، وعيانها بالردم خيراً، ليخمد سرر شرها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يقيها معقلاً لهذا البيت الشريف، وموثلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف. وأما برج داود فقد تقدم عزم العبد على أن يغض من طرفه ويجدع من أنفه، ويقلل من ارتفاعه ويسهل من امتاعه ويجعله مسجداً للركوع والسجود، لا معقلاً للجموع والحشود، ومعبداً يلتزم بمزاره، لا حصناً يعتصم بأسواره.

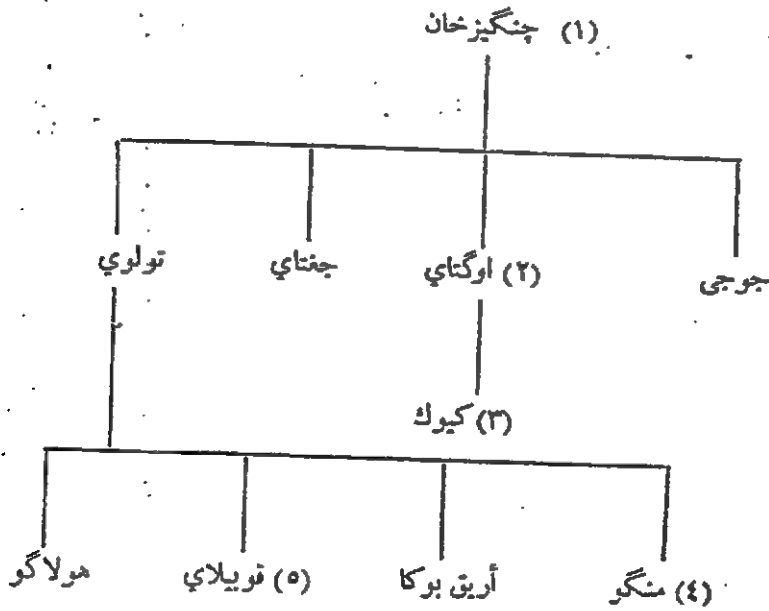
وهو يسترشد في ذلك الديوان العزيز الذي عليه معتمده، وإليه مرجعه فيما يصدره ويورده، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعييده حزب الله الغالب، وحزب عدوه وعدو دينه حزب الشيطان الهارب، ويقضى له ومن اعتلق به ببلوغ المالب والمآرب.

الجداول والخرائط

سلطین غوارزم



خانان المغول



أيوية مصر
شاذي بن مروان

نجم الدين أيوب

٤ - العادل الأول

٥ - الكامل محمد

١ - صلاح الدين يوسف

٢ - العزيز عثمان

المعتمد يوسف
(من أيوية اليمن)

١٠ - الأشرف موسى

٧ - الصالح أيوب = ٩ - شجرة الدر

التصور خليل

٨ - المعظم
توران شاه

٦ - العادل الثاني

٣ - المنصور محمد

أيوية دمشق

نجم الدين أيوب

٢ - العادل الأول

صلاح الدين يوسف

١ - الأفضل علي

مودود

٧ - الكامل محمد

٦ - الصالح إسماعيل

٥ - الأشرف موسى

٣ - المعظم عيسى

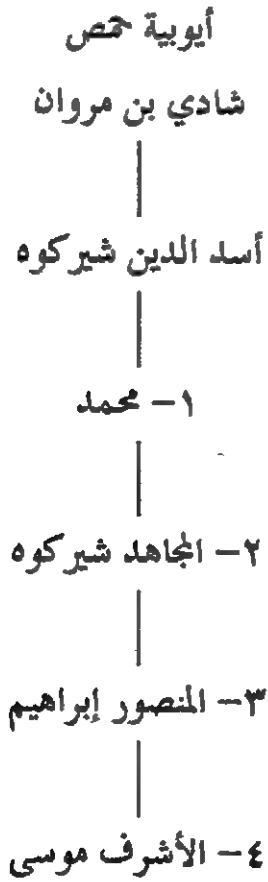
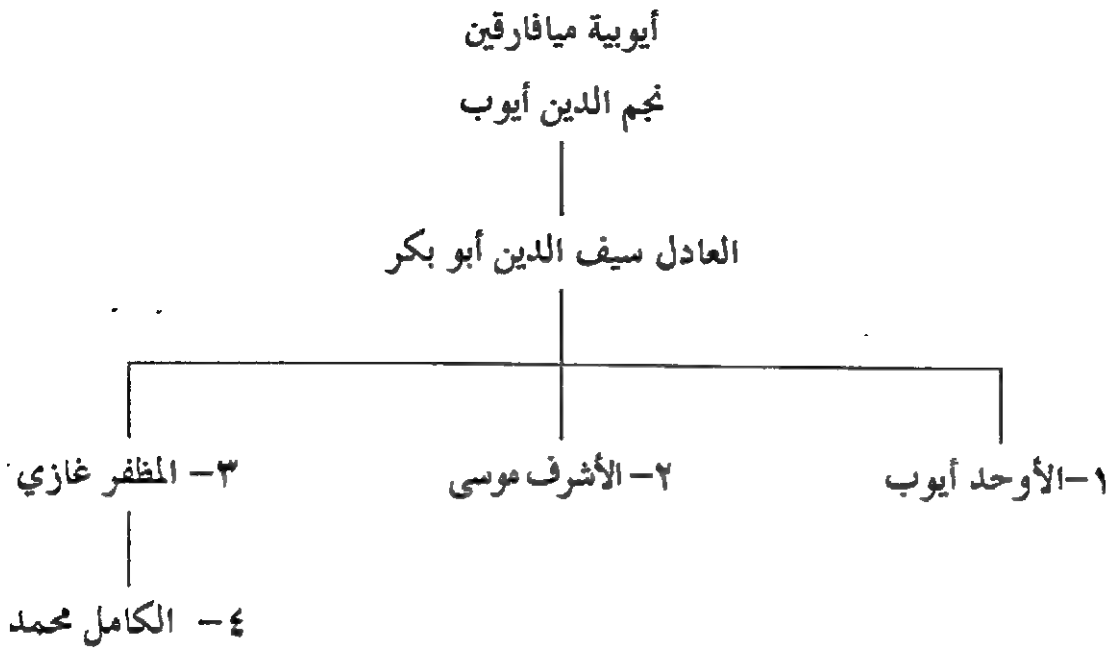
٤ - الناصر داود

٩ - الصالح أيوب

٨ - العادل الثاني

١٠ - المعظم توران شاه

المنيب عمر ٢



الأيوبيون في حلب
الناصر صلاح الدين يوسف

١- الظاهر غازي

٢- العزيز محمد

الظاهر غازي

٣- الناصر يوسف
العزيز

الأيوبيون في حمه

نجم الدين أيوب

نور الدين شاهنشاه

١- المظفر الأول

٢- المنصور الأول

٤- المظفر الثاني

٣- قليج أرسلان

المظفر علي

٥- المنصور الثاني

٧- المؤيد إسماعيل أبو الفداء

٦- المظفر الثالث

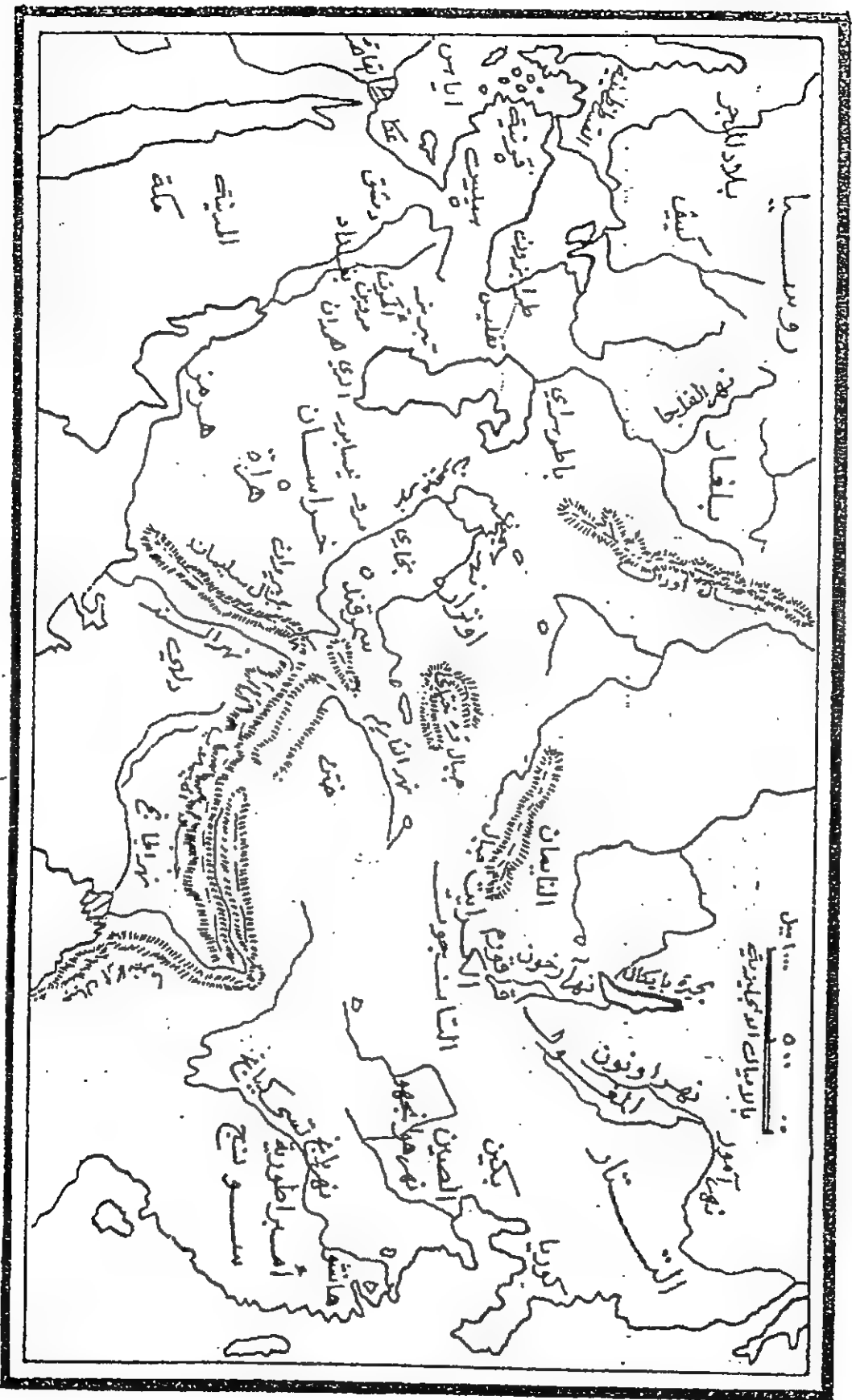
٨- الأفضل محمد



الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

نقشاً من كتاب: حيرة جلال لدية للنوري

خريطة (۱)

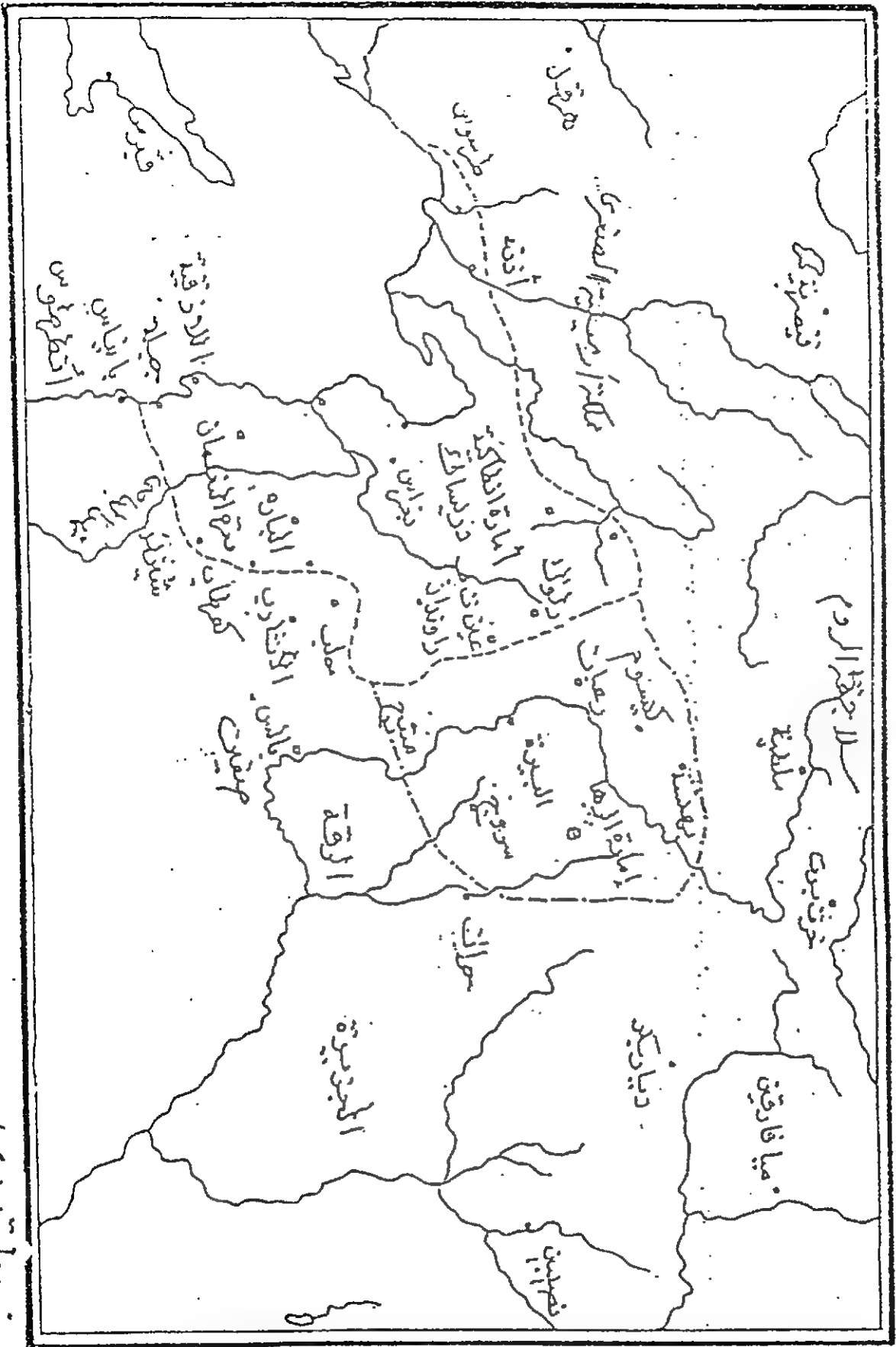


امپراطوری مغول

خریطة (۳)

نقشه کتاب المجلد ثانی

لله صیاد

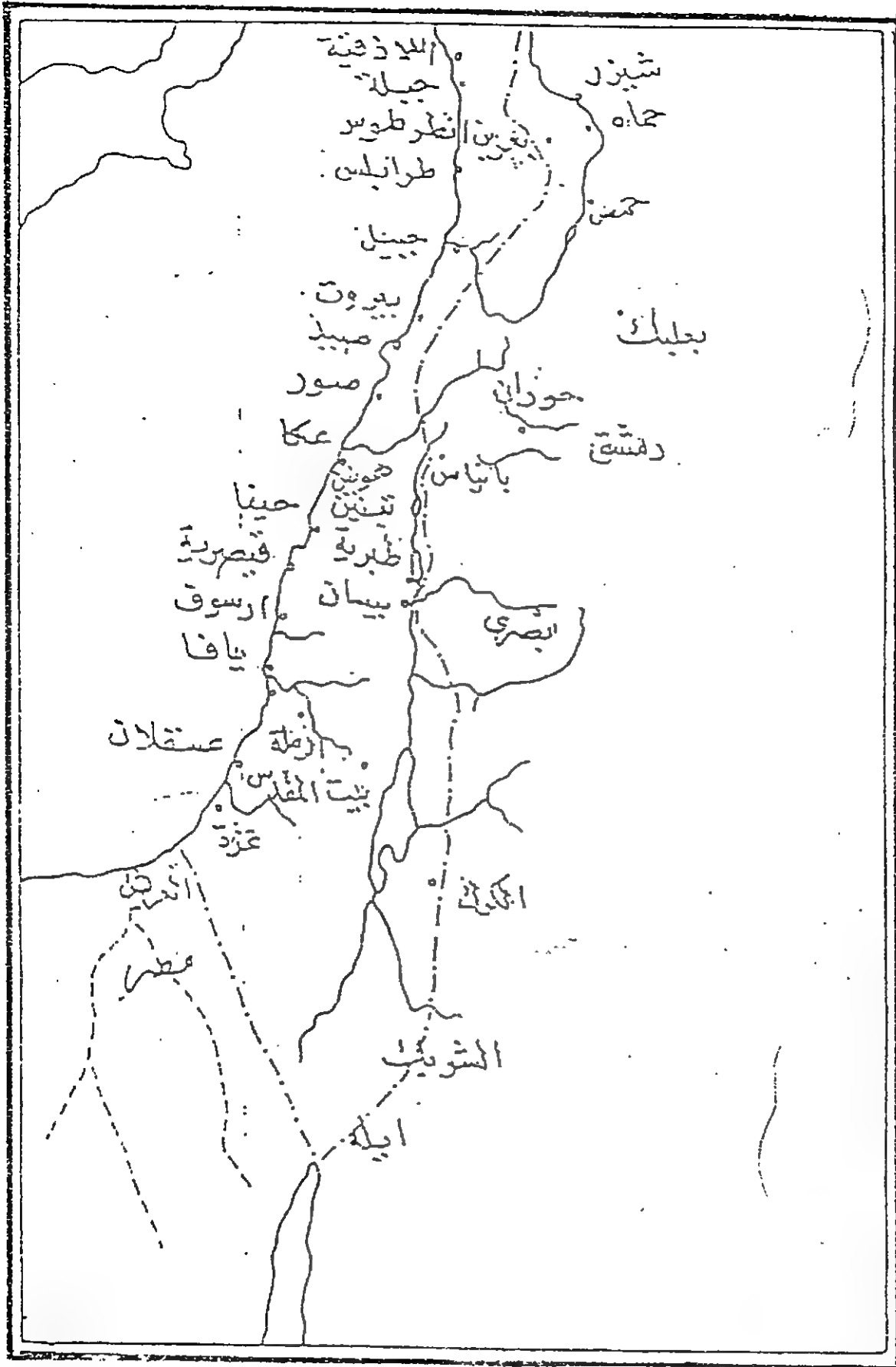


خريطة شمال بلاد النمام

نخريطتا (٤)

نقلًا من كتاب بلاد المايد ضد الجول

مبسم لغامري



خريطة (٥) * خريطة جنوب بلاد الشام *

نقل عن كتاب بلاد الحجاز ضد الغول عبد الله بن عبد الله

المصادر والمراجع

أولاً - المخطوطات :-

- ابن أبي الدم (أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن عبدالمؤمن، ت ٦٤٢هـ) التاريخ المظفرى. صورة بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ عن نسخة مكتبة خدا بخنش بالهند رقم ٣٨٦٩.
- الأصفهاني (محمد بن محمد بن حامد ت ٥٩٧هـ) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان. مصور بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨ عن نسخة أحمد الثالث بتركيا رقم ١٢٩٥٩.
- الحلبي (بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب، ت ٧٧٩هـ) جهينة الأخبار في أسماء الخلفاء وملوك الأمصار. مصور بمركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى برقم ١٣٨٤ عن نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ٥١٥٧.
- الخطيب العمري (ياسين الخطيب بن محمود بن موسى ت ١٢٣٢هـ) الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون. مصور بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى برقم ١٠٤٥ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٩٤٩.
- السيوطي (كمال الدين محمد بن أبي شريف ت ٩٠٦هـ) إتحاف الإخصا بفضائل المسجد الأقصى. دار الكتب المصرية رقم ١٨٢٩.

- العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، ت ٨٥٥هـ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. ج ١٣. مخطوط بدرا الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ وبمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٣٤ تاريخ.
- أبوالفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ) التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك. معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٤٦٧.
- الناصر (صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى) جمعه ابنه الملك الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن. الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية. مصور بدار الكتب المصرية عن نسخة الآستانة رقم ٦٣٩.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ)
 - ١- التاريخ الصالحى. مصور بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى برقم ١٠٦١ عن نسخة مكتبة فاتح باستامبول رقم ٤٢٢٤.
 - ٢- تاريخ الواصليين. دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩.

ثانياً - المصادر العربية والمترجمة المطبوعة :-

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبدالكريم اجزري ت ٦٣٠ هـ). الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت ٩٣٠ هـ) بدائع الزهور في وقائع الدهور. الجزء الأول، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- ابن أيك (أبو بكر عبدالله بن أيك الدواداري، ت ٧٣٢ هـ) كنز الدرر وجامع الغرر. الجزء السابع المعروف، بالدرر المطلوب في أخبار بني أيوب. تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور. القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م.
- البديلي (شرف خان) شرفنامه. ترجمه إلى العربية محمد علي عوني دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- أبو البركات الحنبلي (عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله لکناني العسقلاني، ت ٨٧٦ هـ). شفاء القلوب في مناقب بني أيوب. تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٨ م.
- البنداري (قوام الدين الفتح بن علي بن محمد، ت ٦٤٣ هـ) سنا البرق الشامى. تحقيق فتحه النبراوى.

- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي) السنن الكبرى. الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند.
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتابكي، ت ٨٧٤هـ).
- ١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ط. دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٢- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق محمد محمد أمين.
- ٣- الدليل الشافي على المنهل الصافي. تحقيق فهم محمد شلتوت، ط، مكة المكرمة.
- الجويني (عطا ملك الجويني). تاريخ فاتح العالم، جها نكشاي، في تاريخ الخوارزميين والإسماعيلية والحشاشين وفتح مدينة بغداد على يد هولاكو. نقله عن الفارسية محمد ألتونجي، دار الملاحه للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ) رفع الأسر عن قضاة مصر. تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٧م.
- الحريري (أحمد بن علي). الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين. تحقيق سهيل زكار. مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- ابن حنبل (الإمام أحمد بن محمد، ت ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد.
بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ.
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي) . صورة الأرض . ط . درا
الكتاب الإسلامي القاهرة.
- ابن خلدون (عبر الرحمن بن خلدون، ت ٨٠٨هـ) . تاريخ ابن خلدون
المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من
ذوى السلطان الأكبر . ط . بيروت سنة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق إحسان عباس . ط . بيروت
١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م.
- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدير العلائي المعروف بابن دقماق،
ت ٨٠٩هـ) . الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطين.
تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث
الإسلامي، بجامعة أم القرى.
- الديار بكري (حسين بن محمد الحسين، ت ٩٦٦هـ) . تاريخ الخميس
في أحوال أنفس نفيس . مؤسسة شعبان بيروت.
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز، ت ٧٤٨هـ)

١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الطبقة ٦٣، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، ط - مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢- تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث.

٣- دول الإسلام، تحقيق محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

٤- العبر في خبر من غير. تحقيق أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية - بيروت، ط / ١، ١٤٠٥هـ.

٥- سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م مؤسسة الرسالة بيروت.

٦- المختار من تاريخ ابن الجزري، المسمى حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق خضير عباس، طبعة بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبوالمظفر يوسف بن قزاوغلي، ت ٦٥٤هـ). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ٨، حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ.

- السبكي (تاج الدين أبونصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ٧٢٧- ٧٧١هـ). طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو وآخرون. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى.

- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد، ت ٩١١هـ).

- ١- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ٢- تاريخ الخلفاء. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ابن شاعر الكتبي (محمد بن شاعر الكتبي). فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، طبعة - بيروت.
- أبوشامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ).
- ١- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل بيروت.
- ٢- الروضتين في أخبار الدولتين ج ١، ق ٢ تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٢م.
- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد بن الشحنة، ت ٨٩٠). الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب. دار الكتاب العربي، سورية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ابن شداد (بهاء الدين أبوالمحسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤١٥هـ- ١٩٩٤.

- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي، ت ٦٨٤هـ).
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق يحيى عبارة، نشر
وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٧٨م.
- ابن طولون (محمد بن طولون الصالحى ت ٩٥٣هـ). تاريخ الصالحية.
تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية
بدمشق، الطبعة الثانية (١٤٠١هـ - ١٩٨٠م).
- ابن ظهيرة (ابو السعادات جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين،
٨٢٥ - ٨٨٥هـ). الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. تحقيق
مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتاب القاهرة ١٩٦٩م.
- ابن العبري (غريغورس أبى الفرج بن اهرن الطيب الملطى).
١- تاريخ مختصر الدول. دار الرائد لبنان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢- تاريخ الزمان. ترجمة إسحاق أرملة. دار الشرق بيروت ١٩٨٦م.
- ابن العديم (ابو القاسم صاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن أبى جرادة، ت ٦٦٠هـ).
١- زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان، الطبعة الأولى
بيروت ١٣٨٧هـ.
٢- بغية الطلب في تاريخ حلب. تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت.
- العصامي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكي، ١٠٤٩
- (١١١١هـ). سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالى. القاهرة
١٣٨٠هـ.

- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحى أحمد بن محمد، ت ١٠٨٩هـ).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. المكتبة التجارية - بيروت.
- ابن العميد (المكين جرجس بن العميد ت ٦٧٢هـ). أخبار الأيوبيين.
مكتبة الثقافة الدينية بمصر.
- ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥هـ).
معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٣٦٦-١٣٧١هـ.
- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ).
- ١- المختصر في أخبار البشر. دار المعرفة بيروت لبنان.
- ٢- تقويم البلدان. باريس ١٨٤٠م.
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي، ت ٨٠٧هـ).
تاريخ ابن الفرات. المجلد الرابع في قسمين، تحقيق حسن محمد الشماع، ط البصرة، ١٩٦٧م / ١٩٩٧م. المجلد السابع والثامن، تحقيق قسطنطين زريق، ط بيروت، ١٩٣٩م.
- ابن فرحون (المالكي). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق محمد الاحمدى أبو النور.

- ابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن الفوطى،
ت ٧٢٣هـ). الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة. دار
الفكر الحديث، بيروت لبنان ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ابن قطلوبغا (أبو العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا، ت ٨٧٩هـ).
تاج التراجم. مكتبة المتنبى بغداد.
- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد، ت ٨٢١هـ).
١- مآثر الإنافة في معالم الخلافة. تحقيق عبدالستار أحمد فراج، عالم
الكتب بيروت ١٩٨٠م.
٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٩-١٩٢٢م.
- ابن قنفذ (أبو العباس أحمد بن حسن القسطنطينى، ت ٨٠٩هـ).
الوفيات. تحقيق عادل نويهض، ط بيروت ١٩٧١م.
- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشى، ت ٧٧٤هـ).
البداية والنهاية. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- مجير الدين الحنبلى (أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلى، ت
٩٢٨هـ).
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب عمان الأردن.
- محي الدين الحنفى (محي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد القرشى
الحنفى، ت ٧٧٥هـ).

- الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلوى.
- مخلوف (محمد بن مخلوف). شجرة النور الزكية في طبقات الشافعية.
- مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج القشيري). صحيح مسلم.
- تعليق محمد فؤاد عبدالباقي، دار البحوث العلمية والإفتاء - السعودية.
- المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ت ٨٤٥ هـ).
- ١- السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٧ م.
- ٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ط القاهرة، ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م.
- المطلى (عبدالباسط بن خليل بن شاهين، ت ٩٢٠ هـ).
- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين. تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ابن منظور (أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ت ٧١١ هـ). لسان العرب، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.
- النسوي (محمد بن أحمد). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي.
- تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي ١٩٥٣ م.

- ابن نظيف الحموي (أبوالفضائل محمد بن علي). التاريخ المنصوري " تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان " تحقيق ابوالعيد دودو، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- النعيمي (عبدالقادر بن محمد لنعيمي الدمشقي، ت ٩٢٧هـ). المدارس في تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسيني، دمشق ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.
- الهمداني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة، ت ٧١٨هـ). جامع التواريخ، نقله إلى العربية فؤاد عبدالمعطي الصياد، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت ٦٩٧هـ). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الرابع والخامس تحقيق حسنين ربيع، دار الكتب المصرية ١٣٩٥هـ.
- ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر أبي الفوارس، ت ٧٤٩هـ). تاريخ ابن الوردي " تنمة المختصر في أخبار البشر " تحقيق أحمد رفعت البدرأوى، ١٣٨٩هـ.
- اليافعي (أبو محمد عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليمنى المكي، ت ٧٦٨هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر في حوادث الزمان. ط بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

— ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، ت ٦٢٦هـ. معجم البلدان. دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

— اليونيني (قطب الدين أبوالفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب اليونيني. ت ٧٢٦هـ). ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة : -

- أمين (أحمد أمين).
- يوم الإسلام. دار الكتاب العربي، لبنان.
- برجاولى (سعيد أحمد).
- الحروب الصليبية في المشرق. بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- بول (ستانلى لين بول).
- الدول الإسلامية. نقله إلى العربية محمد صبيحى فرزات، دمشق ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- التكريتى (محمود ياسين أحمد).
- الأيوبيين في شمال الشام والجزيرة، دار الرشيد بغداد ١٩٨١م.
- الجندى (محمد سليم).
- تاريخ معرة النعمان، مطبعة الترقى بدمشق.
- الحبشي (حسن).
- نور الدين محمود والصليبيون. ط القاهرة، سنة ١٩٤٨م.
- الحريرى (سيد على).
- الأخبار السنية في الحروب الصليبية. دار الفكر القاهرة ١٣١٧هـ.
- حسن (إبراهيم حسن).
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

- الحكمي (حافظ محمد).
مرويات غزوة الحديبية. دار ابن القيم الدمام الطبعة الأولى ١٤١١هـ -
١٩٩٠م.
- حمدي (حافظ أحمد).
١- الدولة الخوارزمية والمغول. دار الفكر العربي ١٩٤٩م.
٢- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي. دار الفكر العربي مصر
١٩٥٠م.
- خليل (عماد الدين خليل).
١- الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام. مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة
الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
٢- هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي. مكتبة النور مصر، الطبعة
الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
٣- عماد الدين زنكي، ط بيروت، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
٤- نور الدين محمود الرجل والتجربة. ط دمشق، سنة ١٤٠٠هـ.
الرافعي (عبدالرحمن) وسعيد عاشور.
مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار
النهضة العربية القاهرة ١٩٩٠م.
- رنسيان (ستيفن).
تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت.
- زكي (عبدالرحمن).
السلح في الإسلام. القاهرة ١٩٥١م.

- سبانو (أحمد غسان).
مملكة حماة الأيوبية. دار قتيبة دمشق.
- شراب (محمد محمد).
معجم بلدان فلسطين، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- الشيخ (محمد محمد).
الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ط القاهرة، ١٩٧٤ م.
- صبره (عفاف صبره).
١- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية. القاهرة الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- ٢- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٣- العلاقات بين الشرق والغرب. علاقة البندقية بمصر والشام في
الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠ م. دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٣ م.
- الصياد (فؤاد عبدالمعطي).
المغول في التاريخ. دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ م.
- الطريقي (عبدالله بن إبراهيم بن علي).
الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي. الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- عاشور (سعيد عبدالفتاح).
١- الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة
١٩٧١ م.
- ٢- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت،
١٩٧١ م

- ٣- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ط بيروت.
- ٤- الناصر صلاح الدين، ط القاهرة.
- عاشور (فايد حماد).
- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام القاهرة
الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
- العبادي (أحمد مختار) وآخرون.
- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام. بيروت ١٩٨١ م).
- عبدالحافظ (عادل عبدالحافظ عثمان حمزة).
- العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق
الإسلامي.
- القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م.
- عبدالله (يسرى عبدالغنى).
- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري. بيروت.
- عبدالمهدي (عبدالجليل حسن).
- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ٤٩٢-٦٤٨ هـ. عمان الأردن
١٤٠٩ م.
- العبود (نافع).
- الدولة الخوارزمية. بغداد الطبعة الأولى ١٩٧٨ م.
- عرفات (فتحي السيد عيد).

مصر في عهد الصالح نجم الدين أيوب. رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة الأزهر كلية اللغة العربية قسم التاريخ والحضارة ١٤٠٦هـ.

— العريني (السيد الباز).

١- المغول. دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٢- الشرق الأدنى في العصور الوسطى. بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

— العسلي (بسام).

الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية. دار النفائس بيروت الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ / ١٩٩٧م.

— علوان (عبدالله ناصح).

صلاح الدين بطل حطين ومحرر بيت المقدس.

— علي (محمد كرد).

خطط الشام. بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

— عمران (محمود سعيد).

١- تاريخ الحروب الصليبية. بيروت ١٩٩٠م.

٢- الحملة الصليبية الخامسة " حملة جان دي بريين على مصر ".

الإسكندرية ١٩٧٨م.

— عودة (علي محمد الغامدي).

بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ /

١٩٨٨م

— عويس (عبدالحليم).

دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية. دار الشروق جدة الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

الغامدى (سعد بن محمد حذيفة).

أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م.

الغامدى (عبدالله سعيد).

١- جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين. أم القرى ١٤١٠هـ.

٢- صلاح الدين والصليبيون. المكتبة الفيصلية الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ.

٣- مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين. أم القرى ١٤١٤هـ.

الغامدى (مسفر بن سالم).

الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي. جدة الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

غانم (حامد زيان).

الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب

الصليبية.

الغزى (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البايى الحلبي).

نهر الذهب في تاريخ حلب. حلب ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م.

غنيم (اسمت).

الدولة الأيوبية والصليبيون. الإسكندرية ١٩٨٧م.

غوانمه (يوسف حسن درويش).

إمارة الكرك الأيوبية. دار الفكر عمان الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ /

١٩٨٢م.

- الفقي (عصام الدين عبدالرؤوف).
- بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي. دار الفكر العربي.
- قلعجي (قدري).
- صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق والغرب. دار الكتاب العربي بيروت.
- كي لسترنج.
- بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة بشير عواد، مؤسسة الرسالة بيروت
- الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- اللحام (ماجد).
- معجم المعارك الحربية. بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- محمود (شفيق جاسر أحمد).
- القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها ٤٩٢-
- ٦٤٢هـ. القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- المطوى (محمد العروسي).
- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
- المعاضيدى (خاشع) وآخرون.
- تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي. الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
- معروف (ناجي).
- تاريخ علماء المستنصرية. القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- المنسي (محمد المنسي عاصي).

- تاريخ الحروب الصليبية وغارات المغول في العالم الإسلامي. ١٤٠٦ هـ
 - مصطفى (شاكر).
- التاريخ العربي والمؤرخون. جزآن، ١٩٧٩ - ١٩٨٠ م.
- مؤلف مجهول، خزانة السلاح، حققه نبيل محمد عبدالعزيز.
- مونيروند (مكسيموس).
- تاريخ الحروب الصليبية المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب.
 ترجمه إلى العربية / كيريومكسيموس مظلوم. ط ١٨٦٥ م.
- النبراوى (فتحة).
- العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى.
 القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.
- نسيم (جوزيف يوسف)
- ١- العدوان الصليبي على مصر. بيروت ١٩٨١ م.
- ٢- علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية.
- ٣- العدوان الصليبي على بلاد الشام. بيروت ١٩٨١ م.
- اليوسف (عبدالقادر أحمد).
- علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر.
- بيروت ١٩٦٩ م.

رابعاً : المجالات

- المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثلاثون والواحد والثلاثون، ١٩٨٣-١٩٨٤م، القاهرة. مقال لسوسن محمد نصر بعنوان " بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة " .
- مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادي عشر، ١٩٧٩م. مقال لعماد الدين خليل بعنوان " صفحات مجهولة من تاريخ الغزو التتري، التتري في ديار بكر... ودور الأراقة " .